2023

لبلاصة

مجلة نسوية جزائرية

N°1

LA PLACE REVUE FÉMINISTE ALGÉRIENNE

جرائم قتل النساء في الجزائر

تاريخ النضال

تفكيك

ملفات قضائية

بورتريه

راهن النضال

الجسم والصحة

إبداعات جديدة

ماسيسة باي

نوال الوراد

حوارات

مليكة رحال

آمال زان

مساهمة

حبيبة جحنين

عمود

سارة حيدر

منشورات دوافع

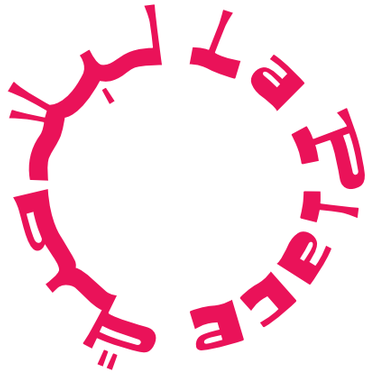

مجلة نسوية جزائرية العدد 1

رئيستا التحرير
مايا وعبادي وسعدية قاسم

المساهمات
إيمان أماني
وئام أوراس
ناتاليا بن خالد-فينس
مايسة باي
حبيبة جحنين
سعدية قاسم
سارة حيدر
نوال الوراد
هناء مناصرية
نجوى راهم
مايا وعبادي
ماجدة زوين

المصّورة
ليديا سعيدي
المصمّمة
لويز ديب

المترجمتان إلى اللغة العربية
جميلة حيدر وسارة حيدر

مساعدة التحرير للغة العربية
جميلة حيدر

مساعدة التحرير للّغة الفرنسية
فريدة بن ويس

©Éditions Motifs

contact@editionsmotifs.com
www.editionsmotifs.com

الطباعة مطبعة إبداع، الجزائر العاصمة
الخطوط 29LT Adir, Zarid

ISSN 2830-9235
الإيداع القانوني مارس /آذار 2023

أُنجز هذا المشروع بدعم من مؤسسة فريدريش إيبرت الجزائر..

لا تلزم النصوص والآراء الواردة في هذه المجلة سوى صاحباتها، وهي لا تعبّر بالضرورة عن موقف مؤسسة فريدريش إيبرت.

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

المحتويات

6 نْديرو «لبلامة» افتتاحية

8 المساهمات و هيئة التحرير سيَر

10 رحلة الخروج بورتريه
لالة فاطمة نسومر، ما وراء الأسطورة، **حبيبة جحنين**

22 واحدة أخرى حوار
مع مليكة رحال، **أجرته مايا وعبادي**

34 المغارة المتفجرة تفكيك
الرباط وهوس العذرية، **وئام أوراس**

42 المستقبل غدًا راهن النضال
المادة 66 من قانون الأسرة: عنف وتمييز ضد المطلقات وحرمان من العدالة، **نجوى راهم وماجدة زوين**

50 اسمعوني جرائم قتل النساء في الجزائر
قائمة جرائم قتل النساء في العام 2022

56 ساحرات الجسم والصحة
أمراض الغدة الدرقية: مشكلة صحية لدى الإناث، **إيمان أماني**

66 واحدة أخرى حوار
مع آمال زان، **أجرته: هناء مناصرية**

74 نْتي قدّامي وأنا موراك تاريخ النضال
مارس 1965، مسيرة في تاريخ الجزائريات، **ناتاليا بن خالد-فينس**

84 واسع هو السجن ملفات قضائية
الضرب والجرح العمدي، **سعدية قاسم**

92 ڤيم اوفر عمود سارة حيدر
معاداة النسوية الجديدة: تشريح رهابٍ جماعيّ

98 شظايا الأحلام إبداعات جديدة
على مسلك الذات، **نص لمايسة باي**
خطوات، **شريط مرسوم لنوال الوراد**

نْديـــــرو «لبلاصـــة»

افتتاحية

منـذ مـارس/آذار 2022 وصـدور العـدد التجريبـي لمجلـة «لبلاصة»، لـم تتحقّق بعدُ المساواة المنشودة بين النساء والرجال تحت سمائنا – قيل لنا ولا تحت سماوات أخرى. رائع، يجعلنا هذا نشعر بوحدة أقل –؛ ولم تصدر صحفٌ جديدة تديرها نساءٌ – قيل لنا إنّ عدد الصحفَ في كل الأحوال أصبح أقلّ في الجزائر، رائع، يجعلنا هذا نشعر بوحدة أقل.

في عـام 1992، اسـتهلّت جيزيـل حليمـي تقديـم كتابهـا *Le temps des malentendus* («زمن المفاهيـم الخاطئـة») بهـذه الأسئلة: «ماهي النسوية؟ هل هي موجودة؟ هل يمكنها أن توجد اليوم؟ لكـن مـا الحاجـة إليها؟ لقـد حصلت النسـاء على كلّ شيء!» واليـوم كذلـك، مثلمـا كان الحـال في بدايـة تسعينيّات القـرن الماضي، تتعالى أصوات قائلةً أنّ النساء قد حصلن بالفعل على كلّ حقوقهنّ، وفي كلّ المجالات، فلا حاجةَ إذًا لمواصلة النضال؛ لا حاجة للنسوية. فلتسترحن، أيتها السيدات! آه، كـم نـودّ ذلـك! لكننـا، مـا دمنـا نـرى أن الحـال ليـس فعـلًا كمـا يقـال، فسـنكمل نْديـرو «لبلاصـة»! هـا نحـن عدنـا إذًا بعـدد آخـر.

هـذا العـدد 1، كسـابقه، لا يتمحور حـول موضوع معيّن، وإنّما يواصـل اسـتكشـاف الحقـول نفسـها: راهـن النضـالات النسـوية، مـن خـلال مسـاهمة عـن المـادة 66 مـن قانـون الأسـرة؛ وتاريـخ هـذه النضـالات، بنـصّ يسـتعيد مظاهـرة الثامـن مـارس/آذار 1965 التاريخيـة في الجزائـر العاصمـة؛ وصحّـة النسـاء وأجسـادهنّ، بمقـال طبّي يسـتعرض الأمـراض المختلفـة للغـدة الدرقيـة التي تصيـب عددًا كبيـرًا من النسـاء؛ وقسـم «إبـداع» الـذي يضـم عمليـن غير منشـورين – نـصّ للكاتبـة ميسـاء بـاي، وشـريط مرسـوم لنـوال الـوراد –؛ وقسـم الحـوارات بمقابلتيـن، الأولى مـع المؤرّخـة مليكـة رحـال والثانيـة مـع المغنّيـة أمـال زان؛ وبـاب الملفات القضائيـة الذي يتنـاول قضيتان عن العنـف الزوجـي؛ وأمّـا عمـود سـارة حيـدر فيتنـاول بالتحليـل معـاداة النسـوية الجديـدة. ستكتشـفون في هـذا العـدد أيضًـا بابيـن جديديـن مكمّـلان لمجـالات البحـث السـابقة الذكـر؛ وهمـا: «تفكيـك»، تشـرّح فيـه وئـام أوراس ظاهـرة «الربـاط» وهـوس مجتمعاتنـا بالعذريـة؛ وأخيـراً بـاب «بورتريـه»، الـذي يسـرد سـيرة لالّا فاطمـة نسـومر خـارج الإطـار الأسـطوري المتـداول.

نـودّ أن نشـارككم أيضًـا شـعور الرّضـا والإنجـاز لعملنـا في هـذا العـدد، كمـا في العـدد التجريبـي، مـع فريـق نسـويٍّ بالكامـل. فشـكرًا لجميع من شـرفننا بمسـاهماتهنّ: إيمـان أماني، وئـام أوراس، نتاليا بن خالـد فينس، ميسـاء بـاي، حبيبة جحنين، نوال الـوراد، هنـاء مناصرية، نجـوى راهـم، ماجـدة زويـن، ليديـا سـعيدي، فريـدة بـن ويـس، فريـال خليـل، جميلـة حيـدر، ولويـز ديـب.

ولا يفوتنـا، ختامًـا، الإعـراب عـن امتناننـا للقـراء والقارئـات الذيـن تلقّـوا العـدد التجريبـي بصـدر رحـب واهتمـام جـمٍّ. نحـن نتطلّـع لتبـادل الآراء معكـم مجـدّدًا بشـأن هـذا العـدد الجديـد. ثـمّ، إنّنـا نتـوق إلى اليـوم الـذي سـنصدر فيـه العـدد الأخيـر للمجلـة، حيـن لـن يكـون مـن داعٍ حقًّـا لوجـود النسـوية! – لكـن، قيـل لنـا إنّنـا سـنلتقي قريبًـا، في العـدد المقبـل...

سعدية قاسم ومايا وعبادي

المساهِمات

سيَر

إيمان أماني طبيبة مستشفيات في الجزائر العاصمة. تعمل في المركز الاستشفائي الجامعي مصطفى باشا. شاركت في المجلة الإلكترونية *Intymag*.

وئام أوراس مناضلة نسوية وإحدى مؤسّستي موقع Féminicides Algérie («لا لقتل النساء - الجزائر»)، الذي يُعنى بإحصاء جرائم قتل الإناث في الجزائر منذ عام 2020، وهي حاصلة على شهادة في الصيدلة وطبّ الأعشاب. في عام 2019، أخرجت وئام أوراس الفيلم الوثائقي «بُنات الجبليَّة»، الذي يروي حيوات نساء عائلتها.

سارة حيدر صحفية وكاتبة عمود وروائية ومترجمة، صدر لها منذ 2004 ثلاث روايات باللغة العربية، وباللغة الفرنسية روايتين هما *Virgules en trombe* – «جموح الفواصل» (منشورات أبيك في 2013، ومنشورات Libertalia في 2018)، و*La morsure du coquelicot* – «عضة زهرة الخشخاش» (منشورات أبيك في 2016، ومنشورات Métagraphes في 2018).

نتاليا بن خالد-فينس أستاذة مشاركة في التاريخ المعاصر بجامعة أوكسفورد. صدر لها *Our Fighting Sisters: Nation, Memory and Gender in Algeria, 1954 - 62* («أخواتنا المناضلات: الوطن، الذاكرة، والجندر، 1954-1962») عامَ 2015، و*The Algerian War, the Algerian Revolution* («الحرب الجزائرية، الثورة الجزائرية») عام 2020. وهي صاحبة مشروع وثائقي بثلاث لغات، يحمل عنوان *Generation Independence* («جيل الاستقلال») على اليوتيوب.

ميساء باي كاتبة جزائرية. صدرت باكورة رواياتها *Au commencement était la mer* («في البدء كان البحر») عامَ 1996، وتلتها *Cette fille-là* («تلك الفتاة») في عام 2001، التي نالت عنها أولى جوائزها الأدبية، ثمّ سلسلة روايات أخرى، نذكر من بينها *Puisque mon cœur est mort* («لأنّ قلبي قد مات»)، الحائزة على جائزة Prix de l'Afrique Méditerranée في عام 2010، وHizya («حيزيّة») عام 2015. كما ألّفت الكاتبة مجموعات قصصيّة، منها *Nouvelles d'Algérie* («قصص من الجزائر») في 1998، و*Sous le jasmin la nuit* («ظل ليل الياسمين») في 2004، ومسرحيّتان *On dirait qu'elle danse* («وكأنها ترقص»)، و*Chaque pas que fait le soleil* («خطوات الشمس»)، وسيرة ذاتية بعنوان *L'une et l'autre* («أنا الأخرى»).

حبيبة جحنين شاعرةٌ، ومخرجة، ومدرِّبة في مجال السينما. تحاول من خلال تجربتها السينمائية التأمل في مكانة الحميمي في السياسي وتحركه نحوه. ساهمت منذ صغرها في إنشاء مساحات للإبداع والتفكير تتمحور حول السينما بوصفها فضاءً للتصوّرات ومساحة للإسقاطات الجماعية. في عام 2003، شاركت في تأسيس «لقاءات بجاية السينمائية» كرد فعل على حقبة ما بعد الحرب الأهلية. وتقيم منذ عام 2007 ورش عمل في صناعة الأفلام الوثائقية لفائدة الجزائريين والجزائريات الراغبين في صناعة فيلمهم الأول.

هناء مناصرية صحافية، أدارت القسم الثقافي في الجريدة اليومية الوطنية الجزائرية *Liberté* من 2015 إلى 2020. نالت شهادة الليسانس في اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة عنابة، وبدأت حياتها المهنية في الصحافة عام 2007 في جريدة *L'Est républicain*. بالموازاة مع كتابة تقارير حول مواضيع مختلفة تتعلق بالأحداث الراهنة (الحوار بين الثقافات، الهجرات...)، تعاونت أيضًا مع العديد من المجلات المتخصصة في الفنون والسينما على وجه الخصوص. في عام 2022، حازت جائزة أفضل إنتاج صحفي عن الهجرة، في إطار مسابقة نظمتها المنظمة الدولية للهجرة بالجزائر.

ليديا سعيدي مصورة وأمينة محفوظات الصور الفوتوغرافية. يركز عملها على قضايا الحرية، والقيود الاجتماعية، والذاكرة. وهي تعمل أيضًا على مشاريع رقمية تهدف إلى تثمين التراث الأرشيفي وتبادل المعرفة. ليديا عضوة في مشروع «أرشيف نضالات النساء في الجزائر».

نوال الوراد درست الهندسة المعمارية والسينوغرافيا، وعملت في الوسط المسرحي، ثمّ في الصحافة المكتوبة، قبل أن تنشر قصصها المصوّرة الأولى (كوميكس). صدر لها، من بين إصدارات أخرى، لدى منشورات داليمان *Les vêpres Algériennes* («صلوات الغروب الجزائرية») عام 2012، و*Bach to black* («عودة باخ إلى الأسود») عام 2013، و*Regretter l'absence de l'astre* («أسفٌ على غياب النجم») عام 2015؛ وعن منشورات Cambourakis القصة المصوّرة *Alger-Marseille, Allers-retours* («الجزائر العاصمة-مارسيليا، ذهاب وإياب») عام 2015.

نجوى راهم صحفية مستقلة ومراسلة لوكالة أنباء المرأة (JINHA) منذ ثلاث سنوات. وهي أيضًا عضو في موقع MedFemiswiya. وتعمل نجوى أيضًا محررةً في المجلة الثقافية *Foufoun*، ومنتجة في إذاعة Voix de femmes، وعضو في جمعية «المرأة في اتصال» ومؤسسة «الجريدة النسوية الجزائرية». في عام 2017، حازت درجةَ الماستر في الصحافة المرئية والمسموعة ووسائل الإعلام الجديدة في المدرسة الوطنية العليا للصحافة وعلوم الإعلام في الجزائر العاصمة.

ماجدة زوين صحفية ومديرة برامج في إذاعة Voix de femmes. عملت في قناة «الجزائرية»، وتتعاون حاليًا مع العديد من المنصات، بما فيها المواقع الإخبارية *Casbah Tribune* ورصيف 22. ماجدة هي أيضًا ناشطة في مجال حقوق المرأة.

هيئة التحرير

سيَر

فريدة بن ويس – مدقّقة لغوية للنسخة الفرنسية
مديرة مشاركة لمجلة «إيكوسيم» المتخصصة في الآثار والتراث الجزائري منذ 2012. شاركت في العديد من المشاريع الثقافية، بما في ذلك مشروع «متحف بلا حدود» (Museum With No Frontiers)، التابع للاتحاد الأوروبي، حول الفن الإسلامي في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وهي حاصلة على تكوين في التاريخ، وتخرجت من كلية الآداب بجامعة الجزائر.

فريال خليل – مترجمة المحتوى من العربية إلى الفرنسية
محامية ومستشارة قانونية، تعمل لدى جمعية وسيلة في الجزائر العاصمة منذ عام 2009.

لويز ديب – مصمّمة غرافيك
فنانة، تعمل مصممة ومدرّبة في استوديو تصميم الغرافيك «شامبو» (Studio graphique Chimbo) في الجزائر العاصمة، وهي متخصصة في مجالي النشر والهوية البصرية، كما تهوى تنظيم ورشات للإبداع الفني، نذكر من بينها: ورشة «مخبر الخطّ»، وهو مخبر لتصميم الخطوط في الجزائر العاصمة؛ وورشة «متنبر»، وهو مشروع بحثي يُعنى بالذاكرة الجماعية لخمس مناطق جزائرية، تجسَّد على أرض الواقع من خلال إقامات فنية وتأسيس جريدة في عام 2021.

جميلة حيدر – مترجمة ومساعدة تحرير (اللغة العربية)
مترجمة أدبية ومدققة لغوية وتُرجمانة، تقيم وتعمل في الجزائر العاصمة. تساهم جميلة أيضًا في الموقع الثقافي «رحبة»، وعملت سابقًا ناشرة في داري نشر جزائريتين وأستاذةً للغة الإنجليزية.

سعدية قاسم ومايا وعبادي – رئيستا التحرير
تحضّر سعدية قاسم لنيل درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا القانونية، وتتمحور أبحاثها حول قانون الأسرة. أخرجت فيلمها الوثائقي الأول «فلفل لحمر» في عام 2019. سعدية مناضلة نسوية في جمعية شبكة وسيلة في الجزائر العاصمة، ومهتمّة بتاريخ الحركة النسوية في الجزائر وبمسارات المناضلات النسويات. كما أنها تساهم في المشروع التعاوني «أرشيف نضالات النساء في الجزائر»، رفقة أوال حواتي وليديا سعيدي.

مايا ناشرةٌ، حاصلة على شهادة ليسانس في اللغة الفرنسية وآدابها، وماستر في النشر. التحقت بعد إتمام دراستها بمنشورات البرزخ، حيث عملت محررةً للعديد من الروايات والدراسات التي أصدرتها الدار. في عام 2018، أسست مايا وعبادي منشورات موتيف التي تنشر، من بين مطبوعات أخرى، مجلة «فصل» المتخصصة في النقد الأدبي الصادرة باللغتين العربية والفرنسية. تعمل حاليًّا، مع ليبَا موران وتودا بوعناني، على بحث ومشروع نشر حول الكتابات عن السينما في البلدان العربية خلال فترة ما بعد الاستقلال.

رحلة إلى الخروج وهاغا*

* عنوان رواية فرجينيا وولف الأولى، صدرت في عام 1915

لالة فاطمة نسومر
ما وراء الأسطورة

حبيبة جحنين

«نحن جزء من هذا الجبل، كالحجارة والصخور التي يتكون منها. ستغادرون، عاجلًا أم آجلًا، وسنبقى.»
لالة فاطمة نسومر للجنرال راندون[1]

فاطمة نسومر، نسوية في المقام الأول

ثانوية ابن سينا، مدينة بجاية، في قاعة الطعام بذلك المبنى الكئيب والغامض، الذي بني على صخرة خلال الحقبة الاستعمارية، هناك، سمعت اسمها لأول مرة.

نحن في فصل الخريف لعام 1985، وأنا طالبة بالثانوية ومندوبة القسم، ومنشطة نادي السينما النسائي لمركز الشباب «سوماري»، بحيّنا «حومة أوبازين». استدعتنا مديرة الثانوية، السيدة ليلى حسينة تريكي، إلى مكتبها، حيث طلبت حضور خمس طالبات من الأقسام النهائية لمساعدتها في تنظيم يوم إحياء ذكرى الأول من نوفمبر 1954 (تاريخ اندلاع الثورة التحريرية).

عزمت السيدة تريكي، التي كانت هي نفسها مجاهدة سابقة، على دعوة المجاهدات السابقات، «صديقاتها»، كما قالت، للإدلاء بشهادتهن حول نضالهنّ، وعن دور المرأة إبان ثورة التحرير؛ جاكلين ڤروج المولودة نيتر[2]، زهور زراري[3]، فاطمة بن عصمان المولودة زكال[4] (رحمهن الله).

تأثرنا بالاستماع إلى هؤلاء النساء الثلاث وأبهرنا بهن وهن يخبرننا عن مسيرتهن بنبرة متواضعة ومتحفظة. انحبست أنفاسنا إجلالًا، في ذلك المكان الصاخب عادةً. ما زلت أتذكر الوقار المنبعث من كلامهن.

أخبرننا عن روابطهن المعقدة مع عائلاتهن وعواقب قرارهن الانخراط في الثورة، وسنوات السجن والتعذيب، وعن تنظيم المقاومة... كنّا نتخيّل، جملة بعد جملة، وكلمة بعد كلمة، في أعينهن وفي كيانهن وفي إيماءاتهن، تلك الشّابات اليافعات اللاتي كنّ. لقد كنَّ في سنّنا عندما انضممن لصفوف المقاومة والكفاح المسلح، وقمن بعمليات مختلفة من أجل تحرير الجزائر. في لحظة ما، ساد نوع من التوتر اللطيف قاعةَ الطعام المزدحمة بطالبات الثانوية وبعض الطلاب.

فيما يخصني، وصل توتّري وتركيزي إلى ذروتهما عند سماعي اسم فاطمة نسومر... وأنها ولدت في عام 1830! زعزعت تلك اللحظة تصوري عن انخراط النساء في مختلف النضالات، وجعلتني أدرك ذلك

1. سعدون سليمان، مقتطف من *Lalla N'Ouerdja la Révoltée* («لالة نورجة الثورية»)، دار نشر ميديا اندكس، 2019.
2. جاكلين ڤروج نيتر (1919-2015)، مناضلة شيوعية فرنسية ومناهضة للاستعمار الفرنسي، عضوة في جبهة التحرير الوطني ومجاهدة.
3. زهور زراري، (1937-2013)، مناضلة جزائرية طالبت بالاستقلال، مجاهدة بقصبة الجزائر، ثم صحفية وكاتبة.
4. فاطمة زكال (1928-1990)، مناضلة قومية ومجاهدة.

التاريخ المغيَّب عمدًا، والإنكار الذي يحيط بالتزامهنّ الوطني، في فترات مختلفة من تاريخ الجزائر.

أخذت السيدة تريكي تروي مسيرة هؤلاء الأيقونات، ومقاومتهن للغزو الاستعماري الفرنسي العنيف. تحدثت عن فاطمة نسومر، المرأة القبائلية، الجبلية، التي انضمت للمقاومة ضد غزو الجيش الاستعماري ونظمتها، واصفةً إيّاها بـ «أسطورة حقيقية».

استمعت بفضول واهتمام كبير لبقية عرض المديرة، التي سلطت الضوء على اختيارات هذه المرأة الناشئة في عائلة محافظة ومرابطة، ما يدل على عزمها القوي على جعل صوتها مسموعا، رافضة الزواج وذلك المصير المحتوم تقليديا للنساء. إن انخراطها في صفوف المقاومة ضد الغزو الاستعماري المسلح هو ما سيبقى أثره راسخًا في الأذهان، جاعلا منها «شخصية أيقونية» ستصمد أمام اختبار الزمن، على الرغم من الصمت والنسيان والطمس والإنكار. فكتبنا المدرسية وقتها لم تأت على ذكر قصة هذه المرأة مطلقًا.

في طريق عودتي إلى المنزل، رافق خطواتي عرض ليلى حسينة تريكي، وشهادات زهور زراري وجاكلين ڤروج وفاطمة بن عثمان زكال، وشغلت كلماتهنّ فكري.

حين وصلت إلى المنزل، سألت يمّا عمّا إذا كانت تعرف فاطمة نسومر وإذا كان بإمكانها إخباري بما تعرفه. فتوجهت إلى خزانة الكتب وسلمتني كتاب الطاهر أوصديق[5] «لالة فاطمة نسومر، سرد»، وقالت لي «صدر منذ عامين، في 83 على ما أعتقد». نظرت إليها بعيون الدهشة، حتى خمّنت أفكاري: «كيف فلت مني هذا الكتاب؟». في مساء ذلك اليوم، التهمت الكتاب ذي المائة صفحة التهامًا، وأعددت بعدها بحثًا عرضته بالثانوية، بعد بحث آخر عن قانون الأسرة. في تلك الفترة، لم أكن أعرف حركة نضال المرأة من أجل حقوقها، كما برز خلال السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الماضي، لاسيما بشأن قانون الأسرة الذي سُنَّ في عام 1984، على الرغم من احتجاجات النساء ومعارضتهنّ، بخاصة المجاهدات السابقات منهن.

بصفتنا طالبات بالثانوية، كان وضعنا كنساء يشغل حياتنا بعمق، مثلما كانت تشغلنا القضايا النسوية، حتى لو لم نكن على دراية كاملة بمدى الضرر الذي مسّنا.

بعد حصولي على شهادة البكالوريا، انتقلت إلى الإقامة الجامعية بالجزائر العاصمة، ليس فقط من أجل مزاولة دراساتي العليا، ولكن أيضا لمقابلة النسويات، لاسيما عضوات مجموعة «أحلام»، اللاتي كنّ ينظمن عروض نادي سينما غير مختلط بمتحف السينما الجزائرية في العاصمة، وكذلك اجتماعات نسائية بحديقة صوفيا بالجزائر الوسطى. تسارعت عجلة التاريخ، على الأقل وفق رؤيتي

5. الطاهر أوصديق، *L'La Fad'ma n'Summer. Récit* («لالة فاطمة نسومر، سرد»)، دار نشر لافوميك، 1983. أعيد نشره في عام 2011 لدى المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

للأمور، وتوسعت الحركة النسائية[6] ونُظّمت، إلى أنّ حلّ عام 1988 محمّلاً بالنضال والقمع والتعذيب والتنظيم الذاتي والتعبئة.

خلال مظاهرة 8 مارس/آذار 1989، تحشدت الجمعيات والائتلافات النسائية من جميع أنحاء البلد في شوارع العاصمة، وصدحت أصواتنا بالنص التالي:

جزايريات أحرار

ما يقبلوش العار

ويواصلو المشوار

حتى الانتصار

الديمقراطية

حقوق نسوية

آ فاطمة، آ فاطمة، أ فاطمة نسومر...

الديمقراطية

حقوق نسوية

و مازلنا ثوّار

احتوت هذه الجمل القليلة التي تغنت بها مئات النساء لوحدها على مجمل برنامج نضال المرأة من أجل تحررها. كلمات تكررت دون كلل ولا ملل، إلى يومنا هذا، وبعد أكثر من ثلاثين سنةً، يبقى للحرية والكرامة والديمقراطية طريقٌ تسلكه لتحقيق النصر، نحو احترام حقوق المرأة.

لماذا التذرع باسم فاطمة نسومر؟ أكنّا نطلب منها الحماية؟ أكنّا نطلب الانتماء لرمز المقاومة الذي تمثله؟ أكنّا ندرك أن فاطمة تحدّت العائلة والقرية لتحقيق المصير الذي اختارته لنفسها؟ تتذكر شوارع الجزائر العاصمة ذلك وكذلك نحن النسويات.

في العدد الأول من مجلة الجمعية النسائية لمدينة تيزي وزو، «ثيغري نتمطوث» (صرخةالنساء)، لشهر نوفمبر/تشرين الثاني 1990، يمكننا قراءة نص غير موقع بعنوان «زيارة إلى فاطمة نسومر»، يسرد تفاصيل رحلة نظمتها الجمعية لزيارة الأماكن التي عاشت فيها فاطمة نسومر وتلك التي بصمتها بمرورها. أذكر الفقرة الأخيرة منه هنا: «لقد لاحظنا أن فاطمة تُذكر في أهازيج قريتها كشخصية أسطورية. يُحكى عن شجاعتها وقوة شخصيتها، ولكن بما أنها امرأة فإن الأضواء تُسلّط أكثر على عفتها. لذا، وباقتناع شديد، يحكى بين النساء بأن جنرالًا فرنسيا اقتحم زنزانتها، بنيّة يمكنكم تخمينها، تحول إلى امرأة بينما كانت هي تطير في هيئة يمامةٍ بيضاء». يعدّ هذا النص مؤثرًا بما يعالج من مواضيع؛ فهو يُظهر في جوهره كيف تُروى القصص المتعلقة بالنساء، التي بقيت عالقة في الذاكرة الجماعية، على نحو يبرز حرصهن على شرفهن، وهذا على الرغم من مرور الوقت.

في عام 2002، اقترح عليّ نبيل فارس أن أحرر نبذة عن سيرة ومسيرة فاطمة نسومر لنشرها في قاموس فرنسا-الجزائر[7]. ويعود مرة أخرى اسم هذه المرأة إلى لظهور في حياتي ليمنحني الفرصة للتعمق في بحثي. لقد فوجئت بعدم وجود الكثير من المراجع عن هذه الشخصية الرمز؛ حيث تُحيل

6. فريال لعلامي، «تطور الحركة النسوية بين 1989 و1991»، مجلة «لبلاصة»، العدد 0، مارس/آذار 2022.

7. حبيبة جحنين، «فاطمة نسومر»، dictionnaire *L'Algérie et la France*(قاموس «الجزائر وفرنسا»)، تحت إشراف جنين فيرداس لورو، دار نشر روبرت لافونت، 2009.

Page 11

CULTUREL

VISITE CHEZ "FATHMA N'SOUMER"

Le choix du site de Fathma n'soumer pour notre première sortie aérée a été symbolique pour nous association de femmes; il nous a été donné de découvrir l' épopée d'une femme kabyle ayant réussi à s'imposer et à imposer ses idées. La présence de monsieur Bittam nous a été bénéfique par sa bonne connaissance du personnage et de la région.

Nous avons quitté Tizi-ouzou à 8h du matin en direction de Soumer. Nous avons sillonné les crêtes de kabylie dans une ambiance très animée et la tête pleine de rêves d'un passé que nous ignorions presque toutes.

Nous avons fait plusieurs arrêts notamment sur des lieux où se sont déroulés les batailles de 1871 contre l'armée Francaise.

A 10h 30 nous étions à Tichekirt. Tichekirt , nom kabyle du chêne , est le lieu d'une bataille à laquelle a participé "Fathma n soumer" le 17 au 19 juillet 1854. Nous y avons découvert des tombes d'époque ignorées et ensevelies en partie par le monument érigé en l'honneur des chouhadas de 1954 - 1962. De cet endroit, on pouvait admirer Tiurtatin Nurdja (gouffre qui servait d'abri à Fathma n' soumer et à ses combattants et qui ferait le bonheur de spéléologues. tout près de là se dresse le pic d'Azru n thur, un monument religieux y est construit.

Ce lieu est historique , c'est là que les responsables des patrouilles militaires ont débattu de l'intégration de "Fathma n soumer" et de sa désignation à la tête des troupes.

A 11h 50 nous étions au village de Fathma. Nous avons déjeuné au pied de "Taqubets" de son père datant de 1850.

A 12h 20 nous étions à Soumer village situé en contre bas au pied du djurdjura; avant d'amorcer la descente nous avons découvert un monument érigé il y a une dizaine années en hommage à Fathma n'soumer, commémorant ses faits guerriers (1851-1857).

Dans le petit village de Soumer, nous avons découvert avec beaucoup d'émotion la maison en pierre du père de Fathma et la petite pièce sans fenêtre conservée telle quelle où il exercait sa profession d'instituteur. On y découvre des objets d'époque : le portrait de Fathma et un coffret en métal lui ayant appartenu. L' accueil des descendants de la famille de Fathma n'soumer fut des plus chaleureux (rappelons que Fathma n'a pas de descendants et que son mariage forcé et non consommé n'a duré que trois jours). Pendant un moment les femmes ont exprimé leurs sentiments en chantant et dansant; puis une limonade fut servie.

De cet endroit le pic "Azru n thur" nous parut plus proche et plus imposant. Au pied de ce pic on pouvait apercevoir le village "TAKHLIDJT AT ATSU " , lieu où Fathma n , soumer se réfugia et fut capturée par un général Francais.

La dernière halte se fit au village "Khanssous" où le "cheikh hadj azouz at ali", agé de 87 ans nous y attendait pour nous parler de Fathma et répondre à nos questions.

Pour clôturer notre longue et riche promenade, nous avons visité un moulin à eau conservé comme élément du patrimoine culturel. La famille propriétaire a bien voulu nous faire une démonstration.

Fatiguées mais heureuses, les femmes chargées de fleurs , de pierres ramassées ça et là, sont remontées dans le bus pour le retour.

صفحات من العدد الأول لمجلة جمعية «ثيغري نتمتوث» (صرخة النساء)، نوفمبر/تشرين الثاني 1990، تيزي وزو. وثيقة خاصة ملك لسميّة صالحي. أرشيف نضالات النساء في الجزائر.

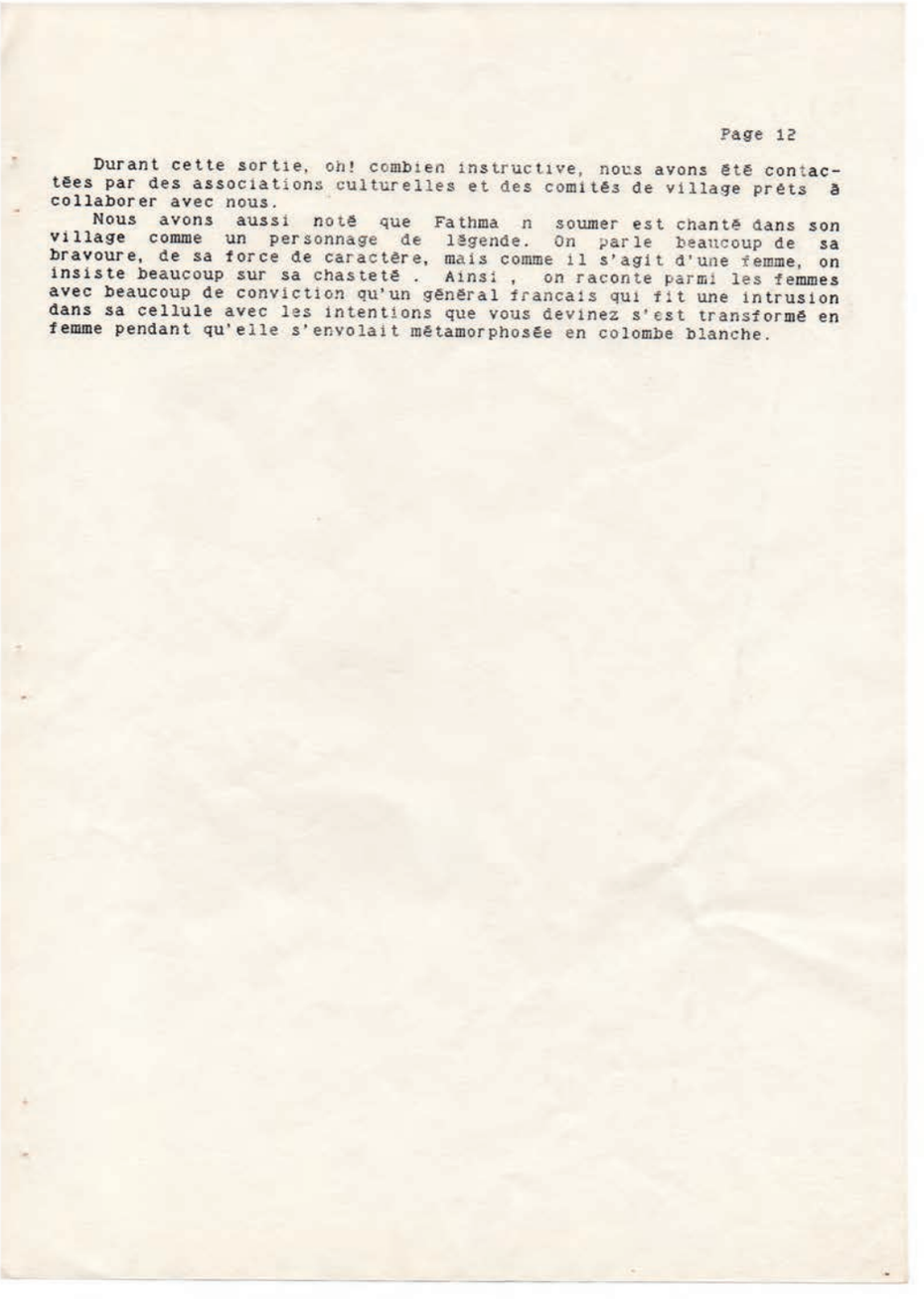

Page 12

Durant cette sortie, oh! combien instructive, nous avons été contactées par des associations culturelles et des comités de village prêts à collaborer avec nous.

Nous avons aussi noté que Fathma n soumer est chantée dans son village comme un personnage de légende. On parle beaucoup de sa bravoure, de sa force de caractère, mais comme il s'agit d'une femme, on insiste beaucoup sur sa chasteté . Ainsi , on raconte parmi les femmes avec beaucoup de conviction qu'un général francais qui fit une intrusion dans sa cellule avec les intentions que vous devinez s'est transformé en femme pendant qu'elle s'envolait métamorphosée en colombe blanche.

صفحات من العدد الأول لمجلة جمعية «ثيغري نثمتوث» (صرخة النساء)، نوفمبر/تشرين الثاني 1990، تيزي وزو. وثيقة خاصة ملك لسميّة صالحي. أرشيف نضالات النساء في الجزائر.

المقالات والكتب القليلة التي تصف مسيرتها والمعارك التي شاركت فيها إلى كتاب إيميل كاري[8] والروايات والشهادات الشفوية التي لم يأت عليها الدهر وتناقلتها إلى أن حطّت عندنا. هناك أيضا كتاب الطاهر أوصديق الذي يخبرنا عن جوانب مختلفة من حياة فاطمة، ويعرض تفاصيل تُعلي هذه المرأة إلى منزلة البطولات؛ امرأة شابة تتحدى التقاليد والمحظورات، وتختار طريق اليقين والمقاومة.

لالة فاطمة، قائدة عسكرية

تذكر معظم القصص التي تتناول سيرة فاطمة نسومر أنّها الأخت الصغرى لأربعة إخوة ذكور، بينما يقول الطاهر أوصديق في كتابه أنّها تنتمي لعائلة كبيرة متكونة من خمسة إخوة وأختين. يبدو لي أن العناصر المنقولة لنا من حياة هذه البطلة، العناصر والحقائق التي تُسلط عليها هذه القصص الضوء، تساهم في تكوين الصورة التي يودّ الرواة رسمها؛ صورة امرأة سامية وصوفية. يعتبر تحيز الطاهر أوصديق مختلفًا، فهو في كتابه يضع الشخصية في سياق السياسة، وتقاليد ذلك الوقت، ممّا يجعلنا نتخيّل بسهولة امرأة تتصارع مع جميع الحدود التي تفرضها العائلة والقرية، لترسم دربها بنفسها وتتْبع صوتها الداخلي.

تروي جميع المصادر أنّ لالة فاطمة نسومر كبرت بقرية ورجة (المسمّاة الآن أبي يوسف). ولدت سنة 1830، السنة التي شهدت الحملة العسكرية الفرنسية على الساحل العاصمي؛ الغزو الذي امتدّ شيئا فشيئا إلى المناطق الأخرى كمنطقة القبائل. كان أبوها سي أحمد محمد متعلّمًا، كبير عائلة من الأعيان من ملّاك الأراضي، وكان شيخ مدرسة قرآنية تنتسب إلى طريقة سيدي محمد بن عبد الرحمان بوقبرين. تابع إخوتها الخمسة التعليم القرآني بالمدرسة العائلية، واستُثنت فاطمة وأختيها كونهن بنات. لكنّ فاطمة دأبت على التسلّل من البيت والجلوس تحت نافذة المدرسة القرآنية لتتعلّم القرآن، واللغة العربية كتابةً وقراءةً. نشأت وإخوتها على حب الأرض ورفض الغزو الفرنسي.

«في السادسة عشرة من عمرها، كانت متوسطة القامة وكاملة، ذات جسم قوي ومشية مرنة. (...) ذات وجه بيضاوي الشكل وبشرة فاتحة (...) وشعر وافر ينسدل على ظهرها ليلامس خصرها؛ إذ كانت تفضل عدم ربطه (...) ذات عينان زرقاوان واسعتان، تشعّان بالحنان والطيبة، قادرتان على إلهام الاحترام لدى أي شخص يقترب منها. (...) كانت مغرمة بالملابس ولا تتردد في إبداء سعادتها عند ارتدائها *الجبة*، *والفوطة* الحمراء المصنوعة من الحرير، التي تميّزها عن رفيقاتها (...)»، هكذا يصفها الطاهر أوصديق في كتابه؛ امرأة ذات جمال خاطف، تتمتع بشخصية قوية ومهيبة.

أمام عروض الزواج العديدة، كانت فاطمة تردّ دائمًا برفض قاطع. ويقال أنّها منذ بداية رفضها للمصير الذي أراده لها والدها وعائلتها، أي ايجاد زوج وتكوين أسرة، أخذت تعتزل الناس وتحبس نفسها في غرفتها، رافضة الأكل والشرب، كنوع من المقاومة... «أدّى تمرّدها على سلطة العائلة إلى فقدان الحظوة لديهم واعتبارها مصدر عار. فجعلوها في مرتبة العاصية، وأجبرت على العيش محبوسة في غرفة ضيقة ومظلمة للتفكير والتأمل وتقبّل المصير الذي أُختير لها.»

خرجت فاطمة من العزلة شخصا مختلفًا، ذا مزاج يميل إلى الوحدة، وبدأت صورتها كامرأة فريدة من نوعها ترتسم بين سكان قبيلتها. لم يُجد تمردها ومقاومتها نفعًا إذًا، وزُوّجت قسرا من أحد أقاربها في عمر السادسة عشرة. غير أنّها، مرة أخرى، لم تستسلم، وحرّمت نفسها على زوجها وأغلقت على نفسها باب الغرفة لتقضي أيامها بين الصلاة وقراءة القرآن. فقدت عائلة زوجها صبرها وأعادتها إلى بيت والديها. وعلى الرغم من الانفصال، رفض زوجها تطليقها، بدافع الحقد والانتقام، كما قال البعض. كان الجميع مقتنعًا بأن فاطمة تعاني من مرض عقلي يجعلها هشّة ولا يمكن الدنو منها.

8. إميل كاري، *Récits de Kabylie. Campagne de 1857* («نصوص عن منطقة القبائل. حملة 1857»)، باريس، 1858.

بعد رجوع فاطمة إلى بيت أهلها، انخرطت أكثر في حياة الزاوية التي يرأسها والدها، وذلك حتى وفاته. بعدها، قررت مغادرة قريتها التي أصبحت خانقة لها ولا تسع طموحاتها. حطّت رحالها بقرية سومر، عند أخيها الأكبر سي طيب، الذي ظلت قريبة منه منذ نعومة أظافرها. كان سي الطيب يُدير مدرسة قرآنية هناك، وكان من أتباع الطريقة الصوفية الرحمانية.

فاطمة، التي سميّت نسومر نسبة إلى هذه القرية، أصبحت تدريجيًّا واحدة من ركائز المدرسة والطريقة بفضل أنشطتها مع الأطفال والفقراء، ومعرفتها بالقرآن وتحلّيها بالتقوى، ما منحها مكانة خاصة بين السكان، الذين بدأوا ينظرون إليها كوليّة صالحة، كما وفّرت لها المكانة التي تحتلها لدى أخيها الحماية من الضغوط الاجتماعية. وهكذا، حضت شيئًا فشيئًا بالمزيد من القبول والاحترام. كانت لم تتردّد قطُّ في مشاركة أفكارها والتصرف وفقا لمبادئها وقناعاتها، ممّا أعطاها مكانة مهمة بين نساء ورجال مجتمعها، الذين كلما عرفوها أكثر قدّروها أكثر؛ فخيارات حياتها جعلتها انسانًا ذا مصير شبه مقدس.

منذ أن استقرت في سومر مع أخيها في عام 1850، عاشت فاطمة حياة مكرسة للالتزام والتضامن والتفاني. كان الجيش الفرنسي قد شرع يطوق تدريجيا منطقة القبائل ابتداءً من عام 1845. استشعرت فاطمة وأخوها الخطر المحدق بالمنطقة، فطفقا ينضمان المقاومة. وضعت فاطمة، بالتعاون مع النساء الأخريات، نظاما لجمع الطعام والأسلحة والملابس؛ وأخذت تتنقّل إلى القرى الأخرى لتنظيم الاجتماعات وحشد القرويين لقضية المقاومة، والدعوة إلى تأسيس جيش لمواجهة الغزو الاستعماري.

ويبدو أن لقائها مع محمد لمجد بن عبد المالك، المعروف باسم بوبغلة، كان منعطفًا مهمًا في مسيرتها مقاومةً وقائدةً حرب ضد الغزو الفرنسي. كان بوبغلة، الذي ولد بسعيدة، قد خاض عدة معارك ضد القوات الفرنسية، التي كانت تبحث عنه وتلاحقه. غير أنّه وجد ملاذًا في قلعة بني عباس (البيبان)، والتحق بالمقاومة بجبال جرجرة. تجدر الإشارة إلى أنّ فرنسا احتفظت ببقايا جثث المقاومين الجزائريين، بما فيهم الشريف بوبغلة، في متحف التاريخ الطبيعي بمدينة باريس، إلى غاية تاريخ 5 جويلية/تمّوز 2020، تاريخ استرجاعها وإعادة دفنها بمربّع شهداء الثورة التحريرية بمقبرة العالية، بالجزائر العاصمة.

أثّرت العلاقة التي جمعت بين فاطمة نسومر وبوبغلة العديد من القصص. ففي الروايات والحكايات الشعبية التي تسرد مآثرها البطولية، يحكى أنها رفضت عرضه للزواج، قائلةً إنها ترغب في البقاء حرة ودون الارتباط بأي رجل.

خلّد الرسام المستشرق هنري فيليكس إيمانويل فيليبوتو (Emmanuel Felix Henri Philippoteaux) هاتين الشخصيتين البارزتين للمقاومة في لوحةٍ رسمها بعد وفاة فاطمة نسومر. يعود تاريخ اللوحة إلى عام 1866، وهي موجودة الآن في قصر المرادية بالجزائر العاصمة. نرى فيها فاطمة على حصان وهي تحمل بندقية، إلى جانب الشريف بوبغلة وعدد من رفاقهما في المقاومة. صورها الرسام نفسه أيضًا في لوحته الشهيرة الأخرى، حيث نراها واقفة في المقدّمة، في وضعية محاربة تتحدّى الجيش الاستعماري، وموجهة بندقية نحو أعدائها.

ومع ذلك، اتفقت جميع الروايات على عدم مشاركة فاطمة نسومر بشكل مباشر في المعارك المسلحة، بل وصفتها بالمخطّطة البارعة، التي أجادت إعداد المعارك، وحشد الجيوش، وتنظيم صناعة الأسلحة ونقلها. بفضل عزمها وعزيمتها، قُبلت في مجالس الرجال، وروّج القرويون كلمتها وتوصياتها وخُطبها. وفُسّرت أحلامها على أنها رسائل من الله، ممّا جعل جماعتها يطلقون عليها لقب «النبيئة». أما من الجانب الفرنسي، فلقد لقّبوها بـ«جان دارك جرجرة». «إن قداسة النبيئة معروفة للقاصي والداني (...)

إنها تعرف (...) كيف تتّقي جميع المخاطر، ويمكنها، إن شاءت، دحر الغزو الفرنسي!»، هذا ما كتبه المستكشف والسياسي إيميل كاري (Carrey Émile) في عام 1857. ويضيف أنّها «وحدها النبيئة، المتفرّدة بين أبناء مجتمعها، من بلغت عنايتها بمظهرها حد الأناقة. وبالرغم بدانتها المفرطة، إلا أن ملامحها جميلة ومعبِّرة. والكحل الذي يرسم حاجبيها ورموشها يزيد عينيها السوداوين الكبيرتين كبرا. (...) تتزيّن بالأساور والدبابيس والمجوهرات أكثر من الأوثان القديمة.» ويصفها على أنّها كانت ملفوفة بأوشحة ملونة، ومتبرّجة بالجواهر، ومخضّبة بالحناء «بينما كانت تقود المسبّلين، الماضين طوعًا إلى الموت، في المعركة».

استمرت معركة سباو العلوي في عام 1854 لمدّة شهرين، وأصبحت ذكرى خالدة أدخلت فاطمة نسومر سجلّ الأساطير، وألحقت بالمارشال راندون، الذي كان يقود الجيش الفرنسي المسؤول عن غزو منطقة القبائل، هزيمته نكراء. «كيف لجيش تقوده امرأة، سلاحه من سكاكين وخناجر، أن يدحر جيشًا فرنسيًّا كبيراً، مدجّجًا بالأسلحة؟»[9] لكنّ الجيش سيعود سريعًا، محمّلًا بالعدة والعتاد والجنود، لينال من لالة فاطمة وجيشها، ومن المقاومة.

لم تنقص وفاة الشريف بوبغلة عام 1854 في أي حال من الأحوال من يقين فاطمة نسومر وعزمها؛ واصلت تنظيم المعارك وحشد القبائل لقطع الطريق أمام تقدّم الجيش الفرنسي. وفي 27 جويلية/تمّوز 1857، في خضمّ معركة إشريدن، أُعتقلت فاطمة ووُضعت تحت الإقامة الجبرية بزاوية في بلدية العيساوية، قرب تابلاط بولاية المدية، في ظروف سيّئة. ضمّن الطاهر أوصديق في كتابه ترجمة الأشعار التي كتبتها نساء قرية سومر عن اعتقال لالة فاطمة:

ها قد أتى الفرنسي
يتقدم متتبعا مجرى الماء
وعندما وصل إلى سومر
قطع أشجار الرّمان
كانت نساء سيدي أحمد بدون حجاب
عندما دخل النقيب المنزل
ها قد أتى الفرنسي
يتقدم متتبعا الأرض المنبسطة
عندما وصل إلى سومر
قطع أشجار التين
وأخذ لالة فاطمة
كيف يمكننا اليوم نسيان ما حدث؟
ها قد أتى الفرنسي
يتقدم متتبعا الينابيع
عندما وصل إلى سومر
قطع أشجار الصفصاف
وأخذ لالة فاطمة
كيف بإمكاننا ابتلاع الأكل.

9. إيميل كاري، المرجع نفسه.

توفيت لالة فاطمة نسومر في أسرها عام 1863، عن عمر الثالثة والثلاثين سنةً، ودُفنت بمقبرة سيدي عبد الله، بالقرب من مكان احتجازها، في قرية العيساوية، والتي بقيت طويلا مكانا للزيارة. وحُوّلت زاوية الرحمانية بتورثاثين، بلدية العيساوية، إلى متحف مخصص للالة فاطمة، حيث يمكن للزائر مشاهدة، من بين أمور أخرى، تجسيدا يحاكي مشهد اعتقالها. وفي عام 1995، نقلت السلطات الجزائرية رفاتها إلى مربّع الشهداء بمقبرة العالية (الجزائر العاصمة)، معترفة بذلك بمقام المقاوِمة للالة فاطمة نسومر.

لا شكّ في ضرورة تجديد الخطاب عن النساء الجزائريات الرائدات والمجاهدات، والشخصيات البارزة الأخرى من تاريخنا النسوي، لكن لا بدّ أن نتذكر أنهن عشن عصرهنّ، متخطّيات الحدود التي رُسمت للنساء وقتها، والتي كانت تقلل من شأنهن وتحصرهنّ في إطار منزل مغلق ومسيَّر. ينبغي تجديد الخطاب حتى نتجاوز العبارات الجاهزة والاحتفالات البطولية، ونرتقي بمستوى سرد قصص حياتهن لنسلط الضوء على مدى تعقيد مسار هؤلاء النساء ومدى قوة خياراتهن. من خلال انخراطهن في صفوف المقاومة، تحدَينَ النظام الأبوي بقدر ما تحدين الهيمنة الاستعمارية؛ وإعادتهن النظر في الأغلال العائلية والقبلية كانت أول خطوة لجلّهن نحو التحرر، نحو تحررنا.

لا، لم تعدن إلى المواقد كما تدّعي تلك العبارة المكرسة، التي تهدف إلى مواصلة التقليل من شأن أسلافنا من النساء وتغييبهنّ، بل بقين دائماتٍ عبر الأجيال لزرع بذرة التحرر.

أغرقتني كتابة هذا النص في سنوات الثمانينيّات والتسعينيّات من القرن الماضي، ورافقني عاطفة قوية طوال فترة استحضاري لسيرة لالة فاطمة. علاوة على رمزية هؤلاء النساء اللاتي نحتن نسويتي، وقوتهنّ وأهميتهن، أشعر بالانتساب لهن. ما زلت أسترجع وجوه المجاهدات السابقات اللواتي قابلتهن في سنوات التسعينيات، خلال مظاهرات الحركة النسائية واجتماعاتها؛ وينتابني الندم عن تقصيري في إخبارهن بأننا نحبهن لكل ما هنّ عليه وكل ما ورّثننا إياه. علينا فقط أن نستمر في الحديث عنهن لإحياء ذكراهن، وقوتهن وهشاشتهن وحساسيتهن ومسيرتهن.

واحدة

أخرى*

حوارات

مليكة رحال
آمال زان

* سيرة ذاتية لمايسة باي، صدرت عام 2010

«بمقدور أي شيء أن يصنع التاريخ»

حاورتها: مايا وعبادي

مليكة رحال مؤرخة، مكلفة بالأبحاث بمعهد التاريخ المعاصر في المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا. أتابع منذ بضع سنوات أعمالها ومداخلاتها العديدة في الجزائر. أردت من خلال هذا الحوار أن تحدثنا عن مسارها وأسلوبها المُجَدد والفريد، بل والمتمرد، في كتابة التاريخ. تناولنا الأبعاد الاجتماعية والسوسيولوجية التي تضفيها على عملها، ومعوبة بناء تأريخ لما يحدث حالياً في الجزائر، كما شاركتنا رغبتها في مشاركة معارفها ونقلها.

تصوير: ليديا سعيدي

بدايةً، أود أن تحدثينا عن مسارك. كبرتِ ودرستِ في مدينتي تولوز وبوردو بفرنسا. هل تتذكرين مثلا درسك الأول في تاريخ الجزائر؟

أظن أن أول درس حضرته كان حول «الحرب الجزائرية» في المتوسط، وكان عمري آنذاك أربع عشرة سنة، لكنني لا أذكر مضمونه. علمت لاحقًا أن بعض الأساتذة كانوا يرفضون تدريس هذه الحقبة التاريخية بالرغم من إجباريتها. في سن السابعة عشرة، أي في نهاية الطور الثانوي، عادت الحرب إلى البرنامج؛ وأتذكر أنني لم أصدق كل ما كان يقال، أو بالأحرى لطالما تخيلت وجود رواية أخرى وتفاصيل مهمة لم تكن تُذكَر. في الفترة نفسها، أصدر بنيامين ستورا فيلمًا وثائقيًّا في أربعة أجزاء بعنوان «السنوات الجزائرية»، بُثَّ في التلفزيون في ساعة متأخرة من الليل. فقمت بتسجيله للعودة إليه كدرس بديل أو تكميلي، إذ إنّه كان غنيًّا بالتفاصيل.

وماذا عن عائلتك؟ هل كنتم تتحدثون عن الحرب التحريرية؟

ربما كنا نتحدث في الموضوع ككل العائلات المغتربة، بالرغم من كوننا حالة استثنائية بعض الشيء؛ إذ ولدت لأب جزائري وأم أمريكية، وكنا نتحدث باللغة الإنجليزية. على عكس الأسر المغتربة، التي نادرًا ما كانت تنتمي للطبقة الوسطى، كانت أمي معلمة للغة الإنجليزية وأبي باحثًا في الفيزياء. إذن، كان الموضوع محل تخمين في غالب الأحيان. في الواقع، يمكنني القول إنني عرفت بوجود الحرب دون أن يخبرني أحد، وأنا في السابعة من عمري، عندما تشاجرت مع صديقتي المقربة، إذ قلت لها «نحن الجزائريون من ربحنا الحرب»، فأجابتني: «لا، بل الفرنسيون». وعندما احتكمنا إلى معلمتنا، كنت أتوقع أن تنفي وجود حرب أصلًا، لكنها أجابتنا أن الجزائريين هم فعلا من انتصروا. كانت امرأة مطلقة تعيش مع جزائري، وأدرك اليوم أنها أحاطتني بطيبة كبيرة في مجتمع لم يكن متسامحًا مع أبناء الزيجات المختلطة. على كل حال، كانت تلك أول مرة تيقنت فيها من وجود الحرب التحريرية. ولكني أتذكر كذلك بعض الشذرات، لا أعرف متى بالضبط علمت بأن أحد أعمامي مات شهيدًا، ومرة، عندما علم أبي أني لا أركز جيدا في المدرسة، حدثني عن اضراب الطلبة الذي شارك فيه وألح علي في التركيز في القسم. هو من مواليد 1943، وسليل عائلة من غرب الجزائر استقرت في المغرب. الطفلة التي كُنتها لم تستوعب جيدًا معنى هذا الاضراب. أتذكر كذلك عندما حدثني متأثرًا عن مظاهرة 17 أكتوبر/تشرين الاول 1961، قائلا: «لقد كنا ننتشل جثث الجزائريين من نهر السان حتى مدينة رُوان». ولم أفهم مرة أخرى، إذ قلت لنفسي أن نهر السان يقع في فرنسا، بينما الحرب كانت تدور في الجزائر.

كثيرا ما تتحدثين عن ميولك لعلم الاجتماع وللتاريخ الاجتماعي، لكنك فور نيلك شهادة البكالوريا، سجلت مباشرة في قسم التاريخ...

أمضيت أولًا سنتين في قسم تحضيري في العلوم الاجتماعية، درست خلالهما علم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا. ثمّ كان علينا اختيار حقل الاختصاص المستقبلي، فقررت التسجيل في المادة التي كنت أرتادها بمتعة وهي التاريخ. في الوقت نفسه، كان التاريخ يبدو لنا مادةً رجعية مقارنة بعلم الاجتماع، الذي كان يتميز بالنقدية، وكنت أنزعج كثيرا من طابع «التاريخ القديم» السائد آنذاك. ولربما حدست في تلك الفترة بإمكانية كتابة التاريخ مع إضفاء بعد اجتماعي أكثر بروزًا، بالرغم من افتقار الدراسات الاجتماعية التي كنا نقوم بها آنذاك إلى بعد زمني، فغالبًا ما كنت أشعر بالملل وأنا أستجوب سكانا من مدينة بوردو حول ممارساتهم السينمائية! لقد كان ينقصني عمق زمني وتحليل للذاكرة وتواصل مع باقي العالم...

بعد سنتين إذن قررت التخصص في علم التاريخ؟

بالفعل. وأدركت تدريجيا وجود أشكال مختلفة للتاريخ؛ فبالموازاة مع وجود تعليم مترهل وأناس يمارسون تاريخا سياسيا لم يكن يهمني، كان هناك مختصون في العصور الوسطى الأوروبية أو العصور القديمة، يمزجون بين التاريخ والأنثروبولوجيا على نحوٍ مشوق للغاية.

سأتذكر دائما ذلك الأستاذ في التاريخ الإغريقي الذي كان يصف لنا الأبجدية الساكنة (لتفسير الخطية أ و ب)، فخطّ على السبورة كلمة «كتب» بالعربية، والتي يمكن قراءتها بطرق مختلفة وفقًا لعلامات التشكيل. كان ذلك مذهلًا في كنف مجتمع فرنسي متحفظ إزاء اللغة العربية، يكتشف فجأة شرعيتها العلمية في تعليم التاريخ. كان المختصون في العصور الوسطى والقديمة مجبرين على تقديم الفرضيات بحكم نقص المراجع، وذلك باللجوء إلى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللغويات. كنت أراهم أكثر ذكاءً من المختصين في التاريخ المعاصر، الذين كانوا يمضون وقتهم في شرح مراجعهم العديدة.

عندما أردت العمل على تاريخ سوريا ولبنان في شهادة الماستر، اقترح علي الأستاذ الوحيد المتمكّن نسبيًا من العالم العربي أن أتناول انتفاضة جبل الدروز بسوريا، التي تحدثت عنها الصحافة المحلية (بوردو) آنذاك. فاكتشفت أن السياق السوري ذريعة لفهم المجتمع الفرنسي أو تاريخ الصحافة الأوروبية، وهو ما يوضحه إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق». كنت راغبة في دراسة سوريا لتعلم اللغة العربية، والغوص في تاريخ العالم العربي، وليس لتحليل تقلبات الحياة المحلية في بوردو. الأستاذ الذي نصحني اسمه ڤي بيرفيلي (Guy Pervillé)، وهو مختص في تاريخ الجزائر، وقد صار اليوم من المدافعين عن نظرة رجعية للتاريخ. في الأخير، نصحني بتناول موضوع أكثر أهمية حول الجزائر، وقبلت بذلك.

لقد كان هذا الأستاذ هو من دفعك إذن للعمل على الجزائر، لكن ألم تراودك الرغبة من قبل؟

لا. لأنني كنت أتخوف من العمل على الجزائر وكان من الأسهل عليّ آنذاك التوجه نحو موضوعَي سوريا ولبنان. في تلك الفترة، أي عام 1995، لم يتبقَ لي أقرباء كثر بالجزائر ولم أتعلم اللغة العربية في المنزل (وكانت إمكانية تعلمها في المدرسة الفرنسية نادرةً جدًّا). في سوريا أو لبنان، كان بإمكاني تعلمها دون عُقَد، على العكس من الجزائر حيث بدَت لي الأمور أكثر صعوبة من الناحية العاطفية، بما أنه تعَسر عليّ تحديد مكانتي فيها.

اقترح علي الأستاذ بيرفيلي فيما يخص الجزائر العمل على موضوع «نواب المجموعة الانتخابية الثانية بالمجلس الفرنسي بين 1945 و1962». واعترف لي لاحقا أن هدفه كان إثبات بقاء حزب نافذ موالٍ لفرنسا إلى غاية 1962. لم يكن ذلك يهمني، لكن هذا الموضوع كان سيسمح لي بالبحث عن مصادر والقيام ببحث سوسيولوجي، ودراسة مسارات أفراد وعائلات... بعدها، انضممت إلى مسابقة التعليم وشهادة التبريز، ثم علّمت التاريخ في الضاحية الباريسية، وسجلت في الدروس المسائية لمعهد اللغات الشرقية (إينالكو) لتعلم العربية. وبعد مرور ثلاثة سنوات، حان الوقت للتسجيل في رسالة دكتوراه، فاتصلت ببنيامين ستورا.

من أين أتتك فكرة العمل على سيرة علي بومنجل؟

في البدء، اقترحت على بنيامين ستورا مواضيع مشوقة لكنها مستحيلة التجسيد، كنت راغبة في دراسة الاستعمار بوصفه واقعًا مُعاشًا، كيف يُكّيف المكان مثلا... لكن ذلك استوجب اختيار بلدة معينة وإعداد دراسة إفرادية. أعرف الآن أن هذه المقاربة تسمى «التاريخ المصغر»، لكنني آنذاك اعتقدت أن اختيار مكان محدد يتنافى مع التعميم ودراسة ماهية الاستعمار. كانت في جعبتي اقتراحات أخرى، مثلا، دراسة المرجعيات التاريخية المتقاطعة بين الروايات الفلسطينية والجزائرية، وهو اختيار صعب في إطار أطروحة في علم التاريخ. اقترحت كذلك موضوعًا حول الازدواجية اللغوية، لكن ستورا قال لي ببساطة أنّ «مزدوجي اللغة كانوا كثيرين في حزب فرحات عباس (اتحاد البيان الجزائري الديموقراطي). يمكنك تقديم أطروحة حول هذا الأخير». لم يحفزني الأمر كثيرًا في البداية، لكنني كنت مضطرة للشروع في العمل، كما شكل ملءُ الفراغ التاريخي في هذا الصدد محفزًا كافيا بالنسبة لي. اقترح عليّ ستورا، الذي كان قريبًا من عائلة بومنجل، تكريس شهادة ما قبل الدكتوراه لسيرة علي بومنجل، بصفته مناضلًا في حزب البيان. كانت خياراتي إذن مزيجا من الاهتمام والفرص السانحة. ويبدو لي اليوم، وأنا أتذكر الموضوع، أنني لم أكن على دراية شاملة بآليات اختيار المواضيع التاريخية، وأنني لم أكن فاعلة رئيسية في مساري بل مثل قشة تنساب مع البحر.

لكن رغباتك الأولى سوف تظهر لاحقا في عملك: فكرة الاستعمار بوصفه واقعًا معاشًا، دراسة المسارات الفردية...

بالفعل، لا مكان للصدفة. حيث يتبين لي اليوم أن كل شيء مرتبط، وقد ساعفني الحظ لبناء هذا الانسجام. من المهم اليوم بالنسبة لي إعادة التفكير في مساري لمساعدة طلابي في بناء مسارهم، فمن المحتمل أنّ بعضهم لا يستفيد من التوجيه والنصيحة الكافيين، الذين حظيت بهما في سنهم. عليهم دائما أن يجدوا طريقة للتوفيق بين خياراتهم الشخصية والنظام الجامعي. أشعر بمسؤولية مرافقتهم في اختيار مواضيع قابلة للتحقيق، تسمح لهم بالنجاح دراسيا دون تقييد تطلعاتهم، وهي مسألة تفرض نفسها خصوصا في المجتمع الفرنسي، حيث غالبًا ما يتعطل نجاح التلاميذ والطلاب المنحدرين من الطبقات الشعبية، وهو ما ينبغي على الأساتذة التفكير فيه جديًّا. وبما أن الكثير من هؤلاء الطلاب ينحدرون من فئة المهجر، فالمسألة تهمني أضعافًا.

«كتابة التاريخ لا تستلزم حيازة موضوع فقط، بل إيجاد نوع محدد من المصادر لروايته.»

كيف وصلتِ لمعهد التاريخ المعاصر؟

أثناء دراستي، لم أكن على دراية بوجود هذا الصنف من التاريخ ولا بهذا المعهد، ولم نكن نتحدث عن النقاشات الدائرة في فرنسا آنذاك. كنت مثلًا أحضّر شهادة ما قبل الدكتوراه في بوردو بينما، على بعد 100 متر من إقامتي، جرت محاكمة موريس بابون بشأن نشاطه إبان الحرب العالمية الثانية، وليس ما اقترفه خلال الحرب الجزائرية. لكن الطرف المدني ما لبث أن أقحم مجازر 17 أكتوبر/تشرين الأول 1961 في الجزء الأول من المحاكمة المخصص للتعريف بالمتهم، كما قام المؤرخ جون-لوك إينودي (Jean-Luc Einaudi) بمداخلة مطولة عشية الذكرى السادسة والثلاثين لهذه المجازر. لذلك افتتحت النشرة التلفزيونية في 17 أكتوبر/تشرين الأول 1997 بالتذكير بما حدث يومها، وبأن جزائريين قد تم إغراقهم في نهر السين. إلّا أن كل هذا كان غائبا في دروسنا، بالرغم من وجود ارتباط وثيق بين مجال اختصاصنا وما كان يحدث في تلك المحاكمة، حيث أُستدعي مؤرخون للشهادة، بعضهم رفض وبعضهم قدم خبرته كجون-لوك إينودي، بينما اعتبر زميلي الحالي بالمعهد، هنري روسو (Henry Rousso) وهو مختص في الحرب العالمية الثانية،

أن الموضوع خارج عن نطاق عمله، وأن هناك خلط بين دور الشاهد والخبير. بيد أن هذا الجدال القائم آنذاك لم يتخطَّ عتبة جامعة المدينة التي احتضنت المحاكمة!
دون معرفة بوجود اختصاص يسمى التاريخ المعاصر، كنت أرغب في إجراء حوارات ومقابلات. وسنحت لي الفرصة للقاء المؤرخة سيلفي ثينو (Sylvie Thénault) التي كانت تعمل في المعهد آنذاك، وتمكنت من توقيع عقد لمدة سنتين، واستطعت في الوقت نفسه إنهاء أطروحتي واكتشاف هذا الاختصاص بمنهجياته ونظرياته.

كثيرا ما تتحدثين عن أهمية الأمكنة وما قد تضيف لأبحاثك، من خلال زيارة المواقع التي دارت فيها الأحداث التاريخية...

بالفعل، فاكتشاف المكان المادي قد يغير كل شيء في دراسة تاريخية، حيث يصعب أو يستحيل عليّ فهم الأحداث إذا لم أفهم بعدها المادي؛ أين دارت؟ كيف كان يتواصل الفاعلون فيما بينهم (مثلا، في السرية)؟ كيف كان شكل الأحياء والسكنات التي يذكرها الشاهدون؟ دون هذه التفاصيل، يبقى التاريخ مجردًا.
ذهبت منذ شهر لأول مرة إلى منطقة الأوراس، وبالتحديد إلى مشونش حيث دارت الأحداث التي أرويها في كتاب «1962»، مما سمح لي ببناء صورة دقيقة وسياق جغرافي وطبيعي ملموس (وبالتالي إطار اجتماعي واقتصادي وثقافي)، وهذا ما أضفى على هذه الأحداث واقعية كثيفة.

في إطار اشتغالك على حزب البيان الجزائري وعلي بومنجل، كان عليك السفر إلى الجزائر. كيف عشت هذه الرحلة الأولى بصفتك باحثة؟

في 2002 و2003 عدت إلى الجزائر لأول مرة بعد خمس عشرة سنة، وبين السفرين جرت الكثير من الأحداث؛ عشرية التسعينيّات، ووفاة والدي وجداي... كانت عودة ثقيلة نوعًا ما، وكان العمل ذريعةً ومحفزًا لتجاوز شكوكي. التقيت بأقرباء بومنجل، وسمحت لي إقامتي بلقاء مؤرخين كدحو جربال وفؤاد سوفي ووردة تنغور. ذهبت لاحقا، في إطار رسالة الدكتوراه، إلى وهران لبحث شاقٍ عن أعضاء الحزب السابقين، فالتقيت في طريقي بأشخاص آخرين. واجهتني آنذاك الصعوبات نفسها التي تواجه أي باحث يقوم بدراسات ميدانية.

في الوقت نفسه، قمت باكتشاف البلد...

نعم، عدت إلى الجزائر، ثم وهران، التي بدت لي أكثر هدوءًا من العاصمة، وأريحَ لامرأة بمفردها التجول في شوارعها. كان الشارع من أكبر الصعوبات التي واجهتني، حيث بدت لي المواصلات معقدة للغاية (تتذكرين أن الحافلات لم تكن تعلن عن وجهتها، وأنّ سيارات الأجرة كانت لها مسارات محددة)؛ اضطررت لحفظ خريطة العاصمة. لم يكن استعمال الهاتف النقال معممًا وقتها، بل كنا نلجأ للتاكسيفون! أما الفضاءات المتاحة للنساء فكانت نادرة للغاية، على عكس يومنا هذا؛ وللأكل في مطعم، كان علينا اجتياز قاعة مليئة بالرجال للوصول إلى فضاء «عائلي»... كنت أمشي طوال الوقت لغياب مكان أستطيع الجلوس فيه وحيدة... فتزامن عملي باحثةً مع هذا التأقلم مع الفضاء العمومي، وما ينجر عنه من صعوبات بالنسبة لامرأة تجول المدينة لوحدها.

بأية طريقة كنت تتملين مع الأشخاص الذين أردت محاورتهم؟

في كل مكان، كان عليّ إيجاد أشخاص يوصلونني إلى الشهود. وكمنت الصعوبة فيما يخص حزب البيان في أن معظم مناضليه المعروفين مسنون للغاية أو متوفون، أما الأقل تقدّمًا في السن فلم يكونوا فخورين بتاريخهم «البياني». أجريت بالكاد عشرة حوارات مع قدامى الحزب، وترجمت هذه الصعوبات آثار الذاكرة المتعلقة بالطريقة التي روى (أو كتم) بها الفاعلون نضالاتهم الماضية. إن امتنع قدامى حزب البيان عن الخوض كثيرًا في شبابهم النضالي، فلأن هذا الماضي لم يكن مُثمنا في جزائر ما بعد الاستقلال. بالرغم من ذلك، نجحت في حصد بعض الشهادات. وأتذكر لقائي بتلمسان مع زوجة أحد منضالي حزب الشعب الجزائري، التي دردشت وإياها في انتظار زوجها. روت لي أنها كانت أول امرأة جزائرية في المدينة تحصل على شهادة البكالوريا، في قسم مختلط داخل ثانوية للذكور، مما أثار حفيظة الأهالي آنذاك، وكانت تعاني كل يوم في طريقها إلى المدرسة من الشتم والضرب بالحجارة، ووصل بها الأمر إلى رفض الصورة الجماعية للقسم لتجنب اضطهاد أكبر. وبعد سنوات من المقاومة، لم تستطع متابعة دراستها في الطب. سمعت هذه الحكاية بينما كنت مقيمة في فندق بتلمسان حيث كان حضوري غير لائق وشبه مرفوض، وبعد ليلة أمضيتها هناك، أُستُقبلت بكرم من طرف عائلة طالب-بن دياب؛ وساعدت إقامتي في كنف هذه الأسرة على تسهيل وجودي في المدينة. بالرغم من عدم إمكانية إدراج حكاية هذه السيدة في كتابي حول حزب البيان، إلا أنها محفوظة مع حكايات أخرى في «مكتبة ذهنية» تؤثر على تفكيري، إذ إنها كانت بمثابة صدى لما كنت أعيشه آنذاك.

بالفعل فقد كان بإمكان هذه الحكاية أن تجد مكانها في مدوّنة Textures du temps («نسيج الزمن») الذي أطلقتها في 2012، حيث نجد كثيرًا من السرديات المشابهة. هل حفزتك قصة السيدة التلمسانية لخلق هذا الفضاء الافتراضي؟

بالتأكيد. حصلت في 2010 على وظيفة باحثة في مشروع عن تاريخ الجزائر المستقلة، وهو موضوع لم يتناوله الكثير من المؤرخين (وحده المؤرخ عبد الرحيم طالب-بن دياب كتب عن حقبة السبعينيات، لكن ذلك لم يكن كافيًا على صعيد بلد بأكمله). فتوجب الاستطلاع والبحث عن الأرشيف والمواضيع للدخول في

تصوير: ليديا سعيدي

هذه الفترة بمخيال متجدد. كتابة التاريخ لا تستلزم حيازة موضوع فقط، بل إيجاد نوع محدد من المصادر لروايته. وعلى العكس من ذلك، يمكننا إيجاد أرشيف لا يفيدنا في شيء. كان هدفي من خلال هذه المدونة الحفاظ على بصمات لهذه الاستطلاعات، علها تفيد باحثين وطلاب آخرين في دراساتهم المستقبلية، كما سمحت لي بالوصول إلى جمهور مختلف. فعلى غرار مواقع التواصل الاجتماعي أو الجرائد، تتيح المدونة الكشف عن أبحاث لأشخاص ترتبط بهم بصفة مباشرة، مما يقودنا للقاء شهود جدد!

يتسم أسلوبك في المدونة بالأدبية والضمير الشخصي، حيث تتحدثين عن حالتك وأنت تتأهبين للقاء شاهد أو للذهاب إلى مكان معين أو المعوبات التي تواجهك لإنهاء أطروحتك... وترافقين نصومك بصور تلتقطينها بنفسك. هل يعدّ كل هذا عناصر إضافية تندمج في إطار عملك باحثةً؟

خلال تأليف كتابي عن علي بومنجل، كنت قد اشتغلت على فكرة أن سرد الجانب الاستقصائي يُثري القصّة التي نرويها. سمحت لي المدونة بالتعمق أكثر في هذا الاتجاه، وذلك بالتذكير بالسياق الذي أعمل فيه، والصعوبات التي تواجهني، والفرضيات التي أطرحها. كما سمح ذلك بالتعريف بعملنا لأشخاص يجهلونه، ولا يدرون بأننا لسنا معصومين من الخطأ، وأننا غالبا ما نواجه صعوبات مادية تدفعنا للترقيع، وأننا نتأثر أحيانا بمواضيع عملنا، وهو أمر لا يظهر في الكتب التي نصدرها. هي طريقة لمساعدة القراء على الدخول في عوالمنا عبر تفكيك العمل أمام أنظارهم. أما فيما يخص الصورة الفوتوغرافية، فهي شغف آخر، فأنا أمارس التصوير التقليدي (باستخدام الفيلم) وكثيرا ما أغير صورًا مرافقة للمقالات الصادرة في المدونة دون أن ينتبه أحد لذلك. وتسمح لي الصورة بإثراء البحث ببصمات الماضي، حيث تصير الآثار المادية مكملة للسرد الأدبي.

في 2010، أصدرت سيرة علي بومنجل لدى دار نشر Belles Lettres («لي بيل ليتر») بفرنسا، و«برزخ» بالجزائر، وهما دارا نشر عامتين، وليستا متخصصتين في الأبحاث التاريخية. فتوجه كتابك إذن إلى جمهور عريض. هل كان ذلك هدفك الرئيسي؟

نعم، لقد كنت محظوظةً بالعمل مع داري نشر عامتين، وجادتين في الوقت نفسه. عندما نشتغل على أبحاث تاريخية قائمة على الحوارات والأرشيف ونتعامل مع زملاء جزائريين، من المهم أن تكون أبحاثنا متاحة للأشخاص المعنيين في قالب ميسور. إنها مسألة أخلاقية وسياسية. لم ينجح الكتاب كثيرًا بعد صدوره بفرنسا، حيث بالكاد قدمت محاضرَتَين ولم تتحدث عنه الصحافة. وكان ذلك شكلًا من أشكال العرقلة، بحكم حساسية الموضوع. ففي الفترة نفسها اعترف اللواء أوساراس بضلوعه في اغتيال بومنجل، ولم يمكن من الممكن متابعته قضائيا بجريمة القتل بسبب قوانين العفو، ولكن فقط بمخالفة تمجيد جريمة حرب. خلال المحاكمة، أكد ناشروه (دار بيران) على استعدادهم لإصدار أي كتاب يرد على مذكرات أوساراس، فاقترحت عليهم مخطوط سيرة بومنجل لكنهم رفضوه. فقمت بنشره عند دار «لي بيل ليتر».

هل صدرت الطبعة الجزائرية سريعا بعدها؟

نعم، بعد بضعة شهور. وكان الأمر مختلفًا للغاية، حيث سمح السياق بتغطية إعلامية واسعة، وبلقاءات مؤثرة مع أشخاص عرفوا علي بومنجل. خلال لقاء نشطته بحي باب الواد، قام بيار شولي بمداخلة، اكتشفَت بفضلها ابنة بومنجل، وكانت طالبة سابقة عند شولي، أن الرجلين كانا يتعارفان جيدًا. هذه اللقاءات، وهذا الحوار بين المؤرخين والشهود العيان، يضفون معنًى جديدًا على عملي.

«يمكنني البحث عن هوامش حرية، على غرار باقي النساء.»

كثيرًا ما تذكرين مسألة الشرعية والتموقع بصفتك مؤرخةً تشتغل على الجزائر من منابر ومراكز بحث أوروبية. هل لا يزال ذلك هاجسك إلى اليوم؟

يتعلق الأمر بمسألة سياسية محضة، حيث اعتُبرت كتابة التاريخ خلال بناء الدول الوطنية أداةً لتقوية الحس الوطني. أما في الحقبة الاستعمارية، فكان التحكم بكتابة التاريخ، مع طمس المجتمعات المُحتَلة، أداةً للهيمنة. اليوم، ونحن نعيش في دول أوروبية قوية منذ قرون، يمكننا التظاهر بتفنيد فكرة كتابة التاريخ من منظور أو لصالح دولة ما. لكننا نتوجه بعدها لبلدان حديثة الاستقلال للومها على كتابة تاريخها الوطني (وهو الأمر نفسه فيما يخص التبادل الحر؛ بعدما ارتكزت الثورة الصناعية على مبدأ الحمائية الاقتصادية، يحول نظام التبادل الحر اليوم دون أي تطور اقتصادي مستقل لبلدان الجنوب). لكن هذا لا يعني مطلقًا أن على الدولة الانفراد بكتابة التاريخ، بل أن هذه الأخيرة يجب أن تتم في الجزائر دون الأخذ بعين الاعتبار معايير قد تكون منافية لمصالحها. في هذا السياق، يصعب حل مسألة «من أين نكتب التاريخ» وموازين القوى التي تفرضها. ولذلك من المهم فيما يخصني أن أوضّح أني جزائرية من المهجر، تعمل بفرنسا، ولا تطمح للتكلم نيابة عن زملائها العاملين بالجزائر.

تتساءلين كذلك عن اللغة الواجب استعمالها. تابعت دروسا في العربية بمعهد الإينالكو وتحاولين أحيانا استعمالها في عملك. لأي سبب تولين كل هذه الأهمية للغة؟

نعم. مسألة اللغة تحيلنا لمسألة النشر، فللوصول إلى جمهور اليوم، يحبذ أن تُكتَب الدراسة بالعربية. ليس بمقدوري حاليا الكتابة بهذه اللغة لكني أتحسن تدريجيًا. وإن استطعت لتشبعت كذلك باللغة الأمازيغية... ولا يتوقف الأمر عند منظور المقروئية فحسب، بل هي مسألة ترتبط بالواقع أيضًا؛ إذ من غير المنطقي تنظيم نشاطات باللغة الفرنسية فقط، بينما واقع البلاد يتنافى مع ذلك. ويسمح لي تعلم اللغة العربية بالتعريف بالصعوبات الماضية والحالية في هذا المجال بفرنسا، حيث أنها نادرة جدًا على مستوى المدارس والثانويات، وحتى الجامعات.

تقولين إن هدف التاريخ المصغر هو خلق التوازن مع التاريخ الأكبر في البلدان الأوروبية، بينما تعتبرين أن وحده الأول موجود في الجزائر. هل يعني ذلك أن للتاريخ المصغر دور أكثر أهمية عندنا؟

التاريخ المصغر هو تاريخ موضوع محدد ومحدود؛ سيرة فردية، قصة مكان، حكاية مجموعة معينة.... وقد سمح هذا المنهج في أوروبا بكتابة تاريخ معاكس للتاريخ الرسمي الذي يُسرد انطلاقا من وجهة نظر الدولة وأرشيفها. فيما يخص تاريخ جزائر ما بعد الاستقلال، لا يوجد هناك تاريخ مهيمن بسبب غياب تأريخ علمي وقلة المؤلفات التاريخية. باستطاعتنا ممارسة التاريخ المصغر (حتى ولو لم نتمكن من الوصول إلى الأرشيف)، لكن في الجزائر لن تسمح هذه الممارسة بمعارضة أو تنقيح السرد الرسمي المهيمن، بل ستشكل في السنوات المقبلة تأريخًا علميًّا في انتظار زيادة عدد المؤرخين وتسهيل وصولهم للأرشيف. وعندها، سيكون من الضروري التركيز على الطاقة الانتاجية لهذه المنهجية. الصعوبة تكمن في عدم استقرار التاريخ المصغر؛ فليس من السهل توجيه طلاب الدكتوراه إلى هذا المجال الذي لا يوفر ضمانات كافية لإيجاد المادة اللازمة للتأليف.

تقولين في كتابك «1962» إنّ من بين تعاريف التاريخ الشعبي هو كونه تاريخ الأقليات؛ «الأصوات التي نادرًا ما نسمعها، أصوات البسطاء والأميين والنساء». كما تذكرين كثيرًا النساء في مدوّنتك الإلكترونية، وتحدثت عنهن في نمك الأول الذي نشرته بشأن الحراك في 24 فيفري/شباط 2019. هل تنتبهين لظواهر معينة بصفتك امرأة مؤرخة؟

بالتأكيد. وكذلك لأنني شعرت بالارتباك أمام غياب هذه المسألة في كتبي. لم تكن هناك نساء، أو بالكاد، في صفوف حزب البيان الجزائري. أما في كتابي عن بومنجل، فقد طرحت مسألة العلاقات الجندرية نفسها، لاسيما في الكنف العائلي (بين الإخوة والأخوات، بين الأزواج). لكن الدراسة التي أشتغل عليها حاليًا ذكرية بالدرجة الأولى. باشرت إذن تأليف «1962» وأنا على دراية ضئيلة بمسارات النساء، وكلي تساؤل عن سبب غيابهن في عملي. ويعود هذا الهاجس لتجربتي الشخصية في الفضاء العام، لاسيما حين أسافر إلى بلدان أخرى؛ حيث أدركت أن الجسد لا يتحرك بنفس الطريقة في الجزائر أو فرنسا أو الولايات المتحدة، أو في بلد آخر من بلدان المغرب أو العالم العربي. وهي تجارب متنوعة تساعدنا على طرح أسئلة وجيهة بشأن دخول النساء في السياسة مثلًا، أو في الفضاء العام، وكيف تطالبن بمكانة متساويةٍ مع مكانة الرجال أو مختلفة عنها. تسمح لنا هذه التجارب بتدقيق نظرتنا؛ حيث أتذكر أنني، خلال سفر إلى الشرق الأوسط في التسعينيات، استبطنت بشكل أو بآخر القيود المفروضة على النساء في الفضاء العام. واستمر الأمر كذلك لبعض الوقت في الجزائر. لكنني تيقنت بعد حين أنني في بلدي، وليس عليّ الانصياع لمثل هذه القيود أو التأقلم مع الواقع كما هو، ويمكنني البحث عن هوامش حرية، على غرار باقي النساء.

كيف تبلورت هذه المقاومة وهذا الرفض؟

قد تأتي على شكل بذل جهود أقل في اختيار اللباس أو إيماءات أكثر حرية، ألّا تولي اهتمامًا زائدًا لكونك لا تتصرفين كما يُطلَب منك تمامًا، أن تكوني على طبيعتك بما أنك في بلدك. لا أعيش في الجزائر بصفة دائمة، ولذلك ليس من اللائق أن أعتبر نفسي مسؤولة عن ثورة نسوية، لكنني أملك هامش حرية استطعت الوصول إليه بفضل نساء أخريات. قد تبدو هذه الأمور بسيطة لكنها ثمرة تجربة ولا تقتصر على مسألة الجندر، بل هي مسألة فضاء عام. فيما يخص الجزائر، يتعلق الأمر بالأحداث التاريخية التي عرفتها البلاد. عندما باشرت أطروحتي، كنا قد خرجنا بالكاد من التسعينيات وكان الخوف لا يزال قائما، بما فيه ذلك المرتبط بالرقابة الاجتماعية. عندما عدت في 2003، أكد لي الأصدقاء وقريباتي أنه يستحيل عليّ الذهاب لوحدي إلى القصبة. مر وقت طويل قبل أن أدرك أن الأمر يتعلق بقيود اجتماعية أكثر منه بخطر على أمني الشخصي. كانت هناك موانع عديدة، ولم نكن نميز فيها بين الخطر والعادات الاجتماعية، كالخروج ليلًا بالنسبة للنساء، مثلًا. الطريقة الوحيدة لمعرفة الجواب كانت التجربة، أي استعمال الجسد كمؤشر أساسي، مما قد يعرضنا لأخطار إن كانت نظريتنا خاطئة. عندما سمحت لنفسي بالقيام بهذه التجربة، على غرار الكثير من النساء، كان المجتمع قد أصبح أكثر ليونة في هذا الشأن، ولذلك لم يكن تصرفي هذا ثوريًا للغاية، بما أن الظروف قد صارت تسمح به.

عندما نقرئك، نشعر بوجود موهبة للسرد، كما أنك تهتمين كثيرا بمسألة اللغة. هل أنت قارئة للروايات الأدبية؟

بقدر ما انا قارئة تاريخ كسولة، بقدر ما أحب قراءة الروايات. عندما باشرت العمل على تاريخ الجزائر المستقلة في 2010، خُيل لي أنني فتحت مجالًا جديدًا، لاسيما فيما يخص التسعينيات. إلا أنني اكتشفت بعدها رواية «خرفان المولى» لياسمينة خضرة، فأدركت أن الروائيين لطالما سبقونا في كتابة التاريخ، بحكم معرفتهم المباشرة بالمجتمع، وعدم تقيّدهم بالمصادر، وقدرتهم على العمل انطلاقا من ذاكرتهم. ولذلك من الممتع بما كان دراسة ما يكتبه الروائيون عن الماضي؛ فمن بين الطرق التي نمارس بها التاريخ المعاصر، هي أن ندرس كيف يتم استذكار حقبة ما وكيف تكون روايتها. مثلًا: ماذا نجد في الروايات الأدبية حول الحرب التحريرية؟ ما الذي يتذكره المؤلفون وما الذي يكتمونه في الأدب، من بن هدوقة إلى سمير تومي؟ فتصبح الروايات آثارًا للحقبة والمجتمع الذين كُتبت فيهما. وهو تصوري أيضًا عن الأفلام السينمائية. كان كتابي «1962» مناسبة لذكر بعض الأفلام والأغاني التي ظهرت في السنوات الأولى للاستقلال. الأدب والسينما والموسيقى وسائل لاكتشاف سرديات مختلفة تلهمنا وتُساءِل طريقتنا في الكتابة. كما أقرأ كتب تاريخ أنجلوساكسونية، وهي تتميّز بأسلوب يدمج أبعادًا شخصيةً لمؤلفيها في السرد التاريخي. وهو ما نلمسه أيضًا في كتبي.

تتضمن كتبك كذلك إيحاءات لعناصر من الثقافة الشعبية، ومنها كرة القدم، مما يعتبر تجديدا في كتابة التاريخ...

بالفعل، فبإمكاننا أن نكون مؤرخين أو مؤرخين اجتماعيين طوال الوقت. أتذكر بدايات الحراك، عندما تفاجئ الكثير من الدور الذي يضطلع به مشجعو كرة القدم، إلا أنني أتذكر «تيفو» رُسِمَ عليه وجه مروان البرغوثي، رأيته في 2016 خلال مقابلة بين نادي مولودية الجزائر واتحاد العاصمة. في الأسبوع نفسه، صدر مقال في جريدة «الوطن» يتناول هؤلاء المشجعين، لكن دون ذكر كلمة «السياسة»، وقد لفت هذا الأمر انتباهي آنذاك. يمكننا التفكير انطلاقًا من آثار تبدو سطحية للغاية، لكننا ندرك أهميتها بصقل النظر... بمقدور أي شيء أن يصنع التاريخ؛ الملاعب وممارسات المشجعين مثلًا قد تشكل موضوعا شيّقا للمؤرخين، فالشعارات الرياضية هي أدوات توريث تاريخي يتجاوز صداها حيز الملعب.

ما هو موضوع عملك حاليًا؟

أشتغل على مشروعين مختلفين؛ الأول يتناول الأشخاص الذين اختطفهم الجنود الفرنسيون بالعاصمة عام 1957، وهو امتداد غير مباشر لكتابي حول علي بومنجل، حيث نجد حالات مشابهة. أما الثاني، فهو عمل كنت أرغب في إنجازه منذ اثنتا عشرة سنة عندما دخلت معهد التاريخ المعاصر؛ إذ أردت الربط بين حقبتي ما قبل الإستقلال وما بعده من خلال سرد مسارات فردية لمناضلين شيوعيين (من الحزب الشيوعي الجزائري وحزب الطلائع الاشتراكية)، وهو ما يتيح لي تغطية فترة طويلة تمتد من الأربعينيات إلى التسعينيات.

المغارة

المتفجرة*

تفكيك

*عنوان الرواية الأولى ليمينة مشاكرة، صدرت عام 1979.

الرباط وهوس العذرية

وئام أوراس

كيف نسمي الجنس بالدارجة الجزايرية؟[1] ما قدرتش نلقى كلمة تكون ماشي قبيحة. ما قدرتش تاني نسمي الأعضاء التناسلية بكلمات لا تعبر إلا عن جزء من الجسد وفقط، فالكلمات بالدارجة الّي تعين المهبل والقضيب تكون إما طفولية إما عيب («ملتحت»، «بين الرجلين»، «لْتَمّا»...). بصح مزية كاين لغات عديدة نقدرو نستعملوها، ومنها كلمات بالعربية الّي راح نستعارها لكسر الحاجز اللغوي.

الجنس وكل ما يحيط به يعد من أكبر الطابوهات في بلدان المغرب والمشرق العربيّين، بصح يكفي خطرات نكونو في جماعة تع نساء باش الهدرة تنحل، وتتسرب سلسلة من الحكايات المتشابهة وبينها عامل مشترك، الّي هو تقديس العذرية وواجب الحفاظ عليها. في هذا السياق، تم خلق عدة طرق لمنع النساء من ممارسة الجنس. في شمال إفريقيا، العادات الأكثر انتشارًا هي ختان البنات بمصر وموريطانيا، أما في الجزائر[2]، تونس والمغرب، كاين عادة أخرى منتشرة وتُستعمل للتحكم في عذرية البنات وهي ما يسمى بالرباط.

الرباط عادة سحرية تستعمل لمنع البنات من ممارسة الجنس وذلك للحفاظ على العذرية[3]. عندو عدة أسامي: الرباط، الربيط، ولا التصفيح والتصفاح في شرق الجزائر وتونس، التقاف في الغرب والمغرب، والتسكار. الطفلة الي يمارسوا عليها هذه العادة يقولوا عليها مربوطة، مصفحة، مسكرة، متقفة، مغلوقة، مقفولة؛ عكس البنات الي مايكونش عندهم غشاء البكارة ويقولوا عليهم بطريقة سلبية مفتوحة، محلولة.

أول مرة سمعت بهذه العادة كنت في الثانوية. وحدة من الّي يقراو معايا قالت لي «أنا مربوطة»، سألتها واش معنتها، جاوبتني بلي ماتقدرش تفقد عذريتها. بعدها، تلاقيت بعدة بنات مراهقات وحنا في نفس العمر قالوا لي أنهن مربوطات؛ وحدة فيهم قاتلي بلي استطاعت ممارسة الجنس مع صديقها وما سالتلهاش قطرة دم بما أنها مربوطة، الرباط يحميلها عذريتها. في الحقيقة هي برك من النساء الّي عندهم غشاء مطاطي ولا ما عندهاش أصلا غشاء. كملت نسمع من هنا وهناك عن الرباط في دزاير العاصمة وفي مدن أخرى. كاين بعض المؤلفات حول هذا الموضوع بصح تقعد قليلة[4]. سألت العديد من النساء والرجال الّي حولي وبزاف منهم ماشي سامعين به. ومنهم الّي يعاودوا يتاصلوا بيا بعد ما يتفكروا بلي وحد النهار سمعوا بوحدة كانت مربوطة، فات وقت قصير باش وصلت إلى النساء الي هوما عاشوا الرباط وجمعت الشهادات تعهم؛ وكل ما تحدثت معهن ومع غيرهن عن هذا الموضوع، كل ما نشوف شحال الرباط منتشر ويمس تقريبا كل العائلات من بعيد أو من القريب.

1. هذا المقال مكتوب بالدارجة الدزيرية، ومعرب شوية. تم ترجمته إلى الفرنسية.

2. حسب علمنا، لا يوجد ختان البنات في الجزائر. بصح نفيسة زردومي ذكرت بلي في رحلة لها في المنطقة الصحراوية الساورة، لقات بلي عند قبيلة الرڤيبات في تيندوف يمارسوا الختان على البنات الّي ما بين ثلث وست سنين، وهذا للتحكم في شهوة النساء من جهة، وللتقليل من حجم البظر من جهة أخرى. النسا يربطوا رجلين ويدين الطفلة ووحدة فيهم تشوهها، وبعدها تحطلها الخنة. أنظر:
Nefissa Zerdoumi, *Enfant d'hier : L'éducation de l'enfant en milieu traditionnel algérien*, Paris, Ed. Maspero, 1982, pp. 208-209.

3. كاين نوع آخر تع سحر الرباط الّي يندار للرجل من طرف الزوجة ولا الحبيبة باش تولي عندو استحالة الانتصاب كي يكون مع إمرأة أخرى. يُستعمل لتجنب الخيانة ولا للإنتقام، مثلا عندما رجل يتزوج من امرأة أخرى. في ليلة الدخلة كي رجل ما يكونش عندو انتصاب، بعض العائلات يقولوا بلي سحراتو أمرأة. كاين سحر الرباط (ربيط) آخر، الّي هو ربيط الولادة، يندار لتجنب الحمل. كاين عدة طرق مستعملة من بينها ربط الحرير، وين كاين تكرار مقولة «ماشي الحرير الي عقدت، ولادتي وولادة راجلي الي اربطت». فيما يخص ربيط الولادة أنظر:
Joseph Desparmet, « Ethnographie traditionnelle de la Mettidja (suite) », *Revue Africaine*, Alger, Ed. Société Historique Algérienne vol° 60, 1919, pp. 260-265.

4. بعض المؤلفات من القرن الواحد والعشرين عن الرباط:
Ibtissem Ben Dridi, 2004 ; Ibtissem Ben Dridi 2010 ; Berkahoum Ferhati 2007 ; Moussa et al., 2009.

هذه العادة منتشرة في القرى وحتى في المدن وعندها أربعة عوامل مشتركة:

- الطفلة تتربط قبل سن البلوغ وقبل أول حيض. لازم تاني الطفلة تقدر تهدر باش تعاود مقولات، أي ما تكونش رضيعة ولا صغيرة ما تهدرش؛
- الرباط تديرو امرأة كبيرة الّي خلاصلها الحيض، تكون غالبا امرأة من العائلة، من غير الأم، ومتعودة تربط البنات؛
- الرباط يندار غير بين النسا. في اليوم الّي يديروه فيه، لازم الدار تكون خالية من الرجال، ما يكون حتى ذكر بالغ. يقدروا يكونوا دراري صغار ماشي بالغين، بصح ماشي في الغرفة الي يندار فيها الرباط. النسا ما يقولوش للرجال واش راح يديروا، كل العملية تتخطط ما بيناتهم؛
- كي تجي حا تتزوج الطفلة، في ليلة الدخلة تعها يعاودوا «يحلوها»، ولا «يفكولها الرباط» بطريقة تشابه الّي داروهالها كي ربطوها.

كاين عوامل اخرى الّي تتبدّل حسب العادات. مثلا، المرأة الي تدير الرباط هي الّي لازم تفكو؛ عند آخرين تقدر تكون امرأة أخرى الّي تفكو. الرباط يقدر يندار عند البعض في الصباح قبل الظهر، وهو شرط من الشروط باش يمشي؛ وعند البعض الآخر يكون في أي وقت، المهم قبل المغرب. كاين الّي كي تتربط لازم تغمض عينيها وكاين الّي لا؛ هذا يختلف حسب العادة والمنطقة. العوامل الّي تكون دايما ثابتة هي الربعة المذكورين الفوق.

أنواع وطريقة الربط

الرباط يندار بعدة طرق مع اختلافات حسب المنطقة وحسب المرأة الي تربط. خمسة من السبعة نساء الّي تحدثت معاهم وجمعت شهاداتهم، عاشوا في الجزائر العاصمة والبليدة، وكلهم ربطوهم بالكادنا، والثنين الباقيين من قسنطينة وعنابة، ربطوهم بالشلاطات. كلهم في سبعة عاشوا في المدن.

الكادنا، الرمانة[5]

الكادنا من أكثر الطرق استعمالا في شمال وسط الجزائر. عكس طريقة النسيج ولا الصندوق، الكادنا ما تاخدش بلاصة، رخيسة وسهلة. لازم نفس المفتاح والكادنا الي ربطوا به هو الي يحلوا به، كأن الحرس على الكادنا يعني حرس على الطفلة.

حسينة، امرأة من بوفاريك في أواخر الثلاثينات، ربطتها جدتها كي كانت صغيرة ومدت الرمانة والمفتاح ليماها الي بحّرتهم. حسينة ما شفاتش بلي هي مربوطة، حتى قبل عرسها ختها حكاتلها. «كي عرفت قبل عرسي بلي أنا مربوطة خفت يأثر على زواجي. أم صحبتي الّي رابطة قاع بناتها هي الّي حلتني. بعتت طفل صغير يشري رمانة عند حانوت يطل بابو على الشرق، وكان مالازمش يسقسي السومة ديالها. كان عليا نكون كيما خلقني ربي، ما لابسة والو، لا حوايج، لا مناقش، لا خاتم، غير إيزار بيض. المرأة قاتلي نغمض عينيا ونقعد واقفة، حطت الرمانة بين رجليا وحلتها، وبعدها طلعتها لراسي وغلقتها. عاودتها سبع مرات».

5. الرمانة كلمة مرادفة للكادنا، تستعمل في عدة مناطق في دزاير.

حسينة وبزاف نساء وحداخرين كي ربطوهم وهوما صغار، يغلقوا الكادنا بين رجليهم وبعدها يفتحوها قدام راسهم ويعاودوا هذه العملية سبع مرات. باش يحلوهم قبل زواجهم، يفتحوا الكادنا بين رجليهم ويغلقوها قدام راسهم ويعاودوها تاني سبع مرات. وكأن الطفلة تنفتح للدنيا مادامها ماتعرفش الجنس، وتنغلق كي تعرف مذاق الجنس، ودهنها يولي مربوط عند الزواج.

الشلطات، الوشام

الشلطات، ولا لوشام، يندارو بالشفرة في الفخذ، عددهم يتراوح بين ثلاثة، خمسة، ولا سبعة شلطات صغار، حسب العادة. سامية من قسنطينة ربطتها مرّت عمها؛ دارتلها ثلاثة شلطات في الثلث الداخلي تع الفخذ، حكت الاسفنجة بالفحم وبعدها حكت الشلطات باش يخرج وشام صغير. باش يحلوها، لازم يندارو الشلطات في الجهة المعاكسة. سلمى من عنابة، دارولها سبعة شلطات صغار، حكولها الدم الي خرج بالزبيب ومدولها تاكل سبعة حبات، دارولها وشام بنفس الطريقة. في بلاصة الزبيب كاين الي يستعملوا التمر.

حتى ولو هذه الطريقة موجودة في وسط الجزائر وفي عدة مناطق، هي منتشرة أكثر في الشرق وفي تونس[7,6]. عكس الكادنا، الشلطات يخلوا أثر ماشي غير سيكولوجي بل في الجسد تاني؛ تخلي دليل بلي الطفلة مربوطة. كاين نية إظهار بلي عايلتها حرسوا باش عذرية الطفلة تكون محفوظة.

طرق واحداخرى

من بين الطرق الأخرى كاين استعمال الصندوق والمنسج. غالبا ما يستعملوهم بنفس المبدأ؛ يغلقوا ويحلوا الصندوق سبع مرات، ولا ادور الطفلة على المنسج سبع مرات. الصندوق يعتبر أقوى من استعمال الكادنا. العديد من الّي تكلمت معاهم يقولوا بلي النسيج هو الّي واعر بزاف، يعني فعال أكثر. في كل الطرق، الطفلة تعاود مقولة «أنا حيط والراجل خيط» ولا «أنا حيط وولد الناس خيط»، نهار يحلوها تقلب المقولة وتولي «أنا خيط والراجل حيط» ولا «أنا خيط وولد الناس حيط». علابيها الرباط ما يندارش على الرضيعة، لأنها ما تقدرش تعاود المقولة.

أثر الرباط

أثر الرباط على الحياة الشخصية والجنسية يختلف حسب المرأة وعيشتها. بما أن الرباط يندار في الصغر، الأغلبية ما يشفاوش. ما بين السبعة نساء الّي تحدثت معاهم حول هذا الموضوع، ستة كان سنهم يتراوح ما بين ستة سنين وثناش سنة. واحدة برك من هاذو النساء كانت بالغة كي دارولها الرباط، واعتابروا أهلها أنهم طولوا باش داروهولها، وما شفاتش عليه؛ عرفت بلي هي مصفحة نهار شافت فلم Le Verrou[8]. حول التصفيح. شفات بلي مرت عمها دارتلها شلطات في فخذها. امرأة أخرى، أمال، شفات بلي هي مصفحة كي صحبتها هدرتلها على كيفاه يندار الرباط، تفكرت بلي في صغرها دارولها نفس الشي.

غالبا ما يختفي هذا الحدث من الذاكرة ويظهر من جديد، وقد يظهر بطريقة لاواعية؛ كالخوف من الإيلاج، تشنّج لا إرادي للعضلات، وجع يقدر يكون قاسي، إلخ. هذه الأعراض ماشي خاصة بالنساء المربوطات برك، الكثير من النساء يعيشوا الجنس كعذاب وليس كلذة، حاملين في ذهنهم التحكم الي كبروا به والي يتجسّد في عدم تقبل أي اختراق، ويخلق تشنج مهبلي.

6. هذي الطريقة مفصلة في كتاب إبتسام بن دريدي:
Ibtissem Ben Dridi, *Le tasfih en Tunisie. Un rituel de protection de la virginité féminine*, Paris, L'Harmattan, Coll. « Histoire et perspectives méditerranéennes », 2005.

7. Barkahoum Ferhati, « Les clôtures symboliques des Algériennes: La virginité ou l'honneur social en question », *Clio. Femmes, Genre, Histoire,* n° 26, 2007, pp. 169–180.

8. *Le Verrou*, film de Leila Chaïbi, Hélène Poté, 2016, 63'.

كي ما يقولوش النساء للطفلة بلي هي مربوطة يكون خطرات عن قصد، لأن كاين الاعتقاد عند العديد من البنات بلي الرباط يمنعهم من فقدان غشاء البكارة. حسب أمينة، الرباط يحميلها عذريتها: «نجمّع مع صاحبي وچامي سالتلي قطرة دم، المرّة اللولة كنت خايفة بصح ما صرالي والو. كي راني مربوطة ماما ما تقعدش خايفة عليا وما تعسنيش». بصح كاين تجربات تختلف عن تجربتها: «خطرات كانت عندي علاقات جنسية مع صاحبي وماساليش الدم، بصح خطرات واحدخرى نحس كْلي عندي حاجة تغلقني ملداخل، نكون حابة بصح غير توصل باش يدخّلو ما نقدرش، كانت تصرالي بزاف وماكنتش أصلا علابالي بلي أنا مربوطة، حتى قبل عرسي باش قالولي»[9].

استحالة الإيلاج تقدر تكون حتى في ليلة الدخلة؛ «ليلة قاع وراجلي يحاول، كنت مسدودة وكان يحكمني السطر بزاف، كلي حاجة تمنعني، يامات وهو يحاول حتى كي حكيت لعمتي قاتلي بلي جداتي ربطتني بالكادنا. عمتي جابت كادنا وحلتني، بعدها ما بقالي حتى سطر».

أعراض أخرى يقولوا عليهم النساء بلي جاوهم على جال الرباط، كيما الوجع تع الظهر، تع الراس، وحتى الوجع تع الحيض. إذا كاين الّي يعيشوا الرباط بالوجع واستحالة الحياة جنسية، كاين الي الرباط ما يبدّل حتى حاجة فيهم، كيما في حنان، امرأة في الربعينات، كانت عندها علاقات جنسية قبل الزواج مع نزيف الدم في أول علاقة جنسية؛ «الرباط ما مشاش فيا، ما دارلي والو. عرفت بلي أنا مربوطة مُور أول علاقة جنسية ديالي، أصلا أنا مانامنش بهاذا لحوايج، كي سمعت بلي داروهولي زفعت، حسيت حبوا يربطوني بمعنى يحّكموا فيا»[10]. كاين حالات تحكّم الّي توصل الى أقصى حد. امرأة من الجزائر العاصمة صفحت بنتها زهرة، هذا ما منعهاش تديها على الأقل أربع مرات في السنة لفحص عذريتها عند الطبيب، في كل سنين المراهقة وحتى في أوائل سن الرشد. من صغرها تقوللها بلي العذرية هي أهم شي في حياتها، وبلي بلا بها ما تسوى والو.

الاعتقاد بشأن الرباط

وجود الرباط يُبَرّر من طرف النساء والّي يعرفوه لسببين؛ السبب الأول هو حماية الطفلة من فقدان غشاء البكارة وحماية «شرف» العائلة، والسبب الثاني هو حماية الطفلة من الاغتصاب. السبب الثاني يُقدّم لتبرير كثرة استعمال التصفيح في فترة الاستعمار وفي العشرية السوداء[11]. إلا أن غرض استعمال الرباط مقابل الاغتصاب هو أيضا لتجنب فقدان غشاء البكارة. الأخطر لدى الكثير من العائلات عندما الطفلة تكون ضحية اغتصاب، ليس الصدمة النفسية الي تعيشها الطفلة، بل عدم وجود غشاء البكارة الّي مُرتبط في المجتمع بقيمة المرأة.

كيفاه يمشي الرباط؟

في الاعتقاد الشعبي، الرباط يجيب الجن يسكن في الرّحم، وهو الي يمنع كل علاقة جنسية ويتحكّم في جسد الطفلة. عند فك الرباط، الجن يخرج من الجسم. هذا الاعتقاد يوصل إلى حد التفكير بلي كي امرأة مصفحة ترفض قاع الخطابة، يكون هذا على جال سحر الرباط. كي طفلة مربوطة ما تتزوّجش، يقولوا بلي الجن يكون منعها، حب يكتسبها ويرجع جن عاشق. كاين تاني الإعتقاد بلي جن الرباط يقدر يسبب طلاق النساء المتزوجات لوكان الفك ما يكونش قوي.

امرأة في الستينات في عمرها من بوفاريك، الّي عَرْفت في حياتها عشرات وعشرات النساء المربوطات والنساء الي ربطوا قريباتهم. قالت لي بلي المرأة المربوطة كي ما تتزوجش، لازم تفك الرباط باش كي تتوفى ما تروحش به عند ربي، كونو سحر الّي يأثر على الخلق. الرباط ماشي عادة دينية، وأصبح بالشوية يُعتبر من ممارسات الشعونة.

الأئمة والشيوخ يهدروا عليه في التلفزيون وفي فيديوهات على اليوتوب ومواقع التواصل الاجتماعي، ومنهم الّي فيهم

9. الكلمات المسطرة غُيّرت من طرف الكاتبة.
10. الكلمات المسطرة غُيّرت من طرف الكاتبة.
11. ما كانش إحصائيات ولا أرقام تقريبية حول الرباط ومدى وجوده.

ملايين المشاهدات [12]. الكثير منهم يحذروا من هذه العادة الي يقولوا عليها سحر وشعونة، حرّموها وينّصحوا بالرقية الشرعية عند الراقي باش يفكوا السحر. تحريم الرباط بطريقة واضحة خلاه يزرع خوف غضب الله عند النساء، بصح كمل يرسخ نفس فكرة تقديس غشاء البكارة والتحكم في البنات باش ما يفقدوهش، يعني تراجع عادة التصفيح ما تعنيش اطلاقا تراجع في هوس العذرية.

هوس العذرية

الرباط، فحص غشاء البكارة لإثبات العذرية، المنع من الخروج من الدار، المنع من رفقة الذكور، التهديد، العنف السيكولوجي والجسدي، تكرار أن العذرية أهم شي للبنت، تكرار أن البنت غير العذراء فاسدة ليس لها صلاحية، إظهار القمجة بعد ليلة الدخلة... وزيد وزيد. كل هذا يُظهر المكانة المقدسة الّي يمدها المجتمع لمفهوم وهمي الّي هو العذرية، والمكانة الدونية الّي يمدها للنساء ويعتبرهن كسلعة. تجاهل جسد النساء يولّد عنف ممارس في الحياة اليومية، ويخلي الاعتقاد يغلب ما هو حقيقي وملموس. كالاعتقاد أنو لازم حتما الدم يسيل عند الإيلاج، وتجاهل أن هناك نساء عندهم غشاء مطاطي وين قطرة دم ما تسيل؛ كالاعتقاد أن غشاء البكارة هو كرامة وشرف العائلة، وتجاهل التصرفات اللاأخلاقية[13] تع الرجال الي شرفهم غير محصور في جسدهم، فيفعلوا ما يشاؤون. الازدواجية الأخلاقية الي تسمح للرجل ما تمنع للمرأة، تبيّن مدى التفرقة الي كاينة حسب الجنس. لنفس الفعل، كفعل ممارسة الجنس، الرجل يُشجع على ذلك أو يعتبر دار غلطة يقدر يتوب عليها، بينما المرأة تُعاقب على ذلك والعقاب قد يصل إلى القتل.

الفضيحة، الغلطة، المصيبة، الفاحشة، الزنا... كل هذه الكلمات تعين الجنس، تعينو خاصة للطفلة. الطابوهات الثقيلة الّي تحيط بالجنس خلات سكوت غامض على كل العنف الممارس ضد النساء. من بين تحديات النسوية في بلدان المغرب والمشرق هي كسر هذه الطابوهات؛ يتم هذا بالتحدث ووالنقاش عن هذا الموضوع، لتسليط الضوء عن كل العادات، التقاليد، والممارسات الّي تقمع النساء والّي لازم تتنحى.

12. من بين الفيديوهات الموجودة: «إعلمو خطورة سحر التصفيح. جواب على سؤال أحد المتابعات»؛ «ما هو سحر التصفيح؟ وما هو علاجه؟»، للغريب الموصلي؛ «سحر التصفيح (الثقاف) وكيف يعطل الزواج على الفتاة او يسبب لها مشاكل بعد زواجها»... بعض الفيديوهات هي حصص تلفزيونية جزائرية، من بينها: «للنساء فقط: التصفح السحر وربط البنات تعددت المصطلحات والكارثة واحدة»، حصة في Beur TV؛ «الشيخ شمس الدين. التصفاح سحر ولا توجد نية في المحافظة على البنت بفعله»، حصة في النهار TV للشيخ شمس الدين.

13. عبارة «تصرفات لا أخلاقية» تعبر عن الفعل الي يعتبر أخلاقي ولاأخلاقي في المجتمعات الأبوية التقليدية، كفعل ممارسة الجنس خارج إطار الزواج.

المستقبل غدًا

المستقبل غدًا

المستقبل غدًا

المستقبل غدًا*

راهن النضال

*عنوان قصيدة لآنا غريكي، نُشرت في مجلة «حضور المرأة»، 1984

المادة 66 من قانون الأسرة

عنف وتمييز ضد المطلقات وحرمان من العدالة

نجوى راهم وماجدة زوين

كل عام، بتاريخ 08 جوان/حزيران، تتجدد المطالب بإلغاء قانون الأسرة في الجزائر من طرف منظمات نسوية ومدافعين عن حقوق المرأة. صدر هذا القانون عام 1984، استنادًا إلى مشروع قانون الفقه الإسلامي الجزائري (Code Morand)، الذي أُقترح في الفترة الاستعمارية، المستمد بدوره من الفقه الإسلامي، ثم جرى تعديله عام 2005 . لكن هذا القانون ما يزال يثير الكثير من الجدل منذ ما يزيد على أربعة عقود، حيث ترى بعض الجمعيات الحقوقية النسوية أنه قانون يحمل بين طياته تمييزًا بين الرجل والمرأة، وإجحافًا في حق النساء الجزائريات.

يُعتبر قانون الأسرة في صيغته الحالية، في نظر الناشطات النسويات، تكريسًا للهيمنة الذكورية، وانتهاكًا لمبدأ المواطنة، ومنافيًا لروح الدستور الجزائري الذي يكرس المساواة بين الجنسين. ويرى المطالبون بإلغائه أنه قانون ينطوي على نقائص وظلم للمرأة الجزائرية، خاصة الفقرة الأولى من المادة 66، التي تنص على إسقاط حق الحضانة عن الأم المطلقة في حال أعادت الزواج، ومنحه للأب وإن كان متزوجًا.

فيما يرى حقوقيون أن قانون الأسرة الجزائري من أحسن القوانين في الدول العربية. تقول المحامية عائشة زميت في حوار مع مجلة «لبلامة»: «قانون الأسرة الجزائري عرف عدة تعديلات وتعتبر الشريعة الاسلامية أول مصدر للتشريع، وبالتالي فهو كأي قانون وضعي يحتوي على عدة نقائص. يحاول القانونيون والناشطون والمنظمات النسوية في كل مرة تحسينه ليتماشى وتطور المجتمع، مع المحافظة على مصدر تشريعه». وتضيف زميت: «نعم، به عدة نقائص، كما أن هناك عدة مواد يُسيء القضاء فهمها وتطبيقها. أصل القانون هو الشريعة، وهاته الأخيرة بها عدة مذاهب؛ فهناك مسائل بها خلاف والمُشرّع لا يؤخذ بالخلاف».

الحضانة في القانون والشريعة

تعتبر الشريعة الإسلامية الحضانة مسألة مهمّة في إطار تنظيم الأسرة. ويرى الإسلام أن الحضانة من حق الأم بدليل الآية القرآنية التالية: «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف» (سورة البقرة 233).

أمّا قانون الأسرة فينصّ على أنّ مصاريف حضانة الأطفال تكون على عاتق الأب، مع توفير سكن ملائم للحاضنة أو دفع بدل الإيجار في حالة وقوع الطلاق. إلّا أنّ المادة 66 المكرّسة لسقوط حق الحضانة عن الأم، فتقول: «يسقط حق الحضانة بالتزوج بغير قريب محرم، وبالتنازل ما لم يضر بمصلحة المحضون».

قدمت حقوقيات ملاحظات حول المادة 66 موضّحات بأنها تجمع بين حالتين مختلفتين تمامًا (سقوط الحق، والتنازل عنه)، وأنّ الجمع بينهما سيُفهم بشكل مضلل، يوحي أن لهما نفس الطبيعة. كما أن ترجمة المادة إلى اللغة الفرنسية لا تذكر نقطة مصلحة الطفل إلا في حالة التنازل، بخلاف الجملة باللغة العربية التي تربط كلتا الحالتين بمصلحة الطفل.

علاوة على ذلك، قام المُشرّع عام 2005 بتغيير مركز الأب في ترتيب المستفيدين من الحضانة، حيث إنّه كان يأتي في المرتبة السادسة في قانون 1984 بعد روابط الأمومة، وقفز في 2005 إلى المرتبة الثانية.

إسقاط الحضانة: ماهي الأسس الدينية؟

لم يرد في القرآن آية تنص على إسقاط الحضانة عن الأم عند زواجها، أما في السنة النبوية فقد ورد حديث رواه عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة قائلة: «إن ابني هذا كان بطني له وعاءً وثدي له سقاءً وحجري له حواءً، وإن أباه طلقني وأراد أن ينزعه مني، فقال لها رسول الله "أنت أحق به ما لم تنكحي"» (أخرجه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني).

وتستند حجج المساندين لإسقاط الحضانة عن الأم في حالة زواجها مرة ثانية إلى أن زواجها من أجنبي قد يؤدي إلى نقصان حنانها اتجاه طفلها، وانشغالها عن رعايته. وقد كرس المُشرّع الجزائري عام 2015 مبدأ مصلحة الطفل في المادة 7 من قانون حماية الطفل: «يجب أن تكون المصلحة الفضلى للطفل الغاية من كل اجراء أو تدبير أو حكم أو قرار قضائي أو إداري يُتّخذ بشأنه». كما أقرّ أنه لا يمكن تحديد مصلحة الطفل دون إشراكه والاستماع إلى رأيه، وفقًا لسنه ومدى نضجه.

الاجتهاد القضائي الجزائري

سُجلت العديد من الاجتهادات القضائية حول حضانة الأطفال قبل الاستقلال وبعده؛ حيث سنّ المُشرّع الجزائري عام 1984 مبدأً قانونيًا نص على ما يلي: «إذا علم الأب بزواج الحاضنة ولم يطالب بالطفل خلال مدة سنة واحدة من يوم علمه بهذا الزواج، يبقى الطفل نهائيًا في حضانة الزوجة، ويعتبر الأب في هذه الحالة متنازلا عن حقه»، أما الاجتهاد القضائي الحالي، فجاء على أساس تفهم مصلحة الطفل وفق الحالات التي تحددها المحكمة العليا. وفي أكتوبر 2020، أصدر قاضي محكمة باب الزوار قرارًا بعدم تطبيق المادة 66 على الأكفال من الذكور فقط، الأمر الذي جعل الكثيرين يتساءلون حول امكانية استخدام المنطق نفسه إذا كان جنس الكفيل أنثى.

شهادات أمهات حاضنات...

إيمان... رحلة نضال من أجل استعادة حضانة ابنها

تروي إيمان، أم حاضنة، رحلتها في الكفاح من أجل استعادة ابنها. «زواجي الأول كان تقليديًا، في سن مبكرة. كان يكبرني بأربع عشرة سنة، وحملت منه بعد فترة وجيزة. كان صعب المراس، لا يحن عليّ أبدًا. حاولت جاهدةً تجاوز المشاكل الموجودة بين المتزوجين حديثا، حاولت إصلاح العلاقة لكن دون فائدة. تصدُّع العلاقة بيننا كان بسبب خروجي ذات مرة من دون إذنه. نعم أخطأت بعدم إخباره، وكلفني ذلك غاليًا.»

وتواصل حديثها قائلة: «مكثت في بيتنا لعدة أشهر. لم يسأل عن ابنه الذي أحمل ولا عن حالتي. بعد ولادة ابني، قررت اللجوء الى القضاء؛ رفعت قضية رجوع لكي لا أفقد حقوق ابني. لم يقبل الرجوع، وحكمت عليه المحكمة بمبلغ أربعين مليون [سنتيم]. بعد صدور الحكم تراجع وطلب إرجاعي لكي لا يدفع المبلغ. وقع الطلاق بيننا. بعد فترة ازدادت مشاكلي لأني امرأة مطلقة في مجتمع لا يرحم. ابني أصبح بعمر العامين. بعد مرور أحد عشر شهرًا على زواجي الثاني، وصلتني دعوى اسقاط حضانة».

وتردف أنه بعد استنفاد كل الطرق، «اقترح علي المحامي التفاهم مع زوجي السابق من أجل تقاسم الأيام بيننا، من أجل مصلحة الولد وتفادي العداوة بيننا. قبل موعد المحاكمة، تركت الولد لديه شهرين بطلب منه، كان يأتيني في نهاية الأسبوع. عند بداية الجلسات شوه صورتي أمام القاضية وقال إنّني لا أهتم بالولد وتركته لمدة شهرين، مع أنها كانت بالمفاهمة.

أخذ مني حضانة الطفل، ودخلت في دوامة كبيرة. أصبت بانهيار عصبي. أبي لم يسمح لي بالطعن في القرار قائلًا إنها قضية خاسرة. حتى زوجي الثاني لم يقف الى جانبي، بل بالعكس، بعد ولادة ابني الثاني اتهمني بعدم العدل بينهما. ابني تعلق كثيرًا بأبيه وأصبح لا يهتم بي. كما أنني لاحظت عليه تصرفات غريبة تفيد بأنه تعرض للاغتصاب. توجهت إلى مركز الشرطة، بعدها قابلت وكيل الجمهورية، قال لي إنني لا أملك دليلًا من الطب الشرعي؛ كما قال إنني ربما أسعى الى اتهام طليقي لأسقط عنه الحضانة».

تختم ايمان حديثها قائلةً: «هذا القانون غير العادل حرمني من ابني؛ أصبح لا يهتم بي. والده لم يطبق توصيات القاضية بالعدل وعدم حرمانه من أمه. سأناضل من أجل استعادة حضانة ابني مهما حدث».

راضية... «رفضتُ عروض الزواج خوفا من فقدان ابنتي»

«بعد زواج دام ثماني سنوات حدثت بيننا مشاكل. كان يريد الطلاق دون دفع النفقة أو بدل الإيجار. طلب مني الطلاق بالتراضي ظنًّا منه أنه لن يدفع شيئًا في هذه الحالة. لكن عندما علم بوجوب دفع النفقة، رفض ورفع عليّ قضية إهمال عائلي، رغم أنني مكثت في بيتنا مدة عامين كاملين من دون أن يصرف على ابنته فلسا واحدًا. أنفقت عليها وأدخلتها مدرسة خاصةً، ثم جاء ليتهمني بالإهمال.» مضيفة: «قدمت كل الأدلة لإثبات براءتي وحصلت عليها. بعدها قمت بخلعه. أما الآن أعيش مع عائلتي وأنفق على ابنتي. منذ سنة ونصف لم يطلب رؤيتها».

تردف راضية: «رفضت الارتباط خوفًا من فقدان حضانة ابنتي، خاصة أنه قام بابتزازي في العديد من المرات بطلب الحصول على أموال مقابل تطليقه لي؛ لهذا رفضت كل عروض الزواج لأنني متأكدة بأنه مبتز، وسيقوم بسلبي حضانة ابنتي».

أمال... «معاناتي بدأت منذ الزواج، وأسقط عني الحضانة فقط من أجل التهرب من دفع النفقة»

تروي أمال، أمٌّ حاضنةٌ ومتزوجةٌ مرة ثانيةً، قصتها مع طليقها. «بدأت معاناتي منذ أول يوم زواج لنا، خاصة بعدما اكتشفت أنه يعتمد على والديه في كل شيء. بعد سنة، حملت بأول طفلة لنا. وفي آخر زيارة لمنزل والداي لم يأتِ ليسأل لا عن ابنته، التي

أصبحت بعمر الثلاثة أشهر، ولا عن حالتي. أخبرني أن والدته لا تريديني مجددًا في بيتها». وتضيف: «بعد محاولات فاشلة في اصلاح العلاقة بيننا، قام بتطليقي، ولم يدفع لي أيّ تعويضٍ، ولا نفقة ابنته لأزيد من سنة. كنت المسؤولة على مصاريف ابنتي وكل مستلزماتها، وكل هذا كان بمساعدة أهلي».

تكمل أمال: «في عام 2008، رفعت قضية إهمال عائلي وطلبت العودة إلى بيت الزوجية. لم يكن يحضر جلسات الصلح. حتى يوم النطق بالحكم، لم أكن أرغب في الطلاق.

بعد أربع سنوات من النطق بحكم الطلاق، كان ملزمًا بدفع النفقة، لكنه كان يتلاعب بالقانون؛ كان يدفع مرة في الشهرين، وكان يأتي لرؤية ابنته وقت فراغه، خاصة وأنه أعاد الزواج مرة ثانية. فلم أكن أهتم بمعرفة أخباره.

وفي عام 2014 تزوجت مرةً ثانيةً. تعرفت على زوجي الحالي الذي يعيش نفس حالتي الاجتماعية، بحكم أن لديه طفلة من زوجته المتوفية، وتزوجت زواجًا مدنيًّا أمام الجميع، لم أخفي شيئًا. وبعد مرور ثلاث سنوات التقيت صدفة بعائلته وزوجته الثانية، وعندما رأوني حاملًا بطفلي الأول من زوجي الثاني عام 2017، قاموا برفع دعوى قضائية ضدي بحكم أن النفقة يستفيد منها زوجي الحالي. وبعد الكثير من الجلسات والدعاوى التي لم يكن يحضرها ككل مرة، ربحت الحق في حضانة ابنتي بعد أن قدمت كل الأدلة والاثباتات بعدم دفعه للنفقة والبحث عن مصلحة ابنته. لكن سرعان ما قام بالطعن في الحكم وحكمت المحكمة العليا عام 2019 بحقه في الحضانة، ولكنه لم يهتم لهذا الحكم ولم يأت لأخذ ابنته حتى يومنا هذا».

تقول المحامية عائشة زميت إن المادة 64 من القانون عدلت على نحو غير ترتيب الأشخاص الأحق بالحضانة، إذ كانت هذه المادة في قانون 1984 تنص على أن الحضانة تمنح إلى الأم ثم الجدة للأم ثم الخالة ثم الاب، في حين أن تعديل 2005 يضع الأب في المرتبة الثانية بعد الأم. وهدف المُشرّع من هذا التعديل هو مراعاة مصلحة المحضون التي تكون مع والدته أو والده. ولكن المشكلة تكمن في المادة 66، التي تسقط الحضانة عن الأم وتنقلها آليا إلى الأب في حالة الزواج من غير المحرم.

وتشير المحامية إلى وجود بعض الاستثناءات أمام القضاء فيما يخص زواج الأم مرةً ثانيةً. ففي حال تزوجت برجل أجنبي، فإن ذلك يتنافى مع مبادئ الشريعة الإسلامية ويُسقط عنها الحضانة؛ أما إذا تزوجت بمسلم فمن حقها التمسك بالحضانة، في حال أثبتت أن هذا الزواج لا يؤثر على مصلحة المحضون.

حركة الأمهات الحاضنات

ترى الكثير من الأمهات الحاضنات أنّ زوج الأم يعتبر محرمًا شرعيًّا، وأنّ القانون يكيل بمكيالين؛ فهو يمنح الزوج السابق الحق في إسقاط الحضانة عن الأم حتى وإن أعاد الزواج عدة مرات. كما تعتقدن أن بعض أحكام القانون الحالي هي مصدر للعنف ضد المرأة.

في عام 2020، نقلت مجموعة من الأمهات الحاضنات، جئن من مختلف مناطق البلاد، ومن مختلف المستويات الاجتماعية والفكرية، رسالتهن للسلطات المعنية من أجل إيجاد حل وسط لوضعيتهن، حيث وجهن خطابًا إلى رئيس الجمهورية تدعونه فيه إلى إلغاء المادة 66، وجاء فيه: «إن إلغاء المادة 66 من قانون الأسرة هو المطلب الرئيسي لتعبئة المواطنين الجزائريين للتنديد بالظلم الذي تسببت فيه هذه المادة، والذي يولّد حالات محفوفة بالمخاطر والمأساة في بعض الأحيان».

انطلقت هذه المبادرة بإنشاء مجموعة على موقع التواصل الاجتماعي فايسبوك، تحت شعار «معًا لإلغاء المادة 66 من قانون الأسرة»، ولقيت تفاعلًا كبيرًا، حيث وصل عدد أعضاء المجموعة إلى أزيد من 8000 عضو وعضوة، أغلبيتهم مؤيدون لحق المرأة في الزواج مرة ثانيةً، مع احتفاظها بحضانة أبنائها. وتصدر هاشتاغ «لا لإسقاط الحضانة عن الأم بعد إعادة زواجها مرةً ثانيةً» العديد من الصفحات.

تعمل النساء الناشطات في هذه الحركة على دعم بعضهن البعض، وعلى تشجيع أمهات حاضنات أخريات لكشف المستور. كما يحرصن على التواصل والاجتماع لمناقشة إمكانية وسبل التغيير في المادة نفسها، وحشد جمهور متتبع أكثر للوصول إلى التأثير على الرأي العام.

علاوة على ذلك، تسعى المجموعة الافتراضية للأمهات الحاضنات إلى فتح باب التعاون مع الجمعيات النسوية ومنظمات المجتمع المدني المعنية بالدفاع عن حقوق المرأة، من أجل الوصول إلى نتائج تجمع مصلحة الأم والطفل، وتتيح للنساء التمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الرجل في حالة طلاقه وحتى زواجه من امرأة ثانية. وتبقى كل هذه المساعي والمطالب مرفوعة إلى السلطات الوصية دون إنشاء أي جمعية أو منظمة.

المادة 66 من قانون الأسرة والدفع بعدم الدستورية؟

ما انفكّت الدساتير الجزائرية منذ عام 1963 تعلن أن المرأة مساوية للرجل؛ حيث ينص الدستور الجزائري على أن المواطنين متساوون أمام القانون دون أي تمييز بين الجنسين، وهذا ما جاء في المادة 32 منه: «كل المواطنين سواسية أمام القانون. ولا يمكن أن يُتذرّع بأيّ تمييز يعود سببه إلى المولد، أو العِرق، أو الجِنس، أو الرّأي، أو أيّ شرط أو ظرف آخر، شخصيّ أو اجتماعيّ».

يقول مسانسن شربي، دكتور في الحقوق بجامعة باريس 2: «إن قانون الأسرة هو معيار تشريعي، ويتطلب التسلسل الهرمي للمعايير أن تكون متسقة مع الدستور، وهو المعيار الأعلى

رجاءا لا تحرموا الأطفال من أمهاتهم بعد زواجهن للمرة الثانية فزوج الأم محرم شرعي و ليس سببا لاسقاط الحضانة

السيد(ة). بتاريخ

الى السيد رئيس اللجنة القانونية بالبرلمان

الموضوع طلب الغاء المواد 65 و 66 و 70 و تعديل المادة 64من قانون الأسرة الجزائري لأن الزوج محرم شرعي .

سيدي الوزير المحترم ،أناشدكم السعي لتغيير قانون الأسرة بما يتناسب و مصلحة الطفل المحضون الذي يعاني من سوء المعاملة و استغلاله بعيدا عن حضن أمه ،و كذا حماية للأم الحاضنة من التهديد و الابزاز و الاستغلال و ذلك بالغاء المواد 65و 66و 70 من قانون الأسرة وجعل الحضانة للام حتى بعد زواجها ،كون زوج الأم يعتبر محرم شرعي بدليل القرآن الكريم في الآية 23 من سورة النساء ، ما يعني أنه ليس سببا في اسقاط الحضانة ،و كذا تعديل المادة 64 من قانون الأسرة بجعل الأم حاضنة حتى بعد زواجها ثم تأت الجدة للام ثم الخالة ..الخ ، و ذلك لصالح الطفل المحضون قبل ان يكون رحمة بالأم و الجدة لأم الأم التي اصبحت تتعرض للتهديد من طليقها فيما تبقى من حياتها بنزع أطفالها ان تزوجت ؟ فتشردت الكثير من المطلقات و لجأن للزواج العرفي لهذا السبب و خوفا من فقدان فلذات أكبادهن . فالطفل لا يمكنه العيش بعيدا عن حضن والدته خصوصا أنها حية ترزق ،أمه التي خلقها الله عز و جل لحضانته و ليس زوجك الأب أو غيرها ، فهي الأكثر حرصا على صحته و سلامته و نجاحه ،هي الوحيدة التي تتحمل صراخه و عناده و تسهر لأجله ليلا ان جاع او مرض ، هي الوحيدة التي لا تكل و لا تمل من خدمته ،و ان انزعجت تعود و تندم و تحتضن طفلها ،هي الوحيدة نبع الحنان بالنسبة له ثم تأتي بعدها الجدة للأم ، الأم الثانية ان تعذر على الأم حضانة طفلها ، سيدي الوزير المحترم الكبار و يرفضون الابتعاد عن أمهاتهم فما حال الصغار و هم ينزعون من أمهاتهم نزعا ؟؟؟.

دور الحضانة لا تقوم به الا امرأة ، و لا يعقل ان تنزع الحضانة من الأم التي خلقت لأجله و تعطى لزوجة الأب ؟؟ التي لا علاقة لها بالطفل ، بل هو بالنسبة لها حمل ثقيل يؤرقها .

أملنا بأن تأخذوا مطالب الآلاف من المطلقات بعين الاعتبار ، فنحن كنساء مطلقات و غير مطلقات نثق بكم و بحبكم لأطفال وطننا الغالي ،و بحفاظكم على شرف العديد من المطلقات خصوصا الصغيرات و الفقيرات و اليتيمات ، اللاتي يعانين الظروف القاسية حيث يتم ابتزاز الكثيرات منهن مقابل الحصول على لقمة عيش و مأوى لأطفالهن في مجتمع لا يرحم .

كلنا أمل بأن تنقذوا الطفولة البريئة و ترمموا جراح أمهات مكسورات

لكم منا سيدي الوزير المحترم كل الاحترام و التقدير

توقيع المعنية

للدولة. إن قانون الاسرة يتعارض بشكل واضح مع مبدأ المساواة الدستوري، لذلك ينبغي تنحية بعض أحكام قانون الأسرة جانبًا باعتبارها غير دستورية».

ويردف متسائلا عن سبب عدم اللجوء إلى آلية الدفع بعدم الدستورية فيما يخص المادة 66 من قانون الأسرة، إذ «لم نسمع بقضية طرحت إشكالية عدم دستورية المادة 66، هل هي من المحرمات؟».

يعدّ هذا الاجراء، الذي دخل حيز التنفيذ في مارس 2019، فرصة قانونية للمتقاضين لنيل حقوقهم، في حال رأوا أن النصوص القانونية المرجعية المطبّقة على قضاياهم تتعارض مع أحكام الدستور. وهذا الإجراء من اختصاص المحامي، لكونه الشخص الذي يمثل المتقاضي أمام القضاء العادي أو القضاء الإداري.

في الثامن من مارس/آذار 2021، حاولت إحدى المحاميات استخدام آلية الدفع بعد دستورية قانون الأسرة، ونددت ببعض مواده، عبر فيديو تفصيلي شاركته عبر مواقع التواصل الاجتماعي، تطرقت فيه إلى الكثير من النقاط، منها التلاعب بالنفقة وإسقاط حق الحضانة في المادة 66، وفق تصريح للناشطة آمال حجاج للمجلة.

سبق وأن شاركت هذه المحامية معاناتها مع زوجها السابق، الذي حاول مرارًا سلبها حضانة ابنتها. كما عدّدت الأسباب التي جعلتها تتحرك وترفع دعوى قضائية ضد طليقها، لتثبت عدم دستورية المادة 66 وسعيها إلى تحريك القضاء عن طريق الحصول على تأييد الرأي العام.

تعود حيثيات هذه القضية إلى محاولة المحامية أخذ ابنتها للدراسة في الخارج، فحكمت القاضية بإسقاط حق الحضانة عنها بحجة أنها أرادت تهريب ابنتها بعيدا عن والدها؛ مع أنها لم تكن تنوي الزواج مجدّدًا.

بعد فترة وجيزة من نشر الفيديو في 17 مارس/آذار 2021، أُحيلت إلى المجلس التأديبي، وتمت المداولة بالمساس بمؤسسات الدولة والطعن بعدم دستورية القوانين الجزائرية. كما رفضت القاضية إعادة سماع الطفلة مبررة ذلك باطلاعها على مضمون الملف، دون حاجتها إلى معرفة المزيد.

للإشارة، فقد حاولت المحامية تحريك الرأي العام والمجتمع المدني بالتوجه مباشرة إلى وزارة العدل، قبل أن تتراجع عن قرارها بعد العراقيل التي واجهتها، سواءً من قبل زملائها في المجلس أو حتى من جمعيات ومنظمات المجتمع المدني، الذين تخلوا عنها بعدم التجاوب معها. في نهاية المطاف، اضطرّت إلى ترك ابنتها عند والدتها، وسافرت للعمل في الخارج من أجل ضمان مستقبل ابنتها وتحسين وضعها الاقتصادي.

في هذا الصدد، نشرت الناشطة الحقوقية ورئيسة مركز الإعلام والتوثيق لحقوق الطفل والمرأة (سيداف)، نادية آيت زاي، مرافعة من أجل إلغاء الفقرة الأولى من المادة 66 من قانون الأسرة، أعلنت عنها يوم 24 جوان/حزيران 2021 بمقر مؤسسة «من أجل المساواة» (أخرجه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني). بالجزائر العاصمة.

تضمّنت المرافعة اقتراح الإلغاء تماشيًا مع اتفاقية الأمم المتحدة للقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، التي صادقت عليها الجزائر بتاريخ 18 ديسمبر/كانون الأول 1997، وكانت دخلت حيز التنفيذ في 03 سبتمبر/أيلول 1981. حيث عرّفت الاتفاقية التمييز ضد المرأة على أنّه «أي تفرقة أو استبعاد أو تقييد يتم على أساس الجنس ويكون من أثاره أو أغراضه، توهين أو إحباط الاعتراف للمرأة بحقوق الانسان والحريات الأساسية في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمدنية أو في أي ميدان آخر، أو توهين أو إحباط تمتعها بهذه الحقوق أو ممارستها لها، بصرف النظر عن حالتها الزوجية وعلى أساس المساواة بينها وبين الرجل».

كما اعتمدت المرافعة على مراعاة المصلحة الفضلى للطفل المكرسة دستوريًا، وهذا ما جاء في قانون حماية الطفل لعام 2015، بالإضافة إلى إبداء رأي المحضون في الأمور المتعلقة بمنح الحضانة، مع اتباع المبدأ المذهبي والاجتهادي القضائي المتبع قبل الاستقلال وبعده حول مسألة فقدان الأم حق الحضانة بعد زواجها مرة ثانية وأنّه ليس بالأمر المطلق.

أما الناشطة الحقوقية ورئيسة جمعية «حورية للمرأة الجزائرية»، فترى أن المادة 66 عززت ظاهرة الزواج السري بين المطلقات، لخوفهن من فقدان حضانة أطفالهن.

وقالت بشأن مبادرة «نور»، التي أطلقتها الجمعية، إنها جاءت من أجل مراعاة مصلحة الطفل المحضون، ولتحقيق توازن بين مصلحة المحضون والحاضن، مع إتاحة الفرصة للمرأة المطلقة أو الحاضنة بالزواج مرة أخرى، دون خوف من فقدان الحضانة، إضافة إلى أهداف أخرى، منها توفير حضانة آمنة للطفل، والرعاية النفسية والتربوية، وتأمين الاستقرار العاطفي له.

كما خرجت هذه المبادرة بتوصيات، منها استحداث مجالس للوساطة بعيدًا عن المحاكم، لنشر الوعي والتأهيل الأسري من قبل جمعيات ومنظمات مختصة في شؤون الأسرة. بالإضافة إلى فتح النقاش مع الهيئات الشرعية والمختصين في المجالات الأخرى.

وتبقى كل هذه المبادرات الجمعوية والمرافعات القانونية بدايةً لوضع خارطة طريق واضحة من أجل تعزيز مطالب الأمهات الحاضنات وإعادة النظر في الفقرة الثانية من المادة 66. كما ترى آيت زاي أنّه يجب إعادة التذكير والعمل مجددا من أجل إحداث التغيير في قانون الأسرة الجزائري بالعمل المشترك بين جميع الأطراف المعنية من المجتمع المدني والسلطات العليا في البلاد.

اِسمعوني*

جرائم قتل النساء في الجزائر

* أغنية لوردة الجزائرية

في الفاتح جانفي/كانون الثاني من عام 2020، أطلقت الناشطتان النسويتان وئام أوراس ونريمان مواسي باهي موقع «لا لقتل النساء – الجزائر» (Féminicides Algérie).

يُعنى هذا الموقع بتسليط الضوء على جرائم قتل النساء في الجزائر من أجل إدانتها، من خلال العمل الدؤوب على إحصائها استنادًا لما يُنشر في الجرائد ومنصات التواصل الاجتماعي، إضافةً إلى إجراء مؤسّستي الموقع استقصاءات دقيقة تتيح إعادة بناء قصص هؤلاء النساء المغدورات.* توجد أنواع مختلفة من جرائم قتل النساء، وهي:

قتل النساء على يد الشريك الحميم (العشير): وهي جريمة القتل التي يرتكبها رجل تربطه علاقة حميمة، راهنة أو سابقة، بالمرأة التي قتلها، سواءً كان زوجها الراهن أو السابق، أو خطيبها، أو حبيبها؛

قتل النساء على يد شخص غير الشريك الحميم: وهي جريمة القتل التي يرتكبها رجل لا تربطه أيّ علاقة حميمة مع الضحية؛ مثلًا، أحد أفراد الأسرة، أو أحد الجيران، أو متحرشٌ جنسيٌّ، أو مغتصبٌ؛

قتل النساء باسم «الشرف»: وهي جريمة القتل التي يرتكبها عادة أحد أفراد الأسرة ضد المرأة، بذريعة تجاوز جنسي أو أخلاقي مزعوم.

*** لمعرفة المزيد عن المشروع وآليات جرائم قتل الإناث في الجزائر، يمكنكم الاطلاع على مقال «قتل النساء في الجزائر: تعداد للتنديد»، الصادر في العدد 0 من مجلة «لبلاصة»، 2022، ص 58-62.**

قائمة جرائم قتل النساء في العام 2022

1. حفيظة منصوري، في العقد الثالث من العمر. اختفت يوم الخميس 30 ديسمبر/كانون الأول 2021. تبيّن بعد خمسة أيام أنّ جارها قتلها، ثمّ أحرقها ودفنها، لأنّها رفضت الزواج به. **أم البواقي، 03 جانفي/كانون الثاني.**

2. لويزة حمداش، 65 سنة، أم لخمسة أبناء، قتلها ابنها بضربات على الرأس. **البويرة 05 جانفي/كانون الثاني.**

3. فتيحة بومزراق، أستاذة لغة فرنسية متقاعدة، ضربها ابنها، الذي كان يعنّفها منذ عدة سنوات، وخنقها حتى الموت. **البليدة، 13 جانفي/كانون الثاني.**

4. امرأة مجهولة الاسم، 65 سنة، قتلها زوجها بعدة ضربات على مستوى الرأس. **عنابة، 16 جانفي/كانون الثاني.**

5. فاطمة رحماني، 34 سنة، ضربها زوجها بحمالة المعاطف على راسها عدة مرات حتى قتلها. كان يعنّفها منذ عدّة سنوات. كانت فاطمة أستاذة اللغة العربية في الثانوية، وكانت حاملًا بطفلها الأول. **تلمسان، 6 فيفري/شباط.**

6. كلثوم رخيلة، 33 سنة، ضربها زوجها السابق وطعنها حتى الموت أمام أطفالها. كان يعنّفها، ويهدّدها ويضايقها منذ عدة سنوات، بل وحاول قتلها سابقًا. تقدمت كلثوم بشكاوى لدى مصالح الدرك عدّة مرّات. كانت أمًّا لثلاثة أطفال. **بومرداس، 13 فيفري/شباط.**

7. امرأة مجهولة الاسم، 22 سنة، قتلها زوجها طعنًا. كانت أمًّا لطفل واحد. سيدي بلعباس، **24 فيفري/شباط.**

8. امرأة مجهولة الاسم، 40 سنة، قتلها ابن أختها طعنًا. كانت تحضّر عرسها. أم البواقي، **24 فيفري/شباط.**

9. رفيدة بوعود، 9 سنوات، قتلها جارها خنقًا، وسرق القرطين الذين كانت تضعهما. **معسكر، 01 مارس/آذار.**

10. امرأة مجهولة الاسم، 30 سنة، قتلها زوجها السابق طعنًا. كانت أمًّا لأربعة أطفال. وهران، **02 مارس/آذار.**

11. امرأة مجهولة الاسم، 19 سنة، أخوها وأمّها كتما أنفاسها بالوسادة، بعدما اكتشفا أنها في علاقة حب مع أحدهم. **سوق أهراس، 02 مارس/آذار.**

12. نورة، 33 سنة، قتلها رجل كانت في علاقة معه طعنًا بالسكين، ثمّ أخفى جثّتها بصبّ الاسمنت عليها. **وهران، 26 مارس/آذار.**

13. امرأة مجهولة الاسم، في العقد الثالث من العمر، أحرقها زوجها حيّةً أمام اثنين من أبنائهما. كانت أمًّا لأربعة أطفال. **الوادي، 16 أفريل/نيسان.**

14. خديجة عبادة، في العقد السابع من العمر، ضربها زوجها بأسطوانة الغاز فقتلها. كانت متقاعدة من قطاع الصحة، حيث عملت عاملة نظافة. كانت أمًا لأربعة أطفال. **تقرت، 22 أفريل/نيسان.**

15. خديجة، 39 سنة، ذبحها زوجها أمام أطفالهما، ثمّ حاول قتل أمّها قبل أن يلوذ بالفرار. أُلقي القبض عليه بعد يومين من الجريمة. عانت خديجة من عنف زوجها لعدة سنوات. **سيدي بلعباس، 30 أفريل/نيسان.**

16. امرأة مجهولة الاسم، 71 سنة، قتلها رجل بعد أن كبّلها لسرقة مجوهراتها. في **عين الدفلى، 25 أفريل/نيسان.**

17. هبة محمدي، 28 سنة، توفّيت على إثر تعرّضها للاعتداء والضرب في عدة أماكن من جسدها على يد مجهول. كانت محامية، متخرجة من كلية الحقوق، من جامعة وهران. **الجزائر العاصمة، 09 ماي/أيّار.**

18. أمينة فتان، 29 سنة، قتلها أخوها طعنًا بالسكين. **الجزائر العاصمة، 13 ماي/أيّار.**

19. مروى بوخاري، 18 سنة، قتلها أبوها بضربها ضربًا شديدًا على الرأس. كانت تلميذة في الثانوية. **تلمسان، 18 ماي/أيّار.**

20. امرأة مجهولة الاسم، 20 سنة، قتلها رجل من معارفها بطعنات سكين. كانت أمًّا. **سعيدة، 19 ماي/أيّار.**

21. امرأة مجهولة الاسم، 37 سنة، قتلها زوجها خنقًا. كانت حاملًا وأمًّا لثلاثة أطفال. **بسكرة، 22 ماي/أيّار.**

22. إيمان منصري، 34 سنة، طعنها زوجها تسع عشرة طعنةً بالسكين، ثمّ انتحر. كانت أمًّا لثلاثة أطفال. **عنابة، 06 جوان/حزيران.**

23. ميعاد برحايل، 15 سنة. ضربها أبوها ضربًا مبرحًا، ثمّ خنقها. **باتنة، 12 جوان/حزيران.**

24. سناء منصوري، 39 سنة، تعرّضت للتعنيف والتعذيب على يد زوجها. حيث إنّه حبسها في البيت بعد ولادة ابنتها الأخيرة، وعذّبها لمدة أسبوع، فكسر عمودها الفقري، وعددًا من أضلاعها، ثم دفعها من أعلى الدرج. كانت أمًّا لأربعة أطفال. **سوق أهراس، 15 جوان/حزيران.**

25. سعاد بن زاوي، 43 سنة، قتلها زوجها ذبحًا، ثم طعن ابنتهما البالغة من العمر عشرة سنوات بعدة طعنات سكين، لكنّها نجت من الموت. **سطيف، 19 جوان/حزيران.**

26. بلحمري جميلة، 49 سنة، قتلها زوجها طعنًا بالسكين، أمام أعين أطفالهما. كان زوجها يعنّفها لعدة سنوات. **بشّار، 27 جوان/حزيران.**

27. فاطمة الزهراء بن شيخة، 32 سنة، وهي في طريقها إلى العمل، هاجمها رجل في الشارع وطعنها بالسكين عدّة مرّات. كانت رفقة زميلتها، التي تعرّضت أيضًا للطعن، لكنها نجت من الموت. **الجزائر العاصمة، 28 جوان/حزيران.**

28. لمياء بوتوحة، 24 سنة، قتلها زوجها خنقًا. كانت أمًّا لطفلين. **الطارف، 28 جوان/حزيران**

29. سماح، 29 سنة، قتلها زوجها بعدة طعنات سكين. **ميلة، 11 أوت/آب.**

30. عائشة عميرات، 65 سنة، ذبحها ابنها البالغ من العمر 32 سنة، متقاعد من الجيش. **كانت أمًّا لخمسة أبناء.سكيكدة، 26 أوت/آب.**

31. غنية وطار، 30 سنة، قتلها زوجها نتيجة ضربها ضربًا مبرحًا، لأنها رفضت الرضوخ لمحاولاته استغلالها في الدعارة. كانت من ذوي الاحتياجات الخاصة. **سوق اهراس، 27 أوت/آب.**

32. سامية جموعي، 40 سنة، قتلها زوجها بضربها بأداة حادة خلف رأسها، ثم قتل أطفالهما الثلاثة شنقًا. **عنابة، 30 أوت/آب.**

33. تواتية معزوزة، المدعوة أمينة، 26 سنة، قتلها زوج أختها المتوفاة ذبحًا. كانت تعمل سكرتيرةً في مستشفى عين تيموشنت. **وهران، 15 أكتوبر/تشرين الأول.**

34. فاطمة حمزي، 78 سنة، ضربها ابنها حتى الموت، ثم دفنها في حديقة المنزل. كان ابنها يعنفها منذ عدة سنوات. كان لديها ابنتين، إضافة إلى ابنها. **وهران، 24 أكتوبر/تشرين الأول.**

35. رزيقة باشا، 39 سنة، زوجها، الذي عنّفها لعدة سنوات، قتلها بضربة بالمطرقة على الرأس. كانت أمًّا لبنتين، وتعمل مهندسة معمارية. **عين الدفلى، 7 نوفمبر/تشرين الثاني.**

36. نادية معروف، 54 سنة، قتلها ابنها بعدة طعنات بالسكين. كانت معلمة اللغة العربية في كتّاب مسجد الحي. كانت أمًّا لثلاثة أبناء. **وهران، 13 نوفمبر/تشرين الثاني.**

37. هاجر شطاح، 32 سنة، ذبحها زوجها السابق عند مدخل شقتها، أمام ابنهما البالغ من العمر أربعة سنوات. كان قد هدّدها بالقتل مرارًا. كانت أمًّا لثلاثة أطفال. **عنابة، 14 نوفمبر/تشرين الثاني.**

38. امرأة مجهولة الاسم، قتلها ابن أخيها طعنًا بالسكين في القلب. **عنابة، 03 ديسمبر/كانون الأول.**

ساحرات

الجسم والصحة

* دراسة لمونى شوليه تتناول من بين مواضيع أخرى تاريخ المعالجات التقليديات التي وُصمن بالساحرات، كما حدث لنساء أحرار أخريات. صدر الكتاب عام 2019

أمراض الغدة الدرقية: مشكلة صحية لدى الإناث

إيمان أماني

تعدّ الغدة الدرقية المسؤولة عن إنتاج عدد من الهرمونات، ولها وظيفة كليّةٌ داخل جسم الإنسان من خلال المشاركة في الأداء السليم للأعضاء المختلفة التي يتكون منها؛ فهي تصنّع وتفرز هرمونات أساسية تساهم في تنظيم معدل ضربات القلب، وضغط الدم، ونمو العظام، ووظيفة الأعصاب الصحية. كما تنظم هرمونات الغدة الدرقية درجة حرارة الجسم، ووزنه، وتساعد في الحفاظ على صحة الأظافر والشعر.
إنّ النساء هنّ الفئة الأكثر إصابة بأمراض الغدة الدرقية، فلماذا؟

سليمة، 34 سنةً، طبيبة

كوني طبيبة، كنت مقتنعةً أنني قادرةٌ على الاكتشاف المبكر لبعض الأمراض التي قد تصيبني، وذلك بالتعرف على أعراضها. لكنّني غفلت عن حقيقة أنّ بعض الأمراض قد تجعلنا نشعر أنّنا بصحة ممتازة. بدأت منذ بضعة أشهر العمل في مؤسسة للصحة الجوارية وكنت أعمل بنشاط كبير؛ كان بإمكاني العمل من الساعة الثامنة صباحًا إلى غاية الخامسة مساءً دون أخذ استراحةٍ، ولا حتى فسحة الغداء. ظننت أن حماسي كان السبب في نشاطي الزائد. لكن في الوقت نفسه، فقدت شهيّتي للأكل، وأصبحت عصبيّة على غير العادة (فأنا شخص هادئ بطبعي)، ومتوتّرة للغاية. في غضون أسابيع قليلة، فقدت خمسة كيلوغرامات من وزني، مع أنني كنت آكل كلّ ما أشتهيه. وقتها، قال لي أحد زملائي، على نحو مبهم: «لديك مشكلةٌ في الغدة الدرقية».
وبالفعل، شُخّصت بداء غْرَيْفز. وتبع التشخيص علاجٌ باستخدام أدوية مضادة للدرقية، والعديد من الزيارات لدى الطبيب، وعددٌ من تحاليل الهرمونات. اليوم، عادت مستويات الهرمونات إلى طبيعتها، وأرجو ألّا أصاب بانتكاسة.

لينا، 23 سنة، طالبة

قصة مرضي معقّدةٌ نوعًا ما. تمثلت الأعراض الأولى التي لاحظتها في احمرار وألم في العين. وأنا أعاني من المرض منذ أزيد من سنة. استشرت أوّلًا طبيب العيون، لكنه لم يكتشف أي أمر غير طبيعي. لذلك أُحلت إلى طبيب الأعصاب، ثمّ إلى طبيب الأمراض الباطنية الذي نصحني بإجراء اختبارات للدم والهرمونات، وتصوير الرقبة بالموجات فوق الصوتية. للأسف، اكتشف الأطباء بعد خمسة عشر يومًا إصابتي بعُقَيدة سرطانية. فتقرّر إزالة العُقَيدة والغدة الدرقية بالكامل جراحيًّا. لا أعرف بالضبط دور هذه الغدة؛ فأنا لست ذات تكوين علميّ. لكنّني أعرف أن لكل جزء من أجزاء الجسم دورٌ في العمل السليم للكلّ. من المؤكّد أنهم سيقطعون جزءًا مني لأتمكن من العيش طويلًا، هذا ما يقوله الأطباء. نشعر أنا وعائلتي بصدمة كبيرة، لكنّنا نؤمن رغم ذلك بنجاح العملية. حاليًّا، أنتظر الحصول على العلاج بالمركز الاستشفائي الجامعي بقسنطينة وتحديد موعد العملية؛ أنتظر وأتمنى تحديد الموعد بسرعة... أنتظر متمنيةً العيش طويلًا.

ليندا، 46 سنة، أستاذة

في عام 2020، استأنفنا التدريس متأخرًا، بعد توقف دام شهورًا من التوتر بسبب جائحة كوفيد-19. كنت سعيدة جدًّا بالالتقاء بتلاميذي مجددًا. بعدها بشهر، بدأت أشعر بالتعب، ولا أنام كثيرًا في الليل، وأخذ شعري يتساقط، الأمر الذي أقلقني للغاية. استشرت في البداية طبيبًا للأمراض الجلدية، ووصف لي دواءً. بعد مرور ستة أسابيع، لم ألحظ أي تحسن في حالتي، وفكرت أن الأمر قد يكون مشكلة في الهرمونات. لذلك، أجريت التحاليل اللازمة، وعرفت أخيرًا المرض وراء الأعراض التي كنت أعاني منها؛ كنت مصابة بقصور الغدة الدرقية. حينها، وصف لي الطبيب علاجًا هرمونيًّا، فكان عليّ تناول هرمونات من أجل تحفيز عمل الغدة الدرقية. في البداية، كنت أبتلع الأقراص على مضضٍ، لكن ما إن لاحظت تحسّنًا في حالتي العامة، وبالأخص توقف تساقط الشعر، أصبحت أهدأ، وشعرت بأنني أعود إلى إيقاع حياتي الطبيعي. ما زلت أتناول الأدوية إلى يومنا هذا، وأزور الطبيب بانتظام لفحص مستويات الهرمونات ومراقبتها.

لالّة فطوم، 79 سنة

كما يقول أحفادي، أنا أضع «قلادة طبيعيّةً». بدأ عنقي في الانتفاخ قبل عشرين سنة؛ كنت أعيش وقتئذ في دوّار قرب جيجل. كان الأطباء نادرون في المنطقة، ومع تحملي مسؤولية إعالة ثمانية أطفال، لم أكن أملك رفاهية التنقل إلى المدينة وزيارة الطبيب. كنت ألاحظ كلّما نظرت إلى المرآة أن الورم في رقبتي يزداد حجمًا. كنت قد رأيت هذا قبلًا، فجدتي أيضًا كان لديها «لؤلؤة ضخمة» في الرقبة؛ نسمّيه «لقواتر». عدا هذا، ليس لدي أي مشكلة صحية أخرى. أكل السمك أكثر من الماضي، فأطفالي الآن يعملون ويعتنون بي. لكن ذلك لا يحلّ المشكلة؛ ما زلت أحمل «لؤلؤتي»... سترافقني حتمًا عندما أنتقل إلى رحمة الله.

تميمة، 34 سنة، معلّمة لغة في المتوسطة

كان الناس من حولي يحدثونني عن الغدة الدرقية، وكانت لديّ فكرة بسيطة عنها؛ كنت أعرف أنها موجودة في مكان ما في العنق، وأنّ لها بالتأكيد فائدة ما؛ فكما يُقال عندنا «كل ما خلق الله ضروريٌّ». بعد أربعة أشهر من ولادة طفلي الثالث، أخذ شعري يتساقط؛ في البداية كان التساقط خفيفًا لكن بعدها أصبحت أفقد خصلات كاملة. عندما كنت أقوم بأعمال البيت، كنت أجمع ما يكفي لصنع باروكة، حتى زوجي كان يجد شعرات في صحنه! وقتئذ، ظننت أن ذلك راجع إلى الحمل والرضاعة. بعدها بأسبوعين، بدأت أشعر بالتعب الشديد، أشدّ من المعتاد، وانتابتني هبّات الحرارة، ولم أعد أنام إلا قليلًا، وصرت عصبيّةً أكثر فأكثر. أتذكر أنني قلت لزوجي بأنني ما زلت صغيرة على بداية انقطاع الطمث؛ فأجابني: «سيكون ذلك محبّذًا. يكفينا ثلاثة أطفال!». في يوم الأحد التالي، قررت زيارة طبيب عام. وبعد إجراء مجموعتين من الفحوص الكاملة، أُعيد توجيهي إلى أخصّائيّ الغدد الصماء، الذي أخبرني أنني مصابة بفرط نشاط الغدة الدرقية التالي للولادة. بعد شهرين من بدأ العلاج، لاحظت أن طفلي لا يجد ما يكفي من الحليب في ثديي ولا يشبع. عاودت مراجعة أخصّائيّ الغدد الصماء، وتبيّن بعد إجراء فحص آخر للهرمونات أنني هذه المرة مصابةٌ بقصور الغدة الدرقيّة، نتيجة وصف جرعة عالية جدًّا من الدواء. أنا بطبعي شخصٌ هادئٌ ومرحٌ، هذا ما يقوله زملائي في العمل، لكنّي لحظتها شعرت بأن ما يحدث فوق طاقتي؛ شعرت أن جسمي فقد توازنه كليًّا. فتارةً، الهرمونات مرتفعة، وتارةً أخرى هي منخفضة! مع العلم أنّني أجريت جميع التحاليل والفحوصات لدى القطاع الخاص؛ لقد صرفت عليها ما يقرب من نصف منحة الأمومة. شعرت بالغضب، والإحباط، وطفلي كان يتضور جوعًا، إذ إنّ قصور الغدة الدرقية يؤدي إلى انقطاع الحليب. الآن، وبعد أن طرحت مئات الأسئلة، وبحثت لساعات طويلة على الإنترنت، وأنفقت ألاف الدنانير، أعرف أن مشكلتي هي الغدة الدرقية، وأن المرأة بعد الولادة معرّضة للإصابة بالتهاب الدرقية.

ما هي الغدة الدرقيّة؟ وما دورها في الجسم؟

الدرقيّة هي غدّة على شكل فراشة، تقع في قاعدة العنق، ويبلغ ارتفاعها 6 سنتيمترات وطولها بين 6 و8 سنتيمترات. تنتج الغدة الدرقية الهرمونين ثلاثي يود الثيرونين T3 والثيروكسين T4، الذين يؤثّران على معدّل الاستقلاب، وتفرزهما في الدم. وتحتاج لإنتاجها كميّة معيّة من عنصر اليود، الذي تحصل عليه بشكل أساسيّ من التغذية، فتقوم بتخزينه، تحويله، وإفرازه على شكل الهرمونين المذكورين عند الحاجة. ينظم العملية الهرمون المنبه للدرقية TSH، والذي يتم تنظيم إفرازه بدوره من الدماغ.

لماذا النساء هنّ أكثر عُرضة للإصابة بأمراض الغدة الدرقية؟

النساء ضحايا لهرموناتهنّ، فهنّ أكثر عرضة بثمانية أضعاف للإصابة بأمراض المناعة الذاتية مقارنة بالرجال. يُعتقد أنّ الإستروجينات، الهرمونات الأنثوية الأساسية، هي السبب في تثبيط عامل مهم من عوامل المناعة، ممّا قد يؤدي إلى خلل في عمل الجهاز المناعي. تندرج العديد من أمراض الغدة الدرقية في قائمة أمراض المناعة الذاتية، مثل داء هاشيموتو (التهاب الغدة الدرقية المزمن)، وداء غُرَيفز (الدُّراق الجُحوظي)، ممّا يفسّر شيوعها لدى النساء.
علاوة على ذلك، تتوافق ذروات حدوث هذه الأمراض مع حدوث تغيرات معيّنة في جسم المرأة، مثل الحمل، والولادة، وانقطاع الطمث...

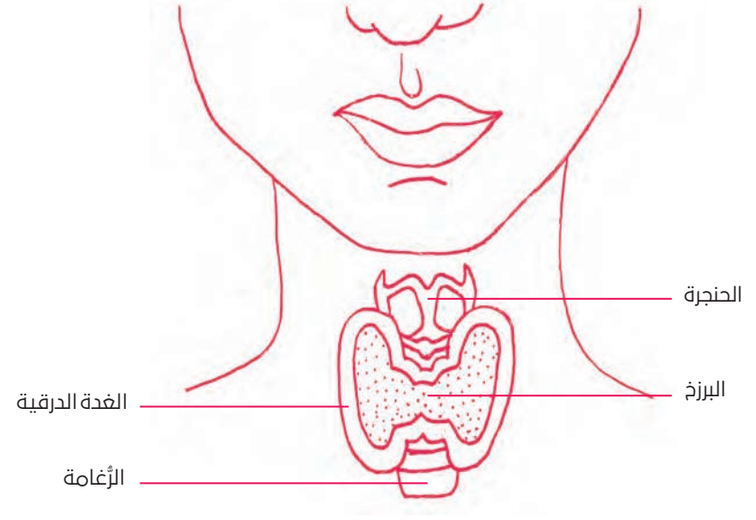

خمسة أمراض تصيب الغدة الدرقية

فرط الدَّرقية: وهو فرط نشاط الغدة الدرقية، حيث إنها تفرز كمية زائدة من الهرمونات، ممّا يؤدي إلى زيادة وتيرة الاستقلاب أو تسريع وظائف الجسم الأساسية (التنفس، الهضم، الدورة الدموية، وظائف الدماغ...). ويتجسّد ذلك في ظهور العديد من الأعراض، التي يسمح حدوثها معًا والربط بينها من وضع التشخيص المناسب. وهي:

- ارتفاع ضغط الدم وزيادة سرعة ضربات القلب،
- فقدان الوزن، على الرغم من الشهية الجيدة، بل وزيادتها،
- التعب الشديد،
- زيادة التعرق، مع ارتفاع درجة حرارة الجسم،
- التهيّج، العصبية، اضطرابات النوم، وارتعاش الأطراف،
- نقص تدفق الدورة الشهرية، أو انقطاعها.

يتمثّل السبب الرئيس في فرط الدرقية في داء غْرَيفز، والذي يصيب فئة النساء الشابات بكثرة. علاوة على الأعراض المذكورة أعلاه، يتجلى هذا المرض بتضخّم الغدة الدرقية وجحوظ العينين (لذا سُمّي أيضًا بالدّراق الجحوظي).
توجد بطبيعة الحال أمراض أخرى تسبب فرط إفراز الغدة الدرقية، من بينها: الورم الحميد السام، ارتفاع مستوى اليود، التسمم الدَّرقي (أخذ هرمونات الدرقية خفيةً لإنقاص الوزن)، والتهابات الدرقيّة التالية للولادة أو الفيروسية.

قصور الدرقية: هو تباطؤ عمل الغدة الدرقية. يصيب قصور الغدة الدرقية النساء بالدرجة الأولى، ويتميز بالأعراض التالية:

- زيادة الوزن، انتفاخ الوجه، جفاف البشرة، وفقدان الشعر،
- بطء القلب (انخفاض معدل دقات القلب)، الإمساك، انخفاض ضغط الدم، انخفاض درجة حرارة الجسم مع عدم تحمل البرد، الاكتئاب.

يندرج قصور الغدة الدرقية غالبًا ضمن أمراض المناعة الذاتية، وهو أكثر شيوعًا لدى النساء فوق الأربعين سنة. من بين مسبّبات قصور الغدة الدرقية داء هاشيموتو، والتهاب الدرقية الضموري، وقد تتراوح أعراضهما بين مجرد الشعور بعدم راحة على مستوى الرقبة وظهور دُرّاق كبير الحجم وصلب وعديد العُقيدات.

تجدر الإشارة إلى أن بعض المناطق في الجزائر تُعدّ مناطق توطّ للمرض (بسبب نقص اليود)، وهي: شرشال، المدية، سطيف، القالة، تلمسان، وعدد من القرى المعزولة في المناطق الداخلية.

العُقيدة الدَّرقية: منتشر انتشارًا واسعًا بين النساء، وهو عادة ورم حميد. العُقيدة الدرقية هي كتلة أو تورّم يتشكل داخل الغدة الدرقية، بدون أعراض وغير مؤلم، وغالبًا ما يُكتشف بالصدفة. في بعض الحالات، من الممكن أن يزداد حجم العُقيدة وتصبح مؤلمة.
يوجد عدة أنواع من العُقيدات:

- العُقيدة المسماة بـ«الباردة»، هي غير نشطة ولا تفرز هرمونات درقية، وهي في 10% من الحالات عبارة عن سرطان الغدة الدرقية،
- العُقيدة «الساخنة» أو النشطة، وتفرز كميّةً كبيرة من الهرمونات الدرقية. هي ورم حميد، لكنها تسبّب فرط الدرقية.

الكيسة الدرقية: وهي كيس يحتوي على سائل أو دم، وقد يكبر حجمه بسرعة ويصبح مؤلمًا.

الدّراق البسيط: يشير هذا المصطلح إلى ضخامة الغدة الدرقية، وهو تضخم حميد، وغير التهابي، ولا يرافقه أي خلل في وظيفة الغدة. كما أنه بدون أعراض، وسببه غالبًا هو نقص اليود في النظام الغذائي.

سرطان الغدة الدرقية: مثل أمراض الغدة الدرقية الأخرى، غالبًا ما يصيب النساء في سن توقف الطمث. ويكون علاجه جراحيًا، إذ يجب إزالة الغدة، ومن ثمّ تناول الهرمونات مدى الحياة. جميع سرطانات الغدة الدرقية تقريبًا هي سرطانات حُليْميّة متمايزة. بصرف النظر عن الأشكال الوراثية أو العائلية، لا توجد عوامل خطر معروفة، أو تدابير وقائية محددة لسرطان الغدة الدرقية. المرض غير مصحوب بأعراض في البداية، ولا يثير انتباه أحد. عندما تنمو العُقيدة السرطانية، تبدأ الأعراض بالظهور: تغير في الصوت، وألم عند البلع، وصعوبة في التنفس، وألم، وشعور بعدم الراحة في الرقبة، وما إلى ذلك.

أسئلة للآخصّائي

الدكتورة هاجر منيا، أخصائية الغدد الصماء والسكري، تجيب عن أسئلتنا.

هل نستطيع العيش بدون الغدة الدرقية؟

لا، لا نستطيع العيش بدون الغدة الدرقية. لذلك، في حالة استئصال الغدة الدرقية بالكامل، يصبح استخدام العلاج ببدائل الهرمونات ضروريًّا للحياة.

ما هي تأثيرات أمراض الغدة الدرقية على الخصوبة والحمل؟

الحمل هو فترة مُجهِدةٌ للغدة الدرقية (زيادة الاحتياجات الهرمونية، استنفاد مخزون اليود...). تتمتع الغدة الدرقية بقدرة كبيرة على التكيف إلا في حالات قليلة محددة، لا سيما نقص اليود أو عندما تكون أنسجة الغدة الدرقية هشّة بالفعل بسبب المناعة الذاتية.

في فترات النشاط الجنسي، يمكن أن تكون الغدة الدرقية مسؤولة عن اضطرابات الخصوبة. حيث تأثر اضطرابات الغدة الدرقية بدون علامات سريرية، والمناعة الذاتية المهاجمة للغدة الدرقية تأثيرًا سلبيًّا على فرص الحمل، وتزيد حدوث حالات الإجهاض. لذلك، من الضروري إجراء فحصٍ كاملٍ للغدة الدرقية في حالة العقم أو الإجهاض التلقائي.

هل ينبغي إجراء تحاليل الغدة الدرقية عند الحمل؟

يُجرى اختبار الغدة الدرقية (الهرمون المنبه للدرقية TSH) على نحو منتظم أثناء الحمل.

هلّا تصفين لنا التهاب الدرقية التالي للولادة باختصار؟

يصيب التهاب الدرقية التالي الولادة 5 % من النساء، ولكن الأعراض يمكن أن تكون خفيفة ولا يلاحظها أحد. بعد الولادة، يحدث تفاقم لظواهر المناعة الذاتية. يظهر التهاب الغدة الدرقية التالي الولادة بعد أسابيع قليلة من الوضع على شكل فرط الدرقية المعتدل والعابر، يليه عودة هرمونات الغدة الدرقية إلى المستويات الطبيعية، ثم مرحلة قد تطول من قصور الغدة الدرقية المصحوب بأعراض إلى حدّ ما.

أنصح بإجراء فحص للكشف عن المرض في حال ظهور أي متلازمة اكتئاب، أو تعبٍ جسديٍّ شديد، أو أي عرض آخر من أعراض خلل الدرقية.

ما هو العلاج باليود؟ وما الذي يميّزه عن العلاج الإشعاعي؟ هل هو متوفّر في الجزائر؟ وما هي كلفته؟

العلاج الإشعاعي هو طريقة علاجٍ موضعيّة للسرطان، حيث يستهدف «الإشعاع» موضع الخلايا السرطانية ويدمّرها، في حين أن العلاج باليود هو علاج يُستخدم فيه «اليود المشع (اليود 131)» الذي يتم تناوله عن طريق الفم على شكل كبسولات، في قسم الطب النووي.

يُستخدم العلاج باليود أساسًا في حالتين:

- **العلاج الجذري بعد استئصال الغدة الدرقية نتيجة إصابتها بالسرطان؛**
- **العلاج الجذري لفرط الدرقية المصاحب لمرض غرَيفز.**

تكون الجرعة أعلى بكثير في حالة سرطان الغدة الدرقية، وتتطلب دخول المستشفى في غرفة معزولة مُبطّنة بالرصاص لمنع تسرب الإشعاعات، على عكس حالة فرط نشاط الغدة الدرقية حيث يمكن للمريض العودة إلى المنزل مباشرة بعد تناول الكبسولة (مع مراعاة بعض الاحتياطات). كما يجب على النساء استعمال وسيلة فعالة لمنع الحمل لمدة 6 إلى 12 شهرًا عند العلاج باليود المشع. ويعدّ الحمل أحد موانع الحصول على هذا العلاج (لذا فإن تحليل هرمون الحمل (bêta-HCG) إلزاميٌّ قبل تناول كبسولة اليود 131 المشع).

للأسف، لا يوجد في الجزائر العديد من مراكز العلاج باليود 131 العمومية. لكن يوجد عددٌ قليلٌ من مراكز الطب النووي الخاصة التي توفر هذا العلاج. تبلغ الأسعار حوالي 25 ألف دينار لفرط نشاط الغدة الدرقية، ونحو 210 ألف دينار لسرطان الغدة الدرقية (تشمل جرعة اليود والمكوث ليومين في غرفة معزولة مُبطّنة بالرصاص).

ما هي فحوصات تشخيص أمراض الغدة الدرقية؟

- توجد فحوصات متنوعة، تتدرج من الإجراء البسيط إلى الإجراءات الباضعة:
- جسُّ الرقبة: هو الفحص الأول، ويتيح تقييم خصائص الغدة الدرقية، وربما البحث عن وجود عُقيدات أو درّاق؛
- الفحوصات البيولوجية: لاسيّما قياس مستوى الهرمونات. ويمكن أيضًا البحث عن أجسام مضادة معيّنة في حال وجود شكّ بإصابة الشخص بقصور الغدة الدرقية المزمن (داء هاشيموتو) أو داء غريفز. علاوةً على التحليل القياسي، يُجرى تحليل العد الدموي لمعرفة إن كان هناك فقر دم، ولقياس نسب اليود، والسكر، والكوليسترول في الدم؛
- تصوير العنق بالموجات فوق الصوتية: يوفّر التصوير معلومات عن وجود أي عُقيدات، وعددها، وحجمها، ومحتواها، وما إلى ذلك؛
- الوخز الخلوي: يُجرى الوخز باستخدام ابرة دقيقة لأخذ عيّنة من خلايا العُقيدة، ويفضل الاستعانة بالتصوير بالموجات فوق الصوتية؛
- التصوير الوَمضاتيّ: هي تقنية تصوير تنطوي على حقن محلول تباينيّ (مشعّ قليلًا) عن طريق الوريد، للكشف عن العُقيدات، أو الدرّاق، أو الكيسات، إن وُجدت؛ كما أنها تؤكد أيضًا نقص أو فرط إفراز هرمونات الغدة الدرقية.

الغدة الدرقية ونقص اليود

يعدّ اليود من المغذيات الدقيقة الضرورية لتصنيع هرمونات الغدة الدرقية، وهو موجود بكميات صغيرة جدًا في الجسم، ويحصل هذا الأخير على باقي احتياجاته من الأغذية. يستحيل على الغدة الدرقية أداء وظيفتها من دون حصولها على اليود.

ويعدّ نقص اليود السبب الرئيسي في العالم (الذي يمكن الوقاية منه) للتخلف العقلي، الذي يتراوح بين القصور الذهني الخفيف والفدامة. والدرّاق (تضخم الغدة الدرقية) هو أحد النتائج الرئيسية لهذا النقص. إلى يومنا هذا، لا تزال هناك مناطق يتوطنها الدراق في الجزائر:القليعة، ومرتفعات جيجل، وسطيف، وجبال المدية، وتيبازة، والمناطق النائية في تلمسان. في هذه المناطق، يعد الفقر، وسوء التغذية، وصعوبة الحصول على أطعمة معينة، السبب في نقص اليود وبالتالي ظهور الدرّاق.

لماذا نضيف اليود في ملح الطعام؟ الملح من المواد الغذائية المستهلكة عالميًا، إذ تستخدمه جميع شرائح المجتمع بانتظام طوال العام. وإضافة اليود إلى الملح لا يغير لونه أو رائحته أو طعمه. في بعض البلدان، يُضاف اليود إلى الحليب أو الماء، ولكن تبقى إضافة اليود إلى الملح الطريقة الأبسط والأنجع لتزويد الناس باليود اللازم لعمل الغدة الدرقية على نحو سليم.

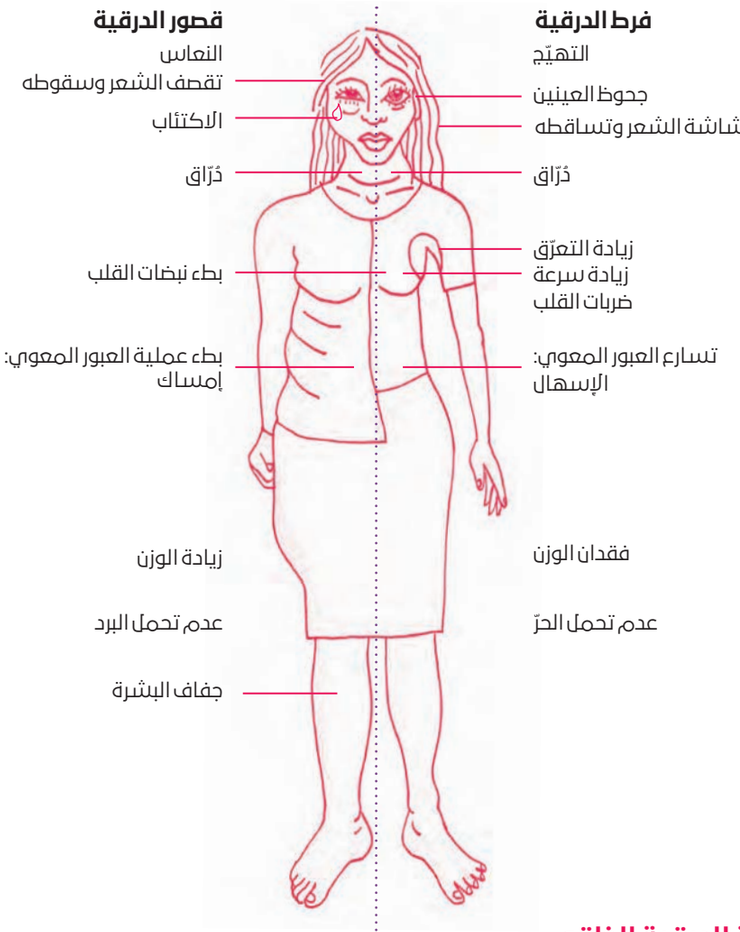

قصور الغدة الدرقية الخلقي

التعريف: نقص إنتاج هرمونات الغدة الدرقية عند حديثي الولادة.

الأعراض: أعراض البداية خفيفة؛ يكون الرضيع كثير النعسان، مع صعوبة في الرضاعة، وإمساك، وجلده يكون مرقّطًا أو مائلًا للاصفرار... إذا لم يُشرع في العلاج في الوقت المناسب، يُصاب الطفل بتأخر في النمو، وانخفاض الوزن مقارنة بالطول، وكذلك تخلف حركي نفسي عام لا يمكن عكسه.

الأسباب: في معظم الحالات، السبب هو تشوه (خلل في تكوين) الغدة الدرقية التي تكون إما في غير موضعها أو لم تنمُ بالشكل الصحيح.

الوقاية: يجب أن يكون فحص الكشف عن المرض منهجيًا، حيث يتم أخذ عينة دم بسيطة من كعب المولود في اليوم الثالث من العمر. إذا كان مستوى هرمون TSH مرتفعًا، فهذا يؤكد تشخيص قصور الغدة الدرقية الخلقي. للأسف، هذا الفحص لا يُجرى في الجزائر.

العلاج: يجب بدأ العلاج بأسرع وقت ممكن (اعتبارًا من اليوم العاشر من العمر). ويتمثل في تعويض العجز الهرموني عن طريق إعطاء هرمون بديل، «ليفوثيروكسين»، يوميًا ومدى الحياة.

واحدة

أخرى*

حوارات

مليكة رحال
آمال زان

* سيرة ذاتية لمايسة باي، صدرت عام 2010

«أفكر في مشاريعي بعقل هندسي، بما أنها تولد في محيطٍ كل شيء فيه متشابك، وتروق لي فكرة التنسيق بين الأشياء. »

حاورتها: هناء مناصرية

آمال زان، مغنية فرضت نفسها منذ سنين على الساحة الفنية الجزائرية. تكتب وتؤدي أغانٍ تروي جزائرها، وتنقل آرائها حول الظلم السائد في البلاد، لا سيما فيما يتعلق بحقوق النساء. في لقاء جمعني بها بمقهى عاصمي، حدثتني بعفويّة عن مسيرتها الفنية، وألبومها الأخير «جسور»، وعن الصعوبات التي تواجه الفنانات في عالم يهيمن عليه الرجال.

يعود لقائك الأول بالموسيقى إلى الطفولة. حدثينا عن ولادة شغفك بهذا الفن...

لقد أدركت، وأنا صغيرة، أنني وُجِدتُ لأغني. وبشهادة والدتي وحاضنتي، كنت أمضي يومي كاملا في الدندنة والغناء. طلبت من أبي أن يسجلني في مدرسة لتعلم الموسيقى، لكن شرشال كانت تفتقد آنذاك لمعهد موسيقي، فانضممت في سن العاشرة إلى «القيصرية»، وهي من الجمعيات الثقافية التي كانت تعطي دروسا في الموسيقى الأندلسية. تعلمت فيها الغناء المنفرد والعزف على آلة القويطرة.

كيف تمكنت من التوفيق بين دراستك وتكوينك الموسيقي ؟

الموسيقى هي شغفي وجزء طبيعي وجوهري من ذاتي، ولا يتطلب مني مجهودات كبيرة. أما بالنسبة للدراسة فقد كان أبي صارما للغاية، حيث إنّه اشترط عليّ التفوّق دراسيا لأتابع تكويني الموسيقي، وكانت هذه «الصفقة» مرهِقة جدًّا للطفلة التي كُنتُها؛ إذ كان ينتابني الهلع أمام احتمال الاستغناء عن الموسيقى، لكن في الوقت نفسه كان ذلك محفزًا لأصير الأفضل. بعد تحصلي على شهادة البكالوريا في عام 2002، انتقلت للعيش في العاصمة حيث صعب علي التوفيق بين دراستي الجامعية في الهندسة ودراسة الموسيقى في شرشال. انضممت في سن التاسعة عشر إلى الجوق الجهوي بالعاصمة الذي كان يديره زروق مقداد، ثم الأوركسترا الوطنية التي كانت تحت إشراف رشيد قرباس. بالتأكيد، الهندسة صعبة جدًّا وتتطلب سهر الليالي للمراجعة، لكنها لم تمنعني من ممارسة الموسيقى.

في الأخير، قررت الخروج من عوالم الموسيقى الأندلسية...

كنت أحب هذه العوالم، لكنني أدركت أنني سأعود إلى الأساسيات وأغير الجو عاجلا أم آجلا. أنا فضولية للغاية، ودائمة البحث عن تجارب جديدة أتعلم منها المزيد. لذلك، قررت مغادرة الموسيقى الأندلسية. وعندما أزمعت المشاركة في حصة «ألحان وشباب»، امتعض مني قائد الجوق الذي لم تعجبه فكرة أن أكتشف عوالم أخرى، بينما كان الأمر بالنسبة لي مرحلةً ضرورية وتحديًّا جديدًا. كنت راغبة في الغناء في سجل موسيقي آخر؛ في التحليق خارج السرب والانعتاق من الإطار الكلاسيكي.

أُخترتِ في 2007 للمشاركة في الطبعة الأولى من مسابقة «ألحان وشباب». كيف عِشتِ هذه التجربة؟ هذا التحرر؟

كنت أطمح في الانفتاح على طبوع موسيقية أخرى، سواءً كانت عالميةً أو جزائريةً (الأغنية الشاوية، القبائلية، الضهري أو الصحراوي). كما كنت أرغب في اكتشاف الموسيقى الغربية والشرقية، لا سيما أن أغلب المشاركين كانوا متأثرين للغاية بهذه الأخيرة؛ مما أثار إعجابي. سمحت «ألحان وشباب» بالتقاء فنانين من آفاق ومرجعيات موسيقية وثقافية مختلفة، وخلقت بذلك ثروة فنية لا يستهان بها. كما أتاحت لي شخصيا، وعمري لم يتجاوز العشرين، التحكم في توتري على الخشبة وأمام الكاميرا. باختصار، كانت هذه الحصة الفرصة التي فتحت لي أبواب اللقاء مع الجمهور. بعدها، دخلت في مرحلة بحث فني عن النفس لاكتشاف هويتي وكتابة أغانيّ الخاصة. كنت على نحو ما المهندسة التي تختبر تصميم الموسيقى. فكرت طويلا في محتوى الأغاني التي سأقدمها؛ أحببت الموسيقى الأندلسية وأداء أغان من التراث، لكني كنت أرغب في الإبداع، مما أدخلني في مرحلة وجودية دامت ستة سنوات، كنت أتساءل فيها عن هويتي.

بالموازاة مع ذلك، تعاونت مع فنانين آخرين، واعتليت الخشبة برفقة مجموعات فنية، مثل «نسمة» و«تريانا الجزائر». استمرّ الحال على هذا النحو، إلى أن أيقظت تجربة شخصية مررت بها الحاجة إلى الكتابة والتأليف الموسيقي، فأصدرت حينها أغنيتي الأولى «ما فيكش النية»، عام 2011.

بعد مرور ستة سنوات من التفكير، هل بلغت أهدافك؟ وما هي المواضيع التي كنت راغبة في تناولها في أغانيك؟

كنت، وما زلت، راغبة في تناول مواضيع عدة، رغم الصعوبات التي أواجهها اليوم. استلهمت في ألبومي الأول من حياتي وتجاربي الشخصية، كما عبرت عن آرائي في مسائل الهوية والتاريخ. أذكر منها أغنية «يِلّيس يوراين» («ابنة ڤورايـة»)، التي خاضت في التصالح مع الذات والتاريخ؛ و«ليّام»، التي تحدثت عن الحنين إلى الطفولة؛ و«يكفي» و«نار الكبدة»، اللتين تناولتا صراع الأجيال. كان هذا الألبوم شخصيا للغاية، ولذلك حمل عنوان «آمال زان». أنا أغني لأكشف عن نفسي، دون حسابات أو اهتمام بما يقال عني. فيما يخص التأليف الموسيقي، فقد جاء بطابع حديث يمزج بين البوب والروك، لكن بصبغة جزائرية أصيلة انعكست على الألحان والإيقاعات.

بالرغم من تكويني الأندلسي، إلّا أنني نشأت في محيط عامر بعشاق الموسيقى، مما سمح لي بالانفتاح على عوالم مختلفة. في المنزل، كان والديّ ينصتان كثيرا للمنوعات الفرنسية وفنانين آخرين، كليندا دي سوزا ومايك برانت ومجموعات كول أند ڤانڤ وآبا... كما كنا نتابع البرامج التلفزيونية، على غرار «الهيت-ماشين»، وكنت أستمع لمغنين مثل البويز-باند وماريا كاري... كبرت إذن في محيط متنوع، خاصّة وأن شرشال كانت مدينة منفتحةً على الثقافة المتوسطية. أتذكر أنه خلال زياراتنا لجدتي في ڤورايا، كانت تردد أغنيات أمازيغية من المنطقة، مثل أغنية «رايدان». أصولي متجذرة في داخلي، ولطالما ساعدني ذلك على استيعاب هويتي والانفتاح على العالم وفهمه.

بالفعل، فقد أثبتِ من خلال أغنية «تلاتة»، وهو نص يعود للقرن الثامن عشر، تشبثك بالأصالة والتراث...

لطالما اهتممت بمسائل التراث الموسيقي بصفتي مغنية، وبالموروث المعماري كوني مهندسة؛ وقد جمعت بين الاثنين في أغنية «تلاتة». كنت أرغب في إطلاق حملة بعنوان «تراث في خطر»، فقمت بتصوير الكليب وسط معالم أثرية مهددة بالزوال، كقصر سانتوجان، الذي استفاد من الترميم بعد مرور سنة. كان هدفي التوعية حول الضرورة المستعجلة للحفاظ على هذا التراث المادي الثمين، على غرار بنايات القصبة وبدلة الشانغاي النسائية (كانت هذه الأخيرة مبادرة تقدمية)، وكذلك التراث غير المادي، عبر إعادة غناء هذا النص بلمستي الخاصة.

كثيرا ما تذكرين الهندسة في أجوبتك وتقارنينها بالموسيقى. إلى أي حد تؤثر آمال المهندسة على آمال المغنية؟ وكيف توفقين بين حياتك امرأةً ومهندسةً وفنانةً؟

إن كان هناك تأثير فهو غير مباشر، بل متصل بالإبداع والتأمل؛ حيث غالبا ما أفكر في مشاريعي بعقل هندسي، بما أنها تولد في محيطٍ كل شيء فيه متشابك، وتروق لي فكرة التنسيق بين الأشياء. أما فيما يخص التوفيق بين حياتي امرأةً ومهندسة وفنانةً، فأتوصل إلى ذلك بالفطرة دون بذل جهود كبيرة. اشتغلت لمدة سبعة سنوات مهندسة لكنني اضطررت للتوقف، إذ كان من الصعب العمل في الميدانين معا، لا سيما أنني أيقنت دومًا باستحالة التوقف عن الغناء. في عام 2015، اتخذت قرارًا حاسمًا، وهو ترك الهندسة والتفرغ كليًّا للموسيقى. كانت مجازفة ضرورية لتحقيق ذاتي كفنانة، بالرغم من خطورة الخروج من منطقة الأمان ومحاولة العيش من الفن في الجزائر. لكنني كنت بأمس الحاجة لذلك.

حدثينا عن ألبومك الأخير «جسور»...

هو ألبوم يحاكي الثروة والتنوع الثقافيين في الجزائر والعالم. هو عبارة عن جسور تصل بيننا نحن الجزائريّون وبين باقي العالم. خضت في مواضيع مختلفة كانشغالات الشبيبة الجزائرية، ووضعية النساء، وخطورة التطرف الديني، وأهمية التسامح... رويت فيه تجاربي الخاصة وحكايات أناس آخرين، وكان مناسبة للعمل مع كل الأشخاص الذين التقيت بهم خلال مساري الفني، ومنهم عدة موسيقيين من شتى الجنسيات. أما بالنسبة للنصوص، فقد كتبتها دون حواجز أو رقابة ذاتية. في تلك الفترة، كنت راغبة في الخوض في عدة مواضيع، وصار ذهني شبيهًا بمحطة كهربائية تشابكت فيها أحاسيس متناقضة، كالغضب والحنان، وكان علي خلق الانسجام بينها. لذلك جاء الألبوم في طابع موسيقى الروك. ألّفت «جسور» قبل خمس سنوات من الحراك، وكان بمثابة التنبؤ بهذا الحدث التاريخي، الذي تمنيت اندلاعه في الجزائر.

لقد أدت الأزمة الصحية الفارطة في تعطيل جميع القطاعات ومنها الثقافة. لكننا اليوم، بالرغم من العودة إلى حياة طبيعية، نشهد ندرة كبيرة في الحفلات الموسيقية، واختفاء معظم المهرجانات المخصصة لهذا الفن. ما هي الأسباب برأيك؟

لا نمتلك صناعة موسيقية في الجزائر، ولا فرق انتاج ولا مديرين فنيين ولا هياكل مخصصة لهذا الفن. أظن أن كل هذا ناجمٌ عن إرادة سياسية تقيد الثقافة وتكمم أفواه الفنانين، وطالما لم نتحرر من هذه الأغلال فلن يتغير الوضع. بالرغم من وجود دائرة إنتاجية لبعض الأنواع الموسيقية، كالزنقاوي والراي والراب، إلا أنها غير كافية، ومن الضروري دمقرطة الإنتاج الموسيقي. أما بالنسبة للحفلات الموسيقية، فغيابها يؤثر علينا جميعا؛ لكنني شخصيا لا أرغب في اعتلاء الخشبة دون حرية تعبير.

«أغني لأكشف عن نفسي، دون حسابات أو اهتمام بما يقال عني»

تكافح الفنانات في العالم من أجل المساواة بين النساء والرجال. في الجزائر، هل من السهل أن تفرض امرأة نفسها بوصفها موسيقيةً ومغنيةً في عالم يهيمن عليه الرجال؟

من الصعب أن تفرض نفسك بوصفك فنانًا في الجزائر، وتتضاعف هذه الصعوبة إن كنت امرأة؛ فالغالبية لا تحب رؤية نساء رائدات في مجالهن، خصوصا وأن الساحة الفنية، الجزائرية أو الدولية، لا تزال تحت هيمنة الرجال، وغالبا ما يمتعض هؤلاء (موسيقيون، منتجون...) من أن تسيرهم امرأة. يجب التذكير أنه باستثناء فرق الموسيقى الأندلسية أو الفنانين الشباب الموجودين على مواقع التواصل الاجتماعي، نسبة الموسيقيين الرجال أكبر بكثير من النساء، وهن تواجهن عدة صعوبات لكسب الاحترام في محيط تسيطر عليه الذكورية. وهو ما عشته شخصيا في تعاملي مع الرجال، سواء على الخشبة أو في الكواليس.

بالإضافة إلى نشاطك مغنيةً ناجحةً، تناضلين من أجل حرية التعبير وحقوق الانسان. برأيك، ما هي التغييرات التي يجب فرضها لترقية حقوق النساء؟

من الضروري إعادة الاعتبار للمرأة بوصفها انسانًا وعضوةً فاعلة في المجتمع. يجب الكف عن بعض الخطابات التي تنتقص من قيمتها وترسمها على هيئة كائن ضعيف بحاجة للحماية. الحماية الوحيدة

التي تحتاج إليها هي القانون، القضاء على التمييز الجندري، وإلغاء قانون الأسرة. منذ بداية الأزمة الصحية، تضاعف العنف وجرائم قتل النساء، وقد نكّرنا اغتيال ريمة حرقا بتيزي وزو في أكتوبر/ تشرين الأول الفارط بمقتل شيماء وأخريات كثيرات. الكل مسؤول عن هذه الظاهرة، ومن الضروري اتخاذ إجراءات صارمة للحد منها. يحتوي ألبوم «جسور» على أغنية عنوانها «شكون انتا»، تتناول مسألة النساء ومخاطر التطرف الديني والنظام الأبوي، وتذكّر ببعض الممارسات الدخيلة التي خلفتها الصدمات التي عشناها، كالعشرية السوداء، وببعض التقاليد البالية، التي يجب الاستغناء عنها. هل نرغب في جزائر تقدمية أم في التقهقر؟

كيف ومتى أدركت رغبتك في الدفاع عن حقوق النساء؟ هل كان ذلك نتيجة حدث معين؟

لا، بل جاء الأمر تلقائيا؛ كردة فعل طبيعية وكغريزة بقاء. فهمت مبكرًا التهميش والتمييز الجنسي الممارسين علينا منذ الطفولة، سواءً في الوسط العائلي أو الاجتماعي. يزداد هذا الوعي مع التقدم في السن، ويفرض سؤال نفسه علينا: هل سنستمر في الصمت أم سنكافح لإنهاء الظلم؛ ليس فقط لأجلنا بل لأجل بناتنا والأجيال القادمة؟ كان الخيار طبيعيا بالنسبة لي؛ إذ لا يمكنني السكوت عن الظلم أيًا كان.

برأيك، ما هي المراحل الأساسية التي يجب المرور بها على أرض الواقع لإنهاء الظلم الممارس على النساء؟

الاستمرار في النضال من أجل تغييرٍ سياسيٍّ ملموسٍ، وإعادة الاعتبار للمرأة بوصفها مواطنةً كاملة الحقوق. وفيما يخصني، الغناء والتعبير عن هذه الانشغالات بكل حرية. يجب علينا جميعًا أن نساهم، كلٌّ في مجاله، في إيقاظ الضمائر، لأنّ الصمت فتاكٌ. ينتقد الكثيرون الحركة النسوية ويعتبرونها ملوّثة لصورة النساء الجزائريات وسلوكياتهن، بيد أنّ مسألة حقوق المرأة هي مسألة حقوق الإنسان، لا أكثر ولا أقل. هدفنا هو العيش في مجتمعٍ مزدهرٍ ومتكافئ، ولا يزال النضال طويلا .

تصوير: ليديا سعيدي

نتي قدامي

تاريخ النضال

وأنا موراك*

* تحوير عنوان أغنية للشيخة ريميتي «نتا قدامي وأنا موراك» – «تسير أمامي وأنا أتبعك»

8 مارس 1965 مسيرة في تاريخ الجزائريات

ناتاليا بن خالد-فينس

في بداية الثمانينيّات، أدلت النائبة باية حسين بكلمة في المجلس الشعبي الوطني، لتعبر عن رفضها للنص الذي كان سيصير في عام 1984 قانون الأسرة. بعد مرور عشرين سنة، عثرنا على شهادة تصف ردود الفعل التي لاقت خطابها، حيث «انهال يومها على باية حسين، المجاهدة التي حُكم عليها بالإعدام أثناء الثورة التحريرية وعمرها لم يتجاوز السابعة عشرة(...)، وابل من التصفير والسخرية والشتم من رجال لم يشارك أحدهم في الثورة».

في الجزائر، لا نتذكر المجاهدات إلا بصفتهن بطلات للكفاح الوطني، حتى وإن شاركن في نضالات أخرى بعد الاستقلال؛ فنادرًا ما نجد آثار تاريخهن بعد 1962، وكثيرا ما يقال لنا باختصار أنهن «عدن إلى المطبخ» غداة الحرب. والسبب أنه غالبا ما يحدث خلط بين عدم انضمامهن للاتحاد الوطني للنساء الجزائريات (UNFA)، وهو تنظيم جماهيري ما لبث أن اتسم بصبغةٍ رسمية، واهتمامهن بقضايا النساء. لا نسائل بما فيه الكفاية عودة العديد منهنّ إلى «المطبخ» في ظل الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن حرب دامت ثماني سنوات: أي استراتيجيات اتخذن في كنف عائلاتهن؟ وفيما يخصّ اللواتي كن يعملن، كيف فرضن أنفسهن في فضاءات غالبًا ما يهيمن عليها الرجال؟ نادرًا ما ننظر إلى هذه السرديات بوصفها جزءًا من تاريخ الجزائر ومن تاريخ الحركة النسوية. وهي مسألة لا تخص الجزائر فحسب، كما كتبت المؤرخة والمناضلة النسوية جيردا لورنر (Gerda Lerner): «لقد ساهم جهل النساء بتاريخ نضالهن وانتصاراتهن في إبقائهن تحت الوصاية (...) لقد قيل للنساء أن لا تاريخ لهن، وصدقن ذلك».

ولأن نصف الإنسانية قد حرِمَ من ذاكرته، تتخذ الأجيال الجديدة للحركة النسوية موقفًا مناهضًا لجيل النسويّات السابق لهنّ، أو تجهلن وجوده. ولتفادي هذا الركود في «سنة صفر» لا نهاية لها، يلزم للنساء اكتشاف تاريخ للحركة النسوية يأخذ بعين الاعتبار مختلف التجارب النسائية، حسب هويتها الجغرافية والزمنية، مع الاحتفاظ بالروابط التي تجمعها بالتجربة الإنسانية المشتركة بين جميع النساء.

وفيما يلي بعض العناصر لتاريخ يعود إلى عام 1965، بمناسبة اليوم العالمي لحقوق النساء، بضعة أشهر قبل الانقلاب على أحمد بن بلة، أول رئيس للجزائر المستقلة.

أُخِذَ المقال التالي من نص طويل نُشر في مدونة Texture du temps («نسيج الزمن») للمؤرخة مليكة رحال بتاريخ 7 مارس/آذار 2019 تحت عنوان «النساء في الشارع، مكانة 8 مارس في تاريخ الجزائر المستقلة المديد».

لطالما احتفلت الدولة الجزائرية بيوم 8 مارس/آذار، مما يدل على احتفاء شرعي بكل النساء اللواتي شاركن في الكفاح وتظاهرن وأيدن بشتى الوسائل الحرب التحريرية. كما رغب المتحكمون في زمام السلطة الظهور بمظهر المدافعين الأمثل عن حقوق النساء. ذلك أنّ المرأة الجزائرية كانت محل صراع بين جبهة التحرير الوطني من جهة، والدولة والجيش الفرنسيين من جهة أخرى، وكان كل منهما يزايد في الخطابات الموجهة للمجتمع الدولي وللنساء الجزائريات حول التزامه بالدفاع عن حقوقهن. فكان من الطبيعي أن تحتفل الدولة الجزائرية المستقلة بيوم الثامن مارس وتسلط الضوء على المجاهدات، بالرغم من أن معظمهن لم يلبثن أن رفضن إضفاء هذه الشرعية التقدمية على نظام الحكم.

لا نعرف إلى اليوم إن وُجد حقا لدى السلطة وباقي المجتمع اهتمام فعليّ باليوم العالمي لحقوق النساء. روت لي زهور زراري، وهي أولى صحفيات الجزائر المستقلة، أنها أرادت في عام 1963 كتابة مقال حول كيفية الاحتفال بالثامن من مارس/آذار في دول الاتحاد السوفياتي، لكن رئيس تحرير الجريدة الكبرى التي كانت تعمل بها لم يُبد أي اهتمام بالموضوع. وتروي زراري أنه من شدة غضبها، مزقت المقال وصفعت رئيس التحرير وغادرت الجريدة نهائيا. بعد مرور سنتين، طلبت جبهة التحرير الوطني من زهور زراري المشاركة في تنظيم مسيرة 8 مارس 1965 بالجزائر العاصمة. وقد دخلت هذه المظاهرة حيز الأسطورة بالنسبة للعديد من النساء (في 1997، كتبت كاثرين ليفي، التي شاركت في المظاهرة، واحدًا من المقالات النوادر حول هذا الحدث)، إلّا أنّ أغلب النساء لسْن على دراية بهذه المسيرة، ولذلك وجبت العودة إليها.

في مارس/آذار 1965، لم تمر بعد ثلاث سنوات على استقلال الجزائر، ولربما لأن البلاد تنطلق من نقطة الصفر ولأنها في مرحلة تشييد، كانت بحاجة لرؤية صارمة. تقول كاثرين ليفي أن نساء الجزائر العاصمة قد طفح بهن الكيل، حيال العمل بأجر زهيد والبطالة وقلة التكوين والرقابة الاجتماعية التي يمارسها الإخوة والأزواج.

كانت نقطة انطلاق المظاهرة ساحة أول ماي لتعبر شارع زيغود يوسف وتنتهي في حي باب الواد، وهو مسار يمر على جزء كبير من المدينة. شاركت الآلاف من النساء في المسيرة، بعضهن خرج «بهيئة أوروبية» (كما كان يقال آنذاك)، وبعضهن اكتسين الحايك. شهدت المظاهرة مشاركة عضوات من الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات وطالبات وعاملات تنظيف، وكانت الشعارات تعبر عن تضامن النساء الجزائريات مع أخواتهن في الكفاح بأنغولا وإيريتريا، وفي أماكن أخرى من العالم. ثم فجأة، سُمعت «شعارات تلقائية، كانت في البداية مغمورة بمكبرات الصوت على رأس المسيرة إلى أن رددتها جل النساء الحاضرات، فغطت بدورها على الشعارات الرسمية. وطالبت هذه الشعارات بالمساواة والعمل وحقوق النساء، باللغة الدارجة أو الفرنسية، ومن بينها عبارات موجهة إلى الرجال: "ادخلوا إلى المطبخ واتركوا لنا السياسة"، "ابقوا في المنزل واعتنوا بالأطفال، أما نحن فسنعتني بأنفسنا". انهال وابل من الألقاب والزغاريد على المارين أمام وزارتي الفلاحة والصحة، وقامت مجموعة من النساء بقطع الطريق أمام الحافلات والسيارات، مما سبب هلعًا لدى بعض الراكبين الرجال الذين لاذوا بالفرار».

رفضت النساء الاكتفاء بالشعارات الرسمية، وقررن استرجاع الشارع وتاريخ الثامن مارس. انتهت المسيرة في قاعة سينما «ماجستيك» بباب الواد، وهو فضاء شهد أحداثًا سياسيةً حاسمةً في تاريخ الجزائر المستقلة. تروي زهور زراري أنها دعت الرئيس بن بلة للقدوم لمحاورة النساء، وكان جوابه في البدء «هل هناك جمهور غفير؟» (مما يتطابق وشخصية بن بلة الشعبوية). نعم كان هناك جمهور غفير، ولم يقتصر قدوم الرئيس على ربع ساعة من الحفاوة الشعبية كما كان مسطرًا. وقد نقلت صحيفة Alger le soir («مساء الجزائر») أنه صرح يومها: «عليكن اتخاذ مسؤولياتكن حيال الوطن. أود أن يكون يومكن هذا يوم حشد لتقوية الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات ليرقي إلى مستوى حزبنا الطلائعي الذي يبقى مفتوحا أمامكن ومستعدًا لدعمكن». كان نص الخطاب قد وُزّعَ على الصحفيين، لكن بن بلة ما لبث وأن خرج عن النص وذهب به الحماس للهتاف: «انتزعن حقوقكن!»، كما تروي لنا زهور زراري التي استدعاها الرئيس في اليوم التالي للتأكيد على رغبته في مساندة النساء لتحسين وضعيتهن. في الوقت نفسه، تروي كاثرين ليفي أن عددًا من النساء اللواتي طلقهن أو ضربهن أزواجهن بسبب مشاركتهن في المسيرة، بدأن في التوافد على مركز الاتحاد الوطني للعمال الجزائريين بباب الواد. لن نعرف أبدًا ما الذي عزم (أم لا) بن بلة القيام به من أجل النساء، بما أنه أُزيح من الحكم بعد ثلاثة أشهر فقط.

في 22 أوت/آب 1965، صرح الرئيس الجديد هواري بومدين بمناسبة تدشين المتحف الوطني للثورة، أنه يرى المرأة الجزائرية كتلك الأخت المحاربة في الجبال بجانب إخوتها، وليست تلك المرأة «التي تراود الماجستيك وساحة الشهداء لإطلاق الزغاريد».

1. من مقال حسن زروقي في جريدة «لومانيتي»، 18 جوان/حزيران 2004.

2. Gerda Lerner, *The Creation of Patriarchy*, 1986

3. خلال السنوات الأخيرة، صارت هذه «المعركة لكسب العقول والقلوب» محل دراسات عديدة:

Neil Macmaster (2009) *Burning the Veil: The Algerian war and the 'emanicipation' of Muslim women*, 1954-62. Manchester: Manchester University Press ; Ryme Seferdjeli (2005) *The French Army and Muslim Women during the* Algerian *War*. *Hawwa* 3(1), 40-79 ; Diane Sambron (2007) *Femmes musulmanes, guerre d'Algérie 1954-1962*. Paris: Autrement ; Elizabeth Perego (2015) *The veil or a brother's life: French manipulations of Muslim women's images during the Algerian War, 1954-62. Journal of North African Studies, .20(3), 349-373*

4. حوار مع الكاتبة، 21 ديسمبر/كانون الأول 2005. الاطلاع كذلك على:

Djamila Amrane (1991) *Les Femmes algériennes dans la guerre*. Paris Plon ; Malika El Korso (1996) *Une double réalité pour un même vécu*. Confluences Méditerranée (17), 99-108 ; Natalya Vince, *Our Fighting Sisters: Nation, Memory and Gender in Algeria, 1954-2012*. Manchester: Manchester .University Press

5. Catherine Levy (1997). *La journée du 8 mars 1965 à Alger*. Clio. Histoire, femmes et société.

6. ليفي، المرجع السابق.

7. جريدة Alger ce soir («مساء الجزائر»)، 10 مارس/آذار 1965.

8. خطاب 20 أوت/آب 1965، «خطابات الرئيس، 19 جوان 1965-19 جوان 1970»، قسنطينة، وزارة الإعلام والثقافة، 1970، ص47-48.

أرشيف

الصفحة الأولى من أسبوعية «الشباب»، العدد 19، 14 مارس/آذار 1965. مكتبة فرانز فانون، الجزائر العاصمة.

٨ مارس

احتفلت المرأة فى جميع أنحاء العالم بيوم الثامن من مارس الذى يعتبر الشرارة الأولى التى انطلقت لتعلن عن بدء كفاح طويل لايزال مستمرا حتى يومنا هذا ، وقد احتفلت المرأة الجزائرية كبقية نساء العالم بهذا اليوم لتعبر عن تضامنها مع نساء العالم، وقد نظمت مهرجانات فى جميع أنحاء البلاد احتفاءا بهذا اليوم ، تشارك فيها آلاف من النساء الجزائريات وتشاهدت شوارع العاصمة جموع النساء اللائى كن يحملن لافتات تعبر عن ارادتهن فى السير جنبا الى جنب مع الرجل لبناء مجتمعنا الاشتراكى التقدمى ، والقضاء على الرواسب الاجتماعية التى لاتزال تحد من نشاط المرأة فى جميع الميادين .

وقد تشارك فى هذه المهرجانات والمظاهرات مناضلات بهدف نساء فلسطين والكونغو والبرتغال واسبانيا الخ ...

وألقى الاخ أحمد بن بلة كلمة حيا فيها المرأة الجزائرية وأكد من جديد تضامن الجزائر مع الشعوب التى لاتزال تكافح فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وقد قال بالخصوص موجها كلامه للمرأة الجزائرية « وانى لأجد سعيد بمساهدة اللافتات التى تطالب بمساهمة المرأة فى الحزب . وانا أعلن على يقين أن الرجال لن يمنحكن أبدا الحقوق طواعية واختيارا ولن تتوصلن للحصول عليها الا بكفاحكن وحده وأؤكد انه لن تكون ابدا اشتراكية بدون مساهمة المرأة »

لمحة تاريخية عن كفاح المرأة :

فى يوم ٨ مارس من سنة ١٨٥٧ وفى مدينة نيويورك بالولايات المتحدة خرجت مظاهرة نسائية لاول مرة فى التاريخ تطالب بحقوق المرأة ، ومساواتها بالرجل ، وتخفيض ساعات العمل وقد كانت هذه المظاهرة ، التى قامت بها عاملات مصانع النسيج فى نيويورك هى الشرارة الاولى فى تاريخ كفاح المرأة من أجل المساواة والعدالة الاجتماعية وقد قوبلت هذه المظاهرة من طرف السلطات بوسائل العنف التى أدت الى سقوط أولى ضحايا المرأة فى كفاحها من أجل الحصول على حقوقها ومساواتها بالرجل فى جميع الميادين . ولكن العنف الذى قوبلت به أولى مظاهرات المرأة لم يستطع أن يوقف الحركة النسائية سواء فى الولايات المتحدة أو فى غيرها من بلدان العالم .

ففى سنة ١٩١٠ بعد مضى ثلاثة وخمسين عاما على مظاهرة نيويورك كان ظهور المرأة على المسرح السياسى بعقد مؤتمر فى مدينة كوبنهاغ للحركة النسائية الاشتراكية ، وقد كان هذا المؤتمر ذكرى لضحايا المظاهرة الاولى ، وفى هذا المؤتمر وقع الاختيار على يوم ٨ مارس ليكون يوم المرأة فى جميع انحاء العالم .

وابتداءا من سنة ١٩١١ بدأت حركة التضامن بين نساء العالم تتسع حتى شملت الكثير من بلدان العالم ، فكانت عدة مظاهرات فى برلين والولايات المتحدة .

المرأة الجزائرية تتبوأ

وما أن طلعت سنة ١٩١٢ حتى تساهد العالم المرأة فى روسيا القيصرية تقوم بمظاهرات سلمية ضد الحرب التى كانت على الابواب ، ثم تلى ذلك مظاهرات اخرى فى باريس تطالب باطلاق سراح روزا لكسمبورغ المعتقلة فى المانيا .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى تبلورت قضية المرأة بشكل أكثر جعلت الرجل يقر شيئا فشيئا نظرته السابقة الى المرأة وقد حصل هذا الاقر لعدة أسباب منها أن المرأة أظهرت أنها قادرة على تأدية مختلف الاعمال التى كان تقوم بها الرجل فى مختلف القطاعات ، سواء فى الميدان الصناعى ، او الزراعى ، فقد استخدمت المرأة فى المصانع الحربية ، وغير الحربية ، كما انها قامت بجميع الاعمال فى المزارع التى تركها الرجال عندما ذهبوا الى ميدان القتال ، وعندما رجع الرجل من الحرب وجد المزرعة التى تركها لازالت تنتج وان المرأة قامت بجميع الاعمال الشاقة التى كان يقوم بها .

ولم تتوقف الحركة النسائية بعد انتهاء الحرب بل على العكس اصبحت المطالب التى تنادى بها ضرورة ملحة يجب ان تتحقق حتى يمكن ان تشارك المرأة مشاركة فعالة فى بناء المجتمع الانسانى .

فى ٨ مارس ١٩٢٣ و ٨ مارس ١٩٢٦ حصلت مظاهرات نسائية اخرى فى مدريد ضد الحرب والفاشية ثم كان اجتماع الفيدرالية العالمية للمرأة سنة ١٩٤٥ التى جعلت يوم ٨ مارس يوما رسميا تحتفل به المرأة فى جميع انحاء العالم .

كفاح المرأة الجزائرية :

ان احتفال المرأة الجزائرية باليوم العالمى للمرأة ، قد كان عبارة عن مظاهرة رائعة عبرت فيها المرأة عندنا عن تضامنها مع نساء العالم ، وخاصة مع المرأة التى لاتزال تكافح ضمن الكفاح البطولى التى تخوضه الشعوب فى افريقيا واسيا وأمريكا اللاتينية ضد الامبريالية والاستعمار ومن أجل الحرية والاستقلال الوطنى .

وتاريخ المرأة الجزائرية لايقل بطولة وشجاعة عن تاريخ الرجل لقد شاركت المرأة عندنا فى الكفاح البطولى الذى خاضه شعبنا طوال ١٣٠ سنة ، ولم تتأخر عن تقديم التضحيات التى فرضتها ظروف الكفاح ، سواء فى الماضى أو فى الحاضر ، وأظهرت للعالم اجمع أنها امرأة عظيمة بكل ما فى الكلمة من معنى ، ولهذا لايمكن أن نعتبر يوم ٨ مارس هو مظاهرة للمطالبة بحقوق المرأة وذلك لان المرأة الجزائرية قد أخذت حريتها بنفسها ، وانها فرضت نفسها رغم الظروف الاجتماعية ، والتقاليد التى كانت تكبلها ، أى انها حصلت على حريتها أثناء الفترات العصيبة من تاريخها الحديث .

وقضية حرية المرأة عندنا لا يمكن أن نطرح بالشكل الذى طرحت به ، وان هذا الشكل قد تجاوزته الظروف والاحداث وانها يجب أن نطرح بشكل آخر وهو كيفية مشاركتها فى البناء الاشتراكى ، والميادين التى يمكن أن تنتج فيها احسن من غيرها .

ان التضحيات التى قدمتها المرأة الجزائرية لا تعد ولا تحصى منذ الاحتلال الى الآن ، واذا اردنا أن نقيم التضحيات والشجاعة القادرة التى اظهرتها فاننا سوف نجد آلاف الامثلة .

ويكفى أن أذكر أنه بلغت بها التضحية والشعور بالواجب الوطنى الى حدالانتقام والاقتصاص من أقرب الناس اليها . ففى أثناء الثورة التى استمرت أكثر من عشرين عاما . فى الجنوب الجزائرى ، والتى كانت تقوم بها قبائل أولاد سيدى الشيخ ، كان عميل من عملاء الاستعمار فى ذلك الوقت ، يدعى حمزة بوبكر يساعد جيش الاحتلال على قهر الثورة والقضاء عليها ، ولم يستطع احد أن يتوصل اليه لانه كان يتمتع بحماية الجيش الاستعمارى فما كان من زوجته الا ان نفذت فيه حكم الاعدام وقتلته انتقاما للشعب المكافح الذى لم يرض بالاجنبى .

اما تاريخ السبع سنوات من الحرب والتضحيات العظيمة التى قدمتها فلها لا نقل على التضحيات التى قدمها الرجل من ناحيته .

ان بطولة وشجاعة المرأة فى الحرب التحريرية بلغت فى بعض الاحيان حد الاسطورة .

ويوم ٨ مارس الذى خرجت فيه المرأة الجزائرية لتعبر عن تضامنها مع نساء العالم . مع المرة الفلسطينية التى شردها الاستعمار والصهيونية من بلدها وبيتها ، والتى تكافح اليوم من أجل استرداد بيتها ووطنها السليب .

وهو تضامن ايضا مع المرأة الافريقية فى الكونغو وجنوب افريقيا وانغولا، ومع نساء أمريكا اللاتينية وتضامن المرأة الجزائرية مع نساء العالم الثالث هو عبارة عن تضامن كل الشعب الجزائرى مع الشعوب التى لاتزال تكافح ضد الاستعمار والصهيونية ، والتمييز العنصرى ، والحكم الفاشى .

الاتحاد الوطنى للنساء والمرحلة الجديدة :

ان الاتحاد الوطنى للنساء الذى ولد كبقية المنظمات الاخرى ، مثل اتحاد العمال ، اثناء حرب التحرير يتحمل اليوم مسؤولية كبرى فى النهوض بالمرأة الجزائرية، فاذا كانت ولادته بالامس ضرورة من الضرورات التى فرضتها المعركة فانه اليوم اداة من أدوات البناء والتشييد لقد قام الاتحاد النسائى فى الماضى بقسطه الوافر من تجمل أعباء الكفاح ، والتعريف بالمرأة الجزائرية من خلال المؤتمرات العالمية ، وبالقضية العادلة التى كان يكافح من أجلها شعبنا ، ومع المرحلة الجديدة لثورتنا الاشتراكية بعد الاستقلال والتحول الاجتماعى الجديد الذى تعيشه بلادنا اليوم ، والذى يتطلب ، من جميع قطاعات المجتمع أن تشارك فى انجازه ، والقضاء على الصعوبات التى يمكن أن تعترض هذا التحول .

والمرأة عندنا هى احدى القطاعات الهامة التى يتكون منها المجتمع والتى لا يمكن أن يتحقق أى شىء بدون مشاركتها ، نقول فى هذه المرحلة الجديدة ، يجب أن يتكيف مع الظروف الجديدة ، وأن يكون منظمة تعبر حقيقة عن آمالى وآمال المرأة الجزائرية . يجب عليه الآن وهو يخطو خطوته الاولى نحو المستقبل أن ينظر الى الوراء وان يدرس الخطوات التى قطعها ، وان يحاول أن يصحح الاخطاء التى قد تكون حصلت خلال تاريخه القصير نتيجة لظروف قد تكون خارجة عن طاقته ، والاخطاء يمكن ن تتحول الى تجارب يستفيد منها ، فالتجربة والخطأ من صميم أى عمل .

والاتحاد الوطنى للنساء يتمتع اليوم بامكانيات لم تكن موجودة فى الماضى ، وكل الابواب فتحت امامه ليقوم بواجبه فى المهمة الصعبة التى يقوم بها الحزب ، يجب أن يرتفع الى مستوى التضحيات العظيمة التى قدمتها المرأة الجزائرية بالامس فى ميدان الكفاح .

وهناك مجالات واسعة للنشاط يستطيع من خلالها ان يشارك فى البناء ، وخاصة فى الميدان الاجتماعى والثقافى ، فمن خلالها يستطيع أن يساعد المرأة الجزائرية التى حرمت من الثقافة والمعرفة مدة طويلة من الزمن ، على الاخذ باسباب الثقافة والحضارة حتى تستطيع هذه المرأة أن تتخلص نهائيا من الرواسب الاجتماعية التى تكبلها ، ولكى تكون عضوا عاملا منتجا فى الهيكل الاجتماعى ، وحتى تستطيع ان تنفتح على العالم الخارجى وان تشارك فى التقدم الحضارى والانسانى فى العالم .

الاحد ١٤ مارس ١٩٦٥

مقال في جريدة «الشعب»، العدد 19، 14 مارس/آذار 1965. مكتبة فرانز فانون، الجزائر العاصمة.

اليوم العالمى للمرأة

ابن ضالها دتضحياتها

الحاضر ، وأظهرت للعالم اجمع أنها امرأة عظيمة بكل ما فى الكلمة من معنى ، ولهذا لايمكن أن نعتبر يوم ٨ مارس هو مظاهرة للمطالبة بحقوق المرأة وذلك لان المرأة الجزائرية قد أخذت حريتها بنفسها ، وانها فرضت نفسها رغم الظروف الاجتماعية ، والتقاليد التى كانت تكبلها ، أى انها حصلت على حريتها أثناء الفترات العصيبة من تاريخها الحديث .

وقضية حرية المرأة عندنا لا يمكن أن نطرح بالشكل الذى طرحت به ، وان هذا الشكل قد تجاوزته الظروف والاحداث وانها يجب أن نطرح بشكل آخر وهو كيفية مشاركتها فى البناء الاشتراكى ، والميادين التى يمكن أن تنتج فيها احسن من غيرها .

ان التضحيات التى قدمتها المرأة الجزائرية لا تعد ولا تحصى منذ الاحتلال الى الآن ، واذا اردنا

دور المرأة فى المجتمع

ان نقيم التضحيات والشجاعة القادرة التى اظهرتها فاننا سوف نجد آلاف الامثلة .

ويكفى أن أذكر أنه بلغت بها التضحية والشعور بالواجب الوطنى الى حدالانتقام والاقتصاص من أقرب الناس اليها . ففى أثناء الثورة التى استمرت أكثر من عشرين عاما . فى الجنوب الجزائرى ، والتى كانت تقوم بها قبائل أولاد سيدى الشيخ ، كان عميل من عملاء الاستعمار فى ذلك الوقت ، يدعى حمزة بوبكر يساعد جيش الاحتلال على قهر الثورة والقضاء عليها ، ولم يستطع احد أن يتوصل اليه لانه كان يتمتع بحماية الجيش الاستعمارى فما كان من زوجته الا ان نفذت فيه حكم الاعدام وقتلته انتقاما للشعب المكافح الذى لم يرض بالاجنبى .

اما تاريخ السبع سنوات من الحرب والتضحيات العظيمة التى قدمتها فلها لا نقل على التضحيات التى قدمها الرجل من ناحيته .

ان بطولة وشجاعة المرأة فى الحرب التحريرية بلغت فى بعض الاحيان حد الاسطورة .

ويوم ٨ مارس الذى خرجت فيه المرأة الجزائرية لتعبر عن تضامنها مع نساء العالم . مع المرة الفلسطينية التى شردها الاستعمار والصهيونية من بلدها وبيتها ، والتى تكافح اليوم من أجل استرداد بيتها ووطنها السليب .

مهرجانات نسائية ضخمة في جميع أنحاء البلاد احتفاء بيوم المرأة العالمي

الشعب
يومية وطنية اجتماعية
الثلاثاء
7 ذو القعدة 1384 هـ
الموافق 9 مارس 1965 م
السنة الثالثة ـ العدد 690
Mardi 9 Mars 1965
3e ANNEE N° 690
حكومتنا تدرس الوضع الناتج عن قرار بون الخاص بالاعتراف باسرائيل

عشر قرارات يتخذها مجلس منظمة الوحدة

الآخ احمد بن بلة يقول في المهرجان الكبير الذي اقيم بسينما الماجيستيك بالعاصمة

المرأة الجزائرية أخذت مسؤولياتها ابان معركة التحرير ويجب أن تأخذ مسؤوليتها في معركة البناء

لا يمكن بناء الاشتراكية بدون المشاركة الايجابية للمرأة

موجة غضب عربية شاملة ضد قرار بون العدائي

الدول العربية ترد اليوم على تحديات حكام بون

جبهة تحرير الصفنام ترفض التفاوض قبل انسحاب القوات الامريكية

الجزائر تقف الى جانب الشعب الفيتنامي ضد الاعتداءات البرتغالية الغادرة

الاخ احمد بن بلة يهنئ الفريق امين الحافظ

الصفحة الأولى من جريدة «الشعب»، العدد 690، 9 مارس/آذار 1965. مكتبة فرانز فانون، الجزائر العاصمة.

مهرجانات نسائية ضخمة في جميع أنحاء البلاد احتفاء بيوم المرأة العالمي

موجة غضب عربية شاملة ضد قرار بون العدائي

الدول العربية ترد اليوم على تحديات حكام بون

الجزائر تقف الى جانب الشعب الفيني

ضد الاعتداءات البرتغالية الغادرة

جبهة تحرير الصفنام ترفض التفاوض قبل انسحاب القوات الامريكية

نص خطاب الرئيس

مقال في جريدة «الشعب»، العدد 690، 9 مارس/آذار 1965. مكتبة فرانز فانون، الجزائر العاصمة.

واسع هو السجن*

ملفات قضائية

* رواية لآسيا جبار، وهي الجزء الثالث من «رباعية الجزائر»، صدرت عام 1995

الضرب والجرح العمدي

سعدية قاسم

السيدة س.، التي سردت قصة طلاقها التعسفي في العدد السابق من المجلة[1]، قدّمت شكوى، في شهر سبتمبر/أيلول 2020، ضد زوجها (حاليًا زوجها السابق) بتهمة العنف الأسري. وبعد تقديم هذه الشكوى تقدم زوجها بطلب الطلاق.

سأعرض في هذا الملف القضائي قضيتين عن العنف الأسري، تعرضت فيهما السيدة س. إلى العنف على مرحلتين، حدثت المرحلة الأولى قبل الطلاق في جويلية/تمّوز 2020، والمرحلة الثانية بعده في جوان/حزيران 2021.

القضية الأولى: انتصار غير متوقع

التقيت السيدة س. في جمعية «شبكة وسيلة»[2]، حيث تقدّمت إلى الجمعية في سبتمبر/أيلول 2020 لطلب المساعدة القانونية في قضية طلاقها والشكوى التي كانت قدّمتها بشأن العنف الأسري، لكن لم تردها أيّ مستجدات بشأنها. ردّدت مرارًا: «يريدون دفن ملفي، لكنني لن أستسلم».

في ملف المحكمة الخاص بها، شهادة الطب الشرعي توثق عجزًا كليًّا عن العمل[3] لمدة ثمانية أيام، مرفقة بصور لكدمات على الوجه والساقين، ومحضر لأقوالها مدوّن فيه ما جاء على لسان زوجها السابق من إهانات، مثل «كلبة، فايحة، مهبولة»، وتهديدات من قبيل: «اليوم نذبحك».

1. سعدية قاسم، «ملفات قضائية. طلاق السيدة س. التعسفي»، مجلة «لبلاصة»، العدد 0، مارس/آذار 2022، الصفحات 85-88.

2. شبكة وسيلة، جمعية محلية مقرها الجزائر العاصمة، تأسست عام 2000، وهي تدافع عن النساء والأطفال ضحايا العنف وتقدم الدعم لهم. توفّر الجمعية خطًا ساخنًا للاتصال بطبيب نفساني ومحامي، من الأحد إلى الخميس من الساعة التاسعة صباحًا إلى الساعة الخامسة مساءً، على الرقم: 0560 10 01 05.

3. هو تقييم للعجز الناجم عن الاعتداء. هذه الشهادة ضرورية لجميع الإجراءات القانونية، سواءً كانت فوريةً أم لا. واعتمادًا على عدد أيام العجز الكلي عن العمل (ITT)، يُصنّف الاعتداء جنحة (إذا كانت مدة العجز تزيد عن 15 يومًا)، أو مخالفة (إذا كانت مدة العجز أقل من 15 يومًا). وطبقا لذلك، تختلف العقوبة المنصوص عليها في القانون. حيث يُعاقب الجاني بالسجن لمدة تتراوح بين سنة وخمس سنوات إذا نشأ عن الاعتداء عجز كلي عن العمل لمدة تزيد عن خمسة عشر (15) يومًا؛ أمّا إذا نشأ عن الجرح أو الضرب «فقد أو بتر أحد الأعضاء أو الحرمان من استعماله أو فقد البصر أو فقد بصر إحدى العينين أو أية عاهة مستديمة أخرى فيعاقب الجاني بالسجن المؤقت من خمس إلى عشر سنوات» (المادة 266 مكرر من قانون العقوبات).

دأبت السيدة س. على الذهاب إلى المحكمة كل أسبوع للاستعلام عن قضيتها لأكثر من سنة، من شهر جويلية/تمّوز 2020 إلى شهر أكتوبر/تشرين الأول 2021. إذ إنّها لم تتمكن من استلام استدعاء المحكمة لأن شكواها كانت مسجلة بعنوان بيت الزوجية، ولم ترد تعديله في خضمّ الإجراءات مخافة إيقاف سيرورتها. فواقع الأمر أنّ زوجها السابق كان قد استغلّ غيابها عن البيت، وغيّر الأقفال وطردها موجهًا لها ضربة على الرأس باستخدام مطرقة (قضية العنف الثانية)؛ وهي تقيم منذ نهاية شهر جوان/حزيران 2021 عند زوج من الأصدقاء.

في صبيحة أحد أيام الثلاثاء، بينما كانت السيدة س. متوجهة إلى شبّاك المحكمة كالمعتاد، تفاجأت أن موعد الجلسة الخاصة بها كان قد حُدّد الصبيحة نفسها، بتاريخ 19 أكتوبر/تشرين الأول 2021، وقد أشار عليها الموظف بالركض إلى قاعة المحكمة قائلا:

– ربما لم يمرّ ملفك بعد. بما أنّها قضيّة جديدة، سيُنظر فيها مع نهاية الجلسة.

وصلت السيّدة س. في الوقت المحدد، وقدّمت نفسها للقاضي، في حضور زوجها السابق أيضا، وطلبت تأجيل الجلسة إلى غاية إعلام محاميتها.

أُجّلت الجلسة إلى تاريخ 2 نوفمبر/تشرين الثاني.

في يوم الجلسة، كانت القاعة الكبيرة ممتلئة عن آخرها. كانت السيدة س. متوترة لكنها واثقة، ومحاميتها التابعة لشبكة وسيلة تقف إلى جانبها. جاء المتهم السيد ب. وحده دون محامٍ، وتقدم بخطوات واثقة ويداه خلف ظهره.

تقدّم رجل شرطة ليقف بين الضّحية والمتّهم.

يسأل القاضي:

هل ضربت هذه السيّدة؟

– لا، مجرد صفعة.

– صفعة بسيطة لا تفعل ما نراه في الصور. هل أهنتها؟

– لا، فقط قلت لها بأنها مجنونة.

ثم سأل القاضي السيدة س. التي قدّمت روايتها:

– لقد لكمني على وجهي فسقطت على الأرض مغمى عليّ، وعندما استعدت وعيي ركلني على ساقي. لقد كان يضربني منذ بداية زواجنا، ولكن هذه هي المرة الأولى التي أقدّم فيها شكوى ضدّه لأنني تعبت. خمسة وعشرون عاما من الزواج...

يوقفها القاضي عن الكلام، ليس لديه الوقت لسماع المزيد. يلتفت إلى المتهم:

– إذًا، ماذا تقول؟

لا يقول أي شيء.

محامية السيدة س. ترافع.

يلتمس المدعي العام الحكم بالحبس لمدة عام وغرامة مالية قدرها 50.000 دينار.

تُعطى الكلمة الأخيرة للمتهم:

– أطلب العفو من المحكمة.

يُحدّد تاريخ النطق بالحكم في 24 نوفمبر/تشرين الثاني 2021.

لم تتجاوز مدة الجلسة عشر دقائق. نغادر المحكمة أنا والمحامية والسيدة س.، وشعور بالارتياح والرضى يرافقنا، خاصة مع تأكيدات المحامية وقولها بكل ثقة: «سيُدان».

لم أتمكن حضور جلسة النطق بالحكم. تتصل بي السيّدة س. وصوتها مفعم بالفرح، كنتُ أتخيّل ابتسامتها العريضة وعينيها اللامعتين:

– حُكم عليه بالسجن ستة أشهر مع وقف التنفيذ!

تضحك.

– لو رأيتِ وجهه! وكأنه ليس هو نفس الشخص الذي حضر جلسة الاستماع.

تضحك مرة أخرى.

– أنا سعيدة!

كانت هذه المرة الأولى التي أشهد فيها إصدار إدانة بالعنف المنزلي منذ أن بدأتُ مرافقة النساء إلى المحكمة، منذ سنتين إلى غاية اليوم. لقد كان انتصارًا غير متوقعًا. هذا لا يعني عدم وجود إدانات في المحاكم، لكن هذه الحالة نادرة جدًا في «شبكة وسيلة». ويعود هذا إلى أسباب متعدّدة مرتبطة من جهة بذوي هؤلاء النساء، الذين غالبًا ما يتدخّلون لإقناعهن بالعدول عن فكرة تقديم الشكوى، خاصة إذا كان لديهن أطفال، مردّدين عبارة: «تحمّلي من أجل أولادك!»، أو بتأثير من عائلة الزوج، ناهيك عن وضعهن الاقتصادي غير المستقر، أو تهديدات أزواجهن، أو التململ بسبب الإجراءات الطويلة جدًا (والتي قد تتجاوز سنة كاملة) والمكلّفة للغاية، والتي تستنزفهن نفسيًّا وجسديًّا وماليًّا. ومن جهة أخرى، قد تكون الأسباب مرتبطة بدعمنا لمثل هذه القضايا الذي غالبًا ما يكون محدودًا، وفي بعض الأحيان قد لا يكون ذا كفاءة عالية. ففي الواقع، من نحن أمام سلطة جهاز العدالة؟

كرّست السيدة س. سنةً كاملةً لقضيتها المتعلّقة بالعنف المنزلي، حيث كانت تذهب كل يوم تقريبًا إما إلى مركز الشرطة أو إلى المحكمة. من يملك مثل هذا الإصرار للقيام بذلك؟ فهي أمّ لأطفال صغار ومتمدرسين؟ مع ذلك، كانت السيدة س. مصمّمة على الذهاب إلى أبعد نقطة، فقد لاقت المساندة والدّعم من أصدقاء ساعدوها ماليًا، إضافة إلى عملها خياطةً، وبعض المدخرات المالية التي كانت تحتفظ بها.

أخيرًا، أدانت المحكمة السيد ب.، وسلّمت بتعرض السيدة س. للضرر، وكل ذلك بفضل نضالها الشجاع.

القضيّة الثانية: العدالة لا تعوّض عن الضرر

بعد طلاقها التعسفي في جوان/حزيران 2021، لم يكن لدى السيدة س. مكان تأوي إليه، فوالداها متوفيان وبيت العائلة يقطنه إخوتها مع زوجاتهم وأبنائهم.

قررت السيدة س. البقاء في منزل الزوجية إلى حين أن يدفع لها زوجها السابق تعويضات عن الطلاق التّعسفي، مع سعيها خلال ذلك لإيجاد حل.

فهي لا تملك الحق في العقارات التي امتلكها الزوج خلال الخمس وعشرين سنة من الزواج، والمتمثّلة في منزل من أربعة طوابق وسكن اجتماعي. كلاهما مسجّلان باسم طليقها.

بعد بضعة أيام من إعلان الطلاق من قبل محكمة الاستئناف، قام طليق السيدة س. بتغيير الأقفال ومنَعها من استعادة أغراضها. وفي مساء 26 جوان/حزيران 2021 أصرّت على الدخول إلى البيت فوجّه لها ضربة على الرّأس بالمطرقة، بمساعدة ثلاثة رجال من عائلته، حيث قاموا بتكبيل ذراعيها.

اتّصلت بي بعد يومين من الحادث، وهي ما زالت تحت تأثير الصدمة. كان لديها بعض غرز الخياطة على الجرح، وقد أصدر لها الطبيب الشرعي شهادة طبية مدتها اثني عشر يومًا من العجز الكلي عن العمل، فتوجّهت إلى مركز الشرطة لتقديم شكوى.

– طلبتُ منهم مساعدتي في استعادة أغراضي، قالوا إنهم لا يستطيعون فعل أي شيء دون وثيقة رسمية من المدّعي العام.

توجهت السيدة س. في اليوم نفسه إلى المدّعي العام، الذي سلمها رسالة إلى مركز الشرطة وقد قال لها: «للأسف يا سيدتي، النساء المطلّقات لا يملكن أيّ حق!»، أخبرتني بذلك وانفجرت بالبكاء على الهاتف. حاولتُ طمأنتها من خلال عرض مرافقتها إلى مركز الشرطة في اليوم التالي.

عند وصولي إلى مركز الشرطة، لم يسمحوا لي بالدخول مع السيدة س.

– يتعذر دخولك سيدتي بسبب الكوفيد. إلى جانب ذلك فأنت لست محاميتها.

انتظرت في الخارج تحت أشعة الشمس الحارقة رغم أن الساعة كانت تشير إلى 09:30 صباحًا فقط.

بعد مرور خمس عشرة دقيقة خرجت السيدة س.

– أخبرني المفتش أنهم سيقومون بالتحقيق وسيستدعون الجناة ويتصلون بي، لكنهم لا يستطيعون إعادتي إلى بيت الزوجية، فنحن مطلقان!

أُودعت الشكوى في 27 جوان/حزيران، لكنّ التحقيق لم يُرفع إلى المدعي العام إلّا في 3 أوت/آب 2021. اضطررنا إلى العودة أكثر من أربع مرات إلى مركز الشرطة للحصول على تلك المعلومات الضرورية للمحامية والسيدة س.، وذلك لمتابعة الملف على مستوى المحكمة.

بعد مرور أربعة عشر شهرًا من تقديم الشكوى، حُدّد أخيرًا موعد الجلسة الأولى في 18 سبتمبر/أيلول 2022. توجّهت السيدة س. إلى هناك بمفردها لطلب التأجيل، لأن محاميتها كانت مشغولة، فأُجّلت الجلسة إلى تاريخ 16 أكتوبر/تشرين الأول.

أخبرتنا السيدة س. أن زوجها السابق هو الوحيد الذي سيخضع للملاحقة القضائية، أمّا أخواه وابن أخيه الذين كانوا حاضرين يوم الاعتداء، والذين كبّلوا ذراعيها بينما كان زوجها السابق يضربها على الرأس، فلم يُستدعوا إلى المحكمة مع أنّها قدمت شكوى ضد الرجال الأربعة. هي لم تفهم سبب عدم استدعائهم ولا أنا، لكن المحامية فسرت لنا ذلك بأن قاضي التحقيق بعد إتمام التحقيق، قرّر على الأرجح مقاضاة زوجها السابق فقط.

– ملف رقم 5260[4]، تعلن القاضية.

تتقدم السيدة س. أولاً، وقد سبقتها محاميتها لتأخذ مكانها وراء العارضة.

– ما علاقتك بهذه السيدة؟، تسأل القاضية المتهم.

يتحدث السيد ب. بصوت خافت، تطلب منه القاضية أن يعيد ما قاله.

– زوجتي السابقة.

– هل أنت خائف من قول ذلك؟

يتقدم رجل شرطة ليقف بين الضحية والمتهم.

– ما اسم والدك؟ ووالدتك؟ أين تسكن؟ ما هو تاريخ ميلادك؟، تتابع القاضية.

يجيب السيد ب. على الأسئلة بكل هدوء وبصوت واضح ورأس شامخ ويدين متشابكتين خلف ظهره.

– أنت ملاحق بتهمة الجرح والضرب العمد بسلاح أبيض، وفقًا للمادة 266 من قانون العقوبات. ما قولك في ذلك؟ الضحية هي السيدة س.

– أنا لم أضربها.

– ألم تضربها؟

– لا، لم أضربها أبدًا، إذا كان لديها أي...

تقاطعه القاضية وتسأله إن كان لديهم أبناء.

4. غيّرنا رقم الملف للحفاظ على السرية وإخفاء هوية المعنيين.

– أنا لم أضربها، لقد ضربت نفسها...

تقاطعه القاضية مرة أخرى، لكن المتهم يواصل الكلام، تضرب القاضية بيدها على المكتب، وتطلب منه الصمت وتتوجه كلامها إلى الضحية:

– كم عمرك؟

تتحدث السيدة س. بصوت خافت جدًا، فلا تسمعها القاضية وتطلب منها التكرار:

– تكلمي بصوت مرتفع. هل وقع الاعتداء قبل الطلاق أم بعده؟

– بعد الطلاق.

– لماذا؟ هل كنت تسكنين بالقرب منه؟

– لا، لقد كان يضربني حتى قبل طلاقنا. في كل مرة كان يضربني أخبره أنني في المرة القادمة سأقدم شكوى ضده، وهو...

تقاطعها القاضية، وتضغط عليها هي كذلك:

– انتظري، توقفي! لماذا ضربك هذه المرة؟

– عندما ضربني، لم أكن حتى قد سحبت الحكم من المحكمة لاستعادة أشيائي. لذلك فقد كنت ما أزال أعيش في منزل الزوجية. السيد يمتلك منزلا قمنا ببنائه معًا ولكنه مسجّل باسمه وحده، كما يمتلك سكانًا اجتماعيًا كان بإمكاني البقاء فيه إلى غاية إيجاد حل.

ينفد صبر القاضية، تقاطعها ثم تضرب على مكتبها مرة أخرى:

– ما زلت لا أفهم. أنت تتحدثين وأنا لا أفهم! متى ضربك وكيف ضربك! ذهبت لأخذ أغراضك، أليس كذلك؟ هل ضربك في تلك اللحظة؟

تشعر السيدة س. بالتوتر، وتتوه في تفاصيل الأحداث، تتلعثم، تنظر إلى محاميتها التي تقترب منها لطمأنتها، فتطلب منها القاضية الابتعاد وترك الضحية تعبر عن نفسها بمفردها.

تتابع السيدة س. قائلة:

– في ذلك الوقت، سيدتي القاضية، لم أكن قد جمعت أشيائي بعد. ذات مساء عندما أردت الدخول إلى الشقة، قام بتغيير الأقفال. وعندما طرقت على الباب، خرج هو وتبعه ثلاثة رجال، وهم أحد أبناء أخيه واثنان من إخوته، سألني عما أريد، فقلت له إنني أريد استعادة أغراضي. عاد إلى الشقة، أمسك بي الآخرون من ذراعي، ثم عاد بمطرقة وضربني على رأسي.

– ضربك بمطرقة على رأسك؟

– نعم سيدتي الرئيسة، أصبت بالدوار وسقطت على الأرض و...

تقاطعها القاضية وتلتفت إلى المتّهم،

– هل ضربتها، نعم أم لا؟

– سأختصر، سيدتي القاضية. صحيح أنّها جاءت لتأخذ أغراضها، فقلت لها أن تأتي وتأخذها رفقة حاجب من المحكمة.

–لماذا؟ هل تزوجتما في حضور الحاجب؟

– لا.

–حسنًا، إذن لماذا؟

– طلبت منها إحضار الحاجب حتى لا تكون هناك أية مشاكل فيما بعد، ولكي تجري الأمور بشكل قانوني. غادرت وعادت برفقة رجل وهي تحمل قضيبًا حديديًا ومطرقة. سمعتها تدق على الباب بالقضيب الحديدي، فتحت الباب واتصلت بالشرطة. عندما سمعت الشرطة قادمة، أمسكت بالقضيب الحديدي وضربتْ رأسها. أما الرجل الذي جاء برفقتها فهرب.

– كيف هذا؟ هل ضربت نفسها؟

– إنها الحقيقة، أقسم لك بالله. دعيها تعترف هنا والآن!

كان يصرخ. ضربت القاضية المكتب مرة أخرى وطلبت منه الصمت.

– ما هو جوابك؟، سألت القاضية، مخاطبة السيدة س.

– كل ما قاله غير صحيح، سيدتي القاضية.

– هل هو من ضربك؟

– نعم هو! لم يكن هو الذي اتصل بالشرطة، كانت هناك امرأة...

– حسنًا، حسنًا، هذا يكفي!، صرخت القاضية.

صرخ المتهم:

– فلتعترف بالحقيقة! لقد أقسمتُ أن تضعني في السجن لكنني لست أحمق!

تصرخ القاضية بدورها، وتطلب الصمت وتضرب على مكتبها ثم تحيل الكلمة للمحامية.

في نهاية المرافعة تلتفت القاضية إلى المدعي العام، الذي يطلب توقيع عقوبة بالسجن لثلاث سنوات وغرامة قدرها 100.000 دينار.

– سيد ب.، ما الذي تطلبه؟، تسأله القاضية

– البراءة، سيدتي القاضية.

– سيصدر الحكم في 30 أكتوبر/تشرين الأول. يمكنكم المغادرة.

نخرج إلى ردهة المحكمة. المحامية غاضبة من السيدة س. التي تحبس دموعها، حيث تنتقدها بسبب روايتها المشوشة والتفاصيل غير الضرورية.

– كان عليك أن تتمسكي بالحقائق. هل رأيت كيف تحدّث زوجك السابق؟ لقد كان يقول كذبًا، ولكنه كان واثقًا من نفسه! تحدث بصوت واضح ومطمئن. لا أعرف القاضية، لكنني متأكدة من أنه

سيحصل على البراءة! كل شيء يحسم في يوم الجلسة! كان عليك أن تكوني واثقة من نفسك أكثر. لقد فعلت ما بوسعي. سنرى.

غادرت المحامية تاركة إيّانا وسط تلك الردهة مترامية الأطراف وباردة الجدران، غارقتين في ذهول وضياع.

يوم صدور الحكم، كنّا في قاعة المحكمة. القاضية تتحدث بسرعة كبيرة، تتعثر في الكلمات، تعتذر، تصحّح وتكرّر، لم أفهم ما تقوله. أمّا السيدة س. فقد فهمت، رأيت ذلك في تشنج ملامحها واضطرابها. نغادر القاعة.

– الحبس شهرين فقط مع وقف التنفيذ، وغرامة 50.000 دينار! أقل من المحاكمة السابقة.

هي لا تصدق ذلك، ولا أنا في الحقيقة.

– ضربني بمطرقة على رأسي!

ألتزم الصمت

– أريد الاستئناف!

أشعر بالغثيان.

نظرت إليّ، شكرتني، ثم غادرت.

بعد أيام قليلة، جاءت إلى مقر الجمعية لتخبرنا أنها ستعيش في مسقط رأسها، فقد سمح لها أشقاؤها بالسكن في شقة والدتهم الراحلة. البيت مهترئ منذ حدوث الزلازل الأخيرة، لكنها قالت: «إذا سكنت فيه فسوف استفيد من إعادة إسكان».

هي لا تريد الاستئناف بعد الآن. وكان آخر ما قالته: «أنا متعبة. لقد كلفني ذلك كثيرا».

5. بداية شهر مارس/آذار، أعلمتنا السيدة س. أنّ وكيل الجمهورية استأنف الحكم الذي أصدرته المحكمة الابتدائية، وأنّ تاريخ الجلسة حُدّد في منتصف مارس/آذار. يمكنكم متابعة باقي مجريات هذه القضية على المدوّنة:
http://chroniquejudiciairedz.wordpress.com

Game ovaire*

عمود سارة حيدر

* «Game ovaire» عنوان اختارته سارة حيدر، لأنها تفعل ما يحلو لها!

تشريح رهاب جماعي

معارك النسوية الحديثة: ما هي وما هي ليست

«لا يوجد شخص أشدّ غطرسة اتجاه المرأة، ولا أشدّ عدوانية واحتقارًا، من رجل يخشى على رجولته.»
سيمون دو بوفوار
«ماشي وَقْتو» جماعي

في شهر جوان/حزيران 2022، اشتعلت شبكة الإنترنيت بصورة للفريق الوطني الجزائري النسوي للجمباز، ظهرت فيها لاعبات في مقتبل العمر، يرتدين الزيّ الرياضي العادي، وهنّ يقفن بكلّ فخر أمام عدسة المصور، في إطار مشاركتهن في الألعاب المتوسطية التي أُقيمت في مدينة وهران.

كما يحدث غالبًا في مثل هذه الحالات، انتشر الزعيق والنعيق على منصات التواصل الاجتماعي في الجزائر، نتيجة الملل والضجر تارةً، وتارةً بدافع الجنون الإيديولوجي. وكالمعتاد، صارت تلك المواقع مسرحًا للمواجهة التقليدية بين معسكرين متعارضين في ظاهرهما، ويشار إليهما بتسميتين فارغتين لا معنى لهما، بقدر ما هي عليه المشاحنات بينهما؛ «الظلاميون» مقابل «التقدميين».

أرغى الفريق الأول وأزبد أمام اضمحلال القيم والانحطاط الأخلاقي للمجتمع الجزائري، الذي يُعدّ «عري» النساء أوضح تجليّاته. وفي المقابل، انتشى الفريق الثاني أمام روعة الحريّة، وحيويّة الشباب، وجمال أولئك الفتيات بنظرتهن وأجسامهن المنتصرة!

علاوةً على الجنسنة المتأصّلة للعديد من البدلات الرياضية النسائية، كانت الصورة التي عكستها تلك الصولة الجديدة من صولات الجدل المتكرّرة صورة فرقتين، مجنّدتين لخدمة «أيديولوجيتين» عدوتين، تتناحران بشراسة بشأن جسد المرأة (في حالتنا هذه، أجساد لاعبات جمباز يافعات، بالكاد بلغن سنّ الرشد). ووفقًا للتفكير الجزائريّ، الموروث عن الصراع الدموي خلال العشرية السوداء، فإنّ جماعة «التقدميّين» المدافعين عن أفخاذ اللاعبات العارية، هم أصدقاء النساء الجزائريات، والحلفاء الطبيعيون لنضالهن من أجل التحرر؛ وأمّا «الظلاميّون»، المحافظون الذي استهجنوا الموقف، فهم بطبيعة الحال أعداء القضية النسوية.

تظهر هذه الثنائية بانتظام من فترة إلى أخرى على الساحة، إذ إنّها تتجاوز مجرد جدل عابر مثل الجدل الذي شهدناه. وهي قائمة على عداء وجودي بين «تيّارين» يهيمن عليهما تاريخيًّا واجتماعيًّا الرجال؛ عداءٌ يضرب جذوره في أعماق اللاوعي الجمعي، حيث يمتزج اللّامفكر فيه اجتماعيًّا من صدمات التسعينيّات، وموروث استعماري، وأبوية سلطوية، وحداثة سطحية.

حروب سيطرة

يتعامل كلا الفريقين مع جسد المرأة وفكرها على أنهما منطقة استراتيجية يسعيان للسيطرة عليها؛ مخزون من القيم يحتاجه كل منهما ليعرّف نفسه سياسيًّا واجتماعيًّا على الطرف النقيض من الآخر. ففي حين يجعل «الظلاميون» من كِيان المرأة عنصرًا من العناصر المكوِّنة لمشروعهم في ثورة اجتماعية، وذلك بإرساء حياء الأنثى، وخضوعها للرجل، ولباسها الإسلامي، كضمانات أساسية لنهضة الشعب؛ يهبّ «التقدميون» لرفع صورة المرأة العصرية العاملة والمستقلة، ويستحسن أن تكون مرتدية طقمًا من «شانيل»! إلّا أنّ كلاهما يتفقان على فكرة أن شؤون المرأة هي، في الآن ذاته، أداةٌ للمشروع المجتمعي لكل منهما وتجسيدًا له. ولقد ترسّخ نمط التفكير هذا في الأوساط السياسية والثقافية الجزائرية، لاسيّما نتيجة للصراع الدموي الطويل الذي روّع البلاد خلال التسعينيّات من القرن الماضي، ولا تزال آثاره محفورة في الذاكرة.

النجاة من النسوية

يأثّر نمط التفكير هذا على الاستراتيجيات التي يضعها هذا الفريق أو ذاك في مواجهة الحركة النسوية، بخاصة أمام الجيل الجديد من المناضلات والمؤيّدات، اللّاتي نجحن في بضع سنوات فقط في إحياء النضال من أجل التحرر، وتجديده، وتوطيده.

شهدنا حينها ظواهر محيّرةً داخل دوائر سياسيّة واجتماعية، أقل ما يقال عنها أنها متباينة أشدّ التباين، أمام خطاب هذه الحركة الطليعيّة ونشاطاتها وطريقة تفكيرها، والتي لم يتسن الوقت بعدُ لفهم آلياتها، وبالتالي السيطرة عليها.

اليوم، وقد أمسى تحمل مسؤولية إرادة القضاء على الحركة النسوية أصعب، بل وأقلّ رقيًّا وجاذبيةً، لإيديولوجيات تدعي مناصرتها للمساواة بين الجنسين، أصبح من الأسهل اللجوء إلى طرق أخرى، تتراوح بين الاندساس في الحركة وإشعارها بالذنب، مرورًا بالوصاية الأبوية، والتشهير، والقوامة الأخلاقية السياسية.

أصبحت ما تسمّيه العقول المتخوّفة – أيًّا كانت ولاءاتها – النسويةَ الجديدة الراديكالية، الكارهة للرجال والضارة، في مقابل «النسوية الحقيقية»، الإصلاحية والقائمة على المساواة والملائمة، أصبحت إذًا إشكاليةً محوريّةً في صلب التيارات الأشد «تقدميّةً»، يساريةً كانت أو يمينيةً. هذه التيارات، والتي من المفترض أنها معارضةٌ للمحافظين والاسلامويين الآخرين، الذين، هم، يعبرون عن عداءٍ معلنٍ ومتسقٍ تجاه النسوية عمومًا، وجدت نفسها مضطرّة لوضع استراتيجيات أكثر «دهاءً» للتصدي للنسويات الجديدة أو احتوائها. فحضور هذه الأخيرة أضحى حضورًا حتميًّا، ليس في الإمكان الاكتفاء بتجاهله أو شيطنته بغباء كما في السابق؛ حضور يستقطب أعدادًا متزايدةً من النساء، ويفرض نفسه بوصفه قوةً سياسيةً واجتماعيةً، في سياق لم يعد يتيح طمرَ أعمال العنف الجنساني تحت رواسب ثقافة الصمت، وحيث لم تعد الإرادة في التحرّر وتجاوز السلطة الأبوية تقتصر على مناضلات معروفات، بل تشمل الكثير من النساء، من مختلف الانتماءات السياسية والطبقات الاجتماعية.

هذا ما يجعل على الأرجح الحربَ الشاملة على النسوية شبه مستحيلةٍ الآن، وما يجبر اليساريين والمحافظين والليبراليين على حد سواء على الردّ بطرق مختلفة على هذا «الخطر».

فالعديد من المنظمات والأحزاب اليساريّة الجزائرية أدرجت بعض المطالب النسوية في برامجها؛ في غالب الأحيان تحت المراقبة اليقظة للإدارة المكونة عادةً من الرجال. ولم يتخلف عن هذا الركب عددٌ من التشكيلات المسماة «ديمقراطيةً» أو «تقدميةً»، عادةً ما تنتمي إلى الليبرالية الجديدة؛ فهي أيضًا أضفت لمسة نسوية على واجهتها، بإبراز العنصر النسوي ضمن إطاراتها. وعدا بعض الفروقات البسيطة، يبدو أنّ لكلا الجمعَين فكرة محدودة للغاية عن ماهية النضال من أجل حقوق النساء، واعتقادًا مشتركًا بضرورة انصهاره في الهوية السياسية العامة لهما. ممّا يعني أنها لا تفسح المجال، أو بالكاد، لهذه الاختلافات والتطلعات «الجديدة».

على هذا النحو، تُحدّد تحديدًا تعسفيًّا عتبة مقبولة للنسوية، وتتحول هذه الأخيرة في حال تجاوزتها إلى عدو موضوعي؛ إمّا برفضها الانخراط في أحد الإطارين المفروضين، وإما برفضها الصريح لهيمنة الحزب والمنظمات التقليدية الأخرى.

وهكذا، تتكون في بعض الأوساط، على نحوٍ واعٍ إلى حد ما، مفردات عدائيّة تجاه النسويّة الخارجة عن السيطرة، والتي يُعاب عليها بالدرجة الأولى وعيها بجميع أشكال العنف الموجه ضد النساء، مهما كانت مكرّسةً وخفيّةً، وأيضًا تخلّيها عن أشكال النضال «المهذّبة» و«الصحيحة».

نسويّة خطيرة لأنها راديكالية، وراديكالية لأنها متبصّرة، يُنظر إليها على أنها خطر وتهديد لأنها تسعى إلى تحديد أشكال «العنف العادي» وتعريفها على أنها عنفٌ، الأمر الذي قد يفضح العديد من الرجال، المصنّفين «فوق كلّ الشبهات»، ببساطة لأنه سبق وأثبتوا براءتهم بمجرد تعريف أنفسهم على أنهم «نسويون». نسويةٌ لا تكتفي بشعور الأسى والحزن على النساء المعنَّفات، والمغتصبات، والمقتولات، بل تبحث عن جذور العنف، والاغتصاب، والقتل في أغوار نفسيّة المجتمع؛ نسوية تفكّك بنية الجريمة، وتجذرها العميق في أنماط تفكير وسلوك مبهمة إلى حدّ كبيرٍ، وتمظهراتها المختلفة في الحياة اليومية.

تحالف في مواجهة عدوّة مشتركة

مع نهاية العام 2022، أفاد العد الجنائزيّ عن مقتل ثمان وثلاثين (38) امرأة على الأقل، على يد رجالٍ من محيطهنّ منذ بداية العام، أي بمعدل يزيد عن امرأة واحدة كل أسبوع. تثير هذه الأرقام، بطيعة الحال، الاستنكار المتعارف عليه والتوافقي لدى المتبجّحين بالصلاح. لكننّا لا نعرف إلى غاية اليوم عدد النساء اللواتي يتعرضن للاغتصاب، والضرب، والمضايقات، داخل العلاقة الحميمة الخانقة بين الزوجين، أو وسط شلّة الأصدقاء، أو في دوائر النشطاء، أو في كنف أسرهنّ. كما أننا لا نعرف هوية جلاديهنّ ولا مكانتهم الاجتماعية.

يخلق عدم التوازن في البيانات المتوفرة نوعًا من سوء الفهم المزدوج؛ إذ إنه يجعل القتل نوع العنف الجنساني الأكثر شيوعًا، إن لم نقل الوحيد، الذي يشغل حيز التفكير والإدانة، في حين تُغيّب الأنواع الأخرى، إلى حدّ نكران وجودها!

علاوةً على ذلك، تؤدي الإحصاءات المعروفة إلى تحيّز آخر، مفاده أنّ مرتكبي جرائم قتل النساء هم عادةً أشخاص ذوو مستوًى تعليميّ متدنٍّ، وينتمون إلى فئات اجتماعية فقيرة. حينها يتولى اللامفكَّر فيه

التقليدي والاجتنابيّ الباقي، فيصبح الفقراء، و«المعقّدون»، و«الجهّال» الأشخاص الوحيدين العنيفين تجاه النساء. إلا أنّ عددًا من النسويات يشكلن مصدر إزعاجٍ، لأنهن بتحليلاتهنّ، وأفكارهنّ، واستهجانهنّ، تقوّضن هذه النظرية الزائفة، وتضعن الجمهور أمام مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأفكار والأفعال ذات البعد الجنساني. إنّ حصر العنف في تجسّده المتطرف فقط (القتل) يزيد من معاناة النساء و... من أعمال العنف العادي!

إنّ الريبة، بل والعداء الخفيّ، اتجاه نسويّة الأجيال الشابة هي، في المقام الأول، انعكاسٌ لخوف سياسيٍّ واجتماعيٍّ وتبعيٍّ. فعلى سبيل المثال، نرى أنّ التعريفات القانونية تدعم آليات الدفاع والإنكار لوسطٍ سياسيٍّ وثقافيٍّ واجتماعيٍّ يرفض توسيع أفق تفكيره، ونقد ذاته، ورؤية ما تنطوي عليه أفعاله من خلل وتعدٍّ على النساء.

فلانٌ، بعيدٌ كلّ البعد عن الشبهات لأنّه شخصٌ عصريٌّ و«شبْعان»، اعتدى جنسيًّا على صديقة له. وآخرٌ، كثيرًا ما يفقد «السيطرة» على أعصابه، يضرب زوجته. وثالثٌ يتحرش بزوجته السابقة بإرسال عشرات الرسائل النصية القصيرة ليلًا، متوسّلًا أحيانًا، ومهدّدًا أحيانًا أخرى. وآخرون، لا تشوبهم أيّ شائبة ظاهريًّا، يستغلون سذاجة، أو خجل، أو صدمات أو هشاشة الرفيقات، أو الصديقات، أو الزميلات، ليفرضوا عليهنّ علاقات جنسية. وآخرون كثرٌ هم من مرتكبي التحرش، والمضايقات، والسلوكيات المتحيّزة ضد النساء، في مكان العمل،

لا عجب إذًا أن تشعر الأغلبية بالانزعاج من تحديد مفاهيم مختلف الظواهر الذكورية والكارهة للنساء، خارج «المشتبه بهم المعتادين» المعروفين. ثقافة الاغتصاب؟ الرضا؟ العنف البنيوي؟ السيادة (الحقيقيّة) للنساء على أجسادهنّ وخياراتهنّ؟ قضية الإجهاض والحرية الجنسية؟ مجرّد هراء ابتدعته النسويات الجدد، واستلاب ثقافي! نضالٌ برجوازيٌّ زائفٌ، في نضر البعض، و «نضال الملابس الداخلية» للبعض الآخر؛ خيانةٌ لنسويّة الأيام الخوالي الحقيقية والسامية، في نظر كلا الفريقين. فكونهما عدوّين إيديولوجيين لدودين لا يمنع من اتفاقهما حين يتعلق الأمر بالسيطرة على قضية النساء!

في عام 2019، في أحد وسائل الإعلام المعروفة بخطها التقدمي، طُرح خلال أحد برامجها الإذاعية السؤال التالي: «كيف يمكننا النضال من أجل المساواة دون إخافة الحراك؟»! وقبلها ببضعة أشهر، أدانت مختلف الدوائر والأطياف السياسية بالإجماع إنشاء «المربع النسوي» في إطار الحراك الشعبي، لأنّه كان «مسبّبًا للشقاق». لكنهم، أمام صمود المناضلات وثباتهنّ، راجعوا موقفهم وقبلوا، بشيء من المضض، وجود هذا الحيّز المخصص لحقوق المرأة؛ وإن لم يتحرّجوا من المرور بانتظام ليشرحوا للناشطات الطريقة التي عليهن اتباعها في نضالهن!

إلّا أن محاولات تكميم الأفواه لم تتوقف من وقتها؛ من وصاية ذكوريةٍ وتعالٍ، إلى النميمة والتشهير، مرورًا بالسخرية والتخويف. في الجزائر، كما في البلدان الأخرى، الجميع تقريبًا لا يستسيغ توسع مجال النضالات النسوية، لما تملكه من قدرة على فضح أفعال يندى لها الجبين لدى «أحسن» الرجال!

شظايا الأحلام*

إبداعات جديدة

مايسة باي
نوال الوراد

*فيلم وثائقي لبهية بن شيخ لفقون، أُنتج عام 2017

على مسلك الذات

مايسة باي

منظر طبيعيٌّ؟ قارةٌ؟ جزيرةٌ؟ حلمٌ؟ لما هذا الإصرار على تسمية، أو تعريف، أو منح حضور جغرافي أو ذهني، باستعمال اللغة، لأرض تبرز أمام أعيننا فجأةً، رغم إدراكنا أنّ الصخب لن يهدأ أبدًا؟ الأرض المجهولة.

لماذا لا نقول لأنفسنا ببساطة: إنه هنا. أو بالأحرى هذا هو. هذا هو، بدون رجعة. و«هذا» موجودٌ منذ وقت طويل. ولم أتمكن من رؤيته. لم أرد، ربما. سيأتي لاحقًا وقت الأسئلة. ربما.

أمّا الآن، فينبغي إعطاء معنًى للفعل أبصر. لهذا الغرض، إبقاء الأعين مغمضة بإصرار. والأهم، التخلص من كل الأوامر الأخرى. الانحناء، مثلما ننحني تحت تأثير ريح لا نعرف في أيّ جهة من الجهات الأربع ولِدت.

هذا هو. وهذا يُحدث قرعًا داخل الذات، شبيهًا بالموسيقى، أو بنشاز وُلد في مكان أبعد من الذكريات.

ونقف هاهنا، على شفا الوقت السابق لأيّ وعيٍ.

من أين جاء ما يجعل عينيّ تغرورقان؟ دموع تنضح من هزائم لا نعيها تمامًا، من حسرات لا ندركها كليًّا، من تنازلات لا عدّ لها.

في كبد ما هو سماءٌ لأعماق الذات، هناك تجاعيدٌ. تجاعيد الصمت أو تجاعيد الماقَبل. ما قبل الزمان. شيء ما غير معروف وفي الآن ذاته مألوفٌ كلّ الألفة. أن نقول كلمة امرأة ونرغب في محوها مباشرة بعدها.

لكنه هنا، وهو يخفق

بجنون،

خفقانٌ خفيٌّ لكلّ ما هو غير الذات.

آه، هذه الجلجلة! طبولٌ على ضفاف النهر. مياه نهر ليثي. محو كل أثر للحياة السابقة أو عودة إلى الحياة السابقة. لست أدري.

هذه الخطوط. هذه الخدوش. هذه العلامات المحفورة في ذاتي وكأنها رموز هيروغليفية وحدي أنا من ~~قد~~يقدر على فكّ شفرتها. سماوات. أطلال. أشواك. انكسارات في الحياة، ربما. يحلّ حينها الوعي الغامض بخراب ما. شظايا. كواكب-نكبات.

أنا هنا، مترقّبةٌ ساكنة. تتداخل الآفاق في الوقت الذي يلوح فيه النهار الأول أمغرَ

أنا هنا، في مكان ما، وسط هذه الرياح المضادة. مضادة؟ لا، ليست كذلك البتة!

أنا هنا، معزولة عن النهار، يحاصرني الليل، متوتّرة في انتظار موجع، أشد وجعًا حتى من الانتظار.

إنها منطقة سرية، بلاد خفيّة، مكان تسري فيه أحيانًا ارتعاشات الضوء وصرخات غير مسموعة تتلاشى وهي تتشبّث بغيوم هاربة في سماء على وشك أن ترعد.

أعرف الآن.

في داخلي فضاء أوسع من أي ذاكرة، تنصرف الرياح على مشارفه ويخبو الغضب. مكان يكتسيه الغموض، حدوده منيعةٌ، أسواره حجريّةٌ تندحر أمامها هجمات أعتى فرسان الظلام. منطقة يقول البعض أنها معتمة، تسكنها الظلمات، بل ومغضوب عليها، مغضوب عليها أبد الدهر، ففي حشاها تختبئ خيالات مراوغة ورغبات ~~وقحة~~.

هناك، يقولون، نعم، هناك أمر غريب بشأنها. نتوءات مفاجئة. تنافر. صمت. شرارات هاربة من بؤبؤ عينيها. قالوا، نعم، أمر غريب. هي ليست مِثل. مُثلى. تخليد. قربان. رحمة. تهديد. واختراع حياة من كل كلمة. قاموس للمشاركة.

...وكأنّ، كلماتي أنا، كلمات صامتة، كلمات موشومة، تجري مجرى الأزرق تحت جلدي. الكتمان. أن نصمت. ألّا نمكّنهم من شيء يجعلنا لقمة سائغة.

آه، هذا الصمت المتعدد!

أنا

أنا هنا. في الداخل. في الباطن. عليّ أن أمضي قدمًا على مسلك الذات-الحرير ذي الألوان المتنافرة، مسلك نُسج بأناة، كثيرًا ما ينحلّ، كثيرًا ما ينقطع، لأشق طريقي عبر كل ما يقاوِم، يقاوم، يقاوم. المضي، بأذرع ممدودة، نحو من، نحو ماذا، لا أعرف كيف أصل إلى منتهاه. لم يتبق لي الكثير من الوقت. المضي قدما، مهما كلفني الأمر.

ونجد في ارتعاش ما يتراءى في البعيد، سرابًا كان أو انعكاسًا، نجد نقطة انقطاع المياه لنولد من جديد في ذواتنا.

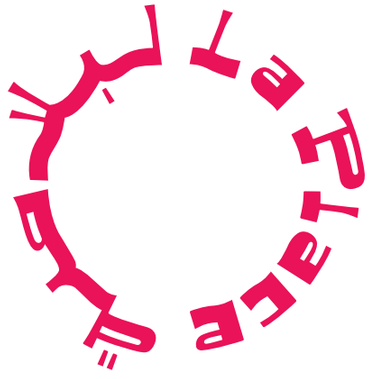

مجلة نسوية جزائرية العدد 1

رئيستا التحرير
مايا وعبادي وسعدية قاسم

المساهمات
إيمان أماني
وئام أوراس
ناتاليا بن خالد-فينس
مايسة باي
حبيبة جحنين
سعدية قاسم
سارة حيدر
نوال الوراد
هناء مناصرية
نجوى راهم
مايا وعبادي
ماجدة زوين

المصّورة
ليديا سعيدي
المصمّمة
لويز ديب

المترجمتان إلى اللغة العربية
جميلة حيدر وسارة حيدر

مساعدة التحرير للغة العربية
جميلة حيدر

مساعدة التحرير للّغة الفرنسية
فريدة بن ويس

©Éditions Motifs

contact@editionsmotifs.com
www.editionsmotifs.com

الطباعة مطبعة إبداع، الجزائر العاصمة
الخطوط 29LT Adir, Zarid

ISSN 2830-9235
الإيداع القانوني مارس /آذار 2023

أُنجز هذا المشروع بدعم من مؤسسة فريدريش إيبرت الجزائر..

لا تلزم النصوص والآراء الواردة في هذه المجلة سوى صاحباتها، وهي لا تعبّر بالضرورة عن موقف مؤسسة فريدريش إيبرت.

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

المحتويات

6 نْديرو «لبلامة» افتتاحية

8 المساهمات و هيئة التحرير سيَر

10 رحلة الخروج بورتريه
لالة فاطمة نسومر، ما وراء الأسطورة، **حبيبة جحنين**

22 واحدة أخرى حوار
مع مليكة رحال، **أجرته مايا وعبادي**

34 المغارة المتفجرة تفكيك
الرباط وهوس العذرية، **وئام أوراس**

42 المستقبل غدًا راهن النضال
المادة 66 من قانون الأسرة: عنف وتمييز ضد المطلقات وحرمان من العدالة، **نجوى راهم وماجدة زوين**

50 اسمعوني جرائم قتل النساء في الجزائر
قائمة جرائم قتل النساء في العام 2022

56 ساحرات الجسم والصحة
أمراض الغدة الدرقية: مشكلة صحية لدى الإناث، **إيمان أماني**

66 واحدة أخرى حوار
مع آمال زان، **أجرته: هناء مناصرية**

74 نْتي قدّامي وأنا موراك تاريخ النضال
مارس 1965، مسيرة في تاريخ الجزائريات، **ناتاليا بن خالد-فينس**

84 واسع هو السجن ملفات قضائية
الضرب والجرح العمدي، **سعدية قاسم**

92 ڤيم اوفر عمود سارة حيدر
معاداة النسوية الجديدة: تشريح رهابٍ جماعيّ

98 شظايا الأحلام إبداعات جديدة
على مسلك الذات، **نص لمايسة باي**
خطوات، **شريط مرسوم لنوال الوراد**

نْديـــــرو «لبلاصـــة»

افتتاحية

منـذ مـارس/آذار 2022 وصـدور العـدد التجريبـي لمجلـة «لبلاصة»، لـم تتحقّق بعدُ المساواة المنشودة بين النساء والرجال تحت سمائنا – قيل لنا ولا تحت سماوات أخرى. رائع، يجعلنا هذا نشعر بوحدة أقل –؛ ولم تصدر صحفٌ جديدة تديرها نساءٌ – قيل لنا إنّ عدد الصحفَ في كل الأحوال أصبح أقلّ في الجزائر، رائع، يجعلنا هذا نشعر بوحدة أقل.

في عـام 1992، اسـتهلّت جيزيـل حليمـي تقديـم كتابهـا *Le temps des malentendus* («زمن المفاهيـم الخاطئـة») بهـذه الأسئلة: «ماهي النسوية؟ هل هي موجودة؟ هل يمكنها أن توجد اليوم؟ لكـن مـا الحاجـة إليها؟ لقـد حصلت النسـاء على كلّ شيء!» واليوم كذلك، مثلما كان الحال في بداية تسعينيّات القرن الماضي، تتعالى أصوات قائلةً أنّ النساء قد حصلن بالفعل على كلّ حقوقهنّ، وفي كلّ المجالات، فلا حاجةَ إذًا لمواصلة النضال؛ لا حاجة للنسوية. فلتسترحن، أيتها السيدات! آه، كم نودّ ذلك! لكننا، ما دمنا نرى أن الحـال ليـس فعـلًا كمـا يقـال، فسـنكمل نْديـرو «لبلاصـة»! هـا نحـن عدنـا إذًا بعـدد آخـر.

هـذا العـدد 1، كسـابقه، لا يتمحور حـول موضوع معيّن، وإنّما يواصل اسـتكشـاف الحقـول نفسـها: راهـن النضـالات النسـوية، مـن خـلال مسـاهمة عـن المـادة 66 مـن قانـون الأسـرة؛ وتاريـخ هـذه النضـالات، بنـصّ يسـتعيد مظاهـرة الثامـن مـارس/آذار 1965 التاريخيـة في الجزائـر العاصمـة؛ وصحّـة النسـاء وأجسـادهنّ، بمقـال طبّي يسـتعرض الأمـراض المختلفـة للغـدة الدرقيـة التي تصيـب عددًا كبيـرًا من النسـاء؛ وقسـم «إبـداع» الـذي يضـم عملين غير منشـورين – نـصّ للكاتبـة ميسـاء بـاي، وشـريط مرسـوم لنـوال الـوراد –؛ وقسـم الحـوارات بمقابلتيـن، الأولى مـع المؤرّخـة مليكـة رحـال والثانيـة مـع المغنّيـة أمـال زان؛ وبـاب الملفات القضائيـة الذي يتنـاول قضيتان عن العنـف الزوجـي؛ وأمّـا عمـود سـارة حيـدر فيتنـاول بالتحليـل معـاداة النسـوية الجديـدة. ستكتشـفون في هـذا العـدد أيضًـا بابيـن جديديـن مكمّـلان لمجـالات البحـث السـابقة الذكـر؛ وهمـا: «تفكيـك»، تشـرّح فيـه وئـام أوراس ظاهـرة «الربـاط» وهـوس مجتمعاتنـا بالعذريـة؛ وأخيـراً بـاب «بورتريـه»، الـذي يسـرد سـيرة لالّا فاطمـة نسـومر خـارج الإطـار الأسـطوري المتـداول.

نـودّ أن نشـارككم أيضًـا شـعور الرّضـا والإنجـاز لعملنـا في هـذا العـدد، كمـا في العـدد التجريبـي، مـع فريـق نسـويٍّ بالكامـل. فشـكرًا لجميع من شـرفننا بمسـاهماتهنّ: إيمـان أماني، وئـام أوراس، نتاليا بن خالـد فينس، ميسـاء بـاي، حبيبة جحنين، نوال الـوراد، هنـاء مناصرية، نجـوى راهـم، ماجـدة زويـن، ليديـا سـعيدي، فريـدة بـن ويـس، فريـال خليـل، جميلـة حيـدر، ولويـز ديـب.

ولا يفوتنـا، ختامًـا، الإعـراب عـن امتناننـا للقـراء والقارئـات الذيـن تلقّـوا العـدد التجريبـي بصـدر رحـب واهتمـام جـمٍّ. نحـن نتطلّـع لتبـادل الآراء معكـم مجـدّدًا بشـأن هـذا العـدد الجديـد. ثـمّ، إنّنـا نتـوق إلى اليـوم الـذي سـنصدر فيـه العـدد الأخيـر للمجلـة، حيـن لـن يكـون مـن داعٍ حقًّـا لوجـود النسـوية! – لكـن، قيـل لنـا إنّنـا سـنلتقي قريبًـا، في العـدد المقبـل...

سعدية قاسم ومايا وعبادي

المساهِمات

سيَر

إيمان أماني طبيبة مستشفيات في الجزائر العاصمة. تعمل في المركز الاستشفائي الجامعي مصطفى باشا. شاركت في المجلة الإلكترونية *Intymag*.

وئام أوراس مناضلة نسوية وإحدى مؤسّستي موقع Féminicides Algérie («لا لقتل النساء - الجزائر»)، الذي يُعنى بإحصاء جرائم قتل الإناث في الجزائر منذ عام 2020، وهي حاصلة على شهادة في الصيدلة وطبّ الأعشاب. في عام 2019، أخرجت وئام أوراس الفيلم الوثائقي «بُنات الجبليَّة»، الذي يروي حيوات نساء عائلتها.

سارة حيدر صحفية وكاتبة عمود وروائية ومترجمة، صدر لها منذ 2004 ثلاث روايات باللغة العربية، وباللغة الفرنسية روايتين هما *Virgules en trombe* – «جموح الفواصل» (منشورات أبيك في 2013، ومنشورات Libertalia في 2018)، و*La morsure du coquelicot* – «عضة زهرة الخشخاش» (منشورات أبيك في 2016، ومنشورات Métagraphes في 2018).

نتاليا بن خالد-فينس أستاذة مشاركة في التاريخ المعاصر بجامعة أوكسفورد. صدر لها *Our Fighting Sisters: Nation, Memory and Gender in Algeria, 1954 - 62* («أخواتنا المناضلات: الوطن، الذاكرة، والجندر، 1954-1962») عامَ 2015، و*The Algerian War, the Algerian Revolution* («الحرب الجزائرية، الثورة الجزائرية») عام 2020. وهي صاحبة مشروع وثائقي بثلاث لغات، يحمل عنوان *Generation Independence* («جيل الاستقلال») على اليوتيوب.

ميساء باي كاتبة جزائرية. صدرت باكورة رواياتها *Au commencement était la mer* («في البدء كان البحر») عامَ 1996، وتلتها *Cette fille-là* («تلك الفتاة») في عام 2001، التي نالت عنها أولى جوائزها الأدبية، ثمّ سلسلة روايات أخرى، نذكر من بينها *Puisque mon cœur est mort* («لأنّ قلبي قد مات»)، الحائزة على جائزة Prix de l'Afrique Méditerranée في عام 2010، وHizya («حيزيّة») عام 2015. كما ألّفت الكاتبة مجموعات قصصيّة، منها *Nouvelles d'Algérie* («قصص من الجزائر») في 1998، و*Sous le jasmin la nuit* («ظل ليل الياسمين») في 2004، ومسرحيّتان *On dirait qu'elle danse* («وكأنها ترقص»)، و*Chaque pas que fait le soleil* («خطوات الشمس»)، وسيرة ذاتية بعنوان *L'une et l'autre* («أنا الأخرى»).

حبيبة جحنين شاعرةٌ، ومخرجة، ومدرِّبة في مجال السينما. تحاول من خلال تجربتها السينمائية التأمل في مكانة الحميمي في السياسي وتحركه نحوه. ساهمت منذ صغرها في إنشاء مساحات للإبداع والتفكير تتمحور حول السينما بوصفها فضاءً للتصوّرات ومساحة للإسقاطات الجماعية. في عام 2003، شاركت في تأسيس «لقاءات بجاية السينمائية» كرد فعل على حقبة ما بعد الحرب الأهلية. وتقيم منذ عام 2007 ورش عمل في صناعة الأفلام الوثائقية لفائدة الجزائريين والجزائريات الراغبين في صناعة فيلمهم الأول.

هناء مناصرية صحافية، أدارت القسم الثقافي في الجريدة اليومية الوطنية الجزائرية *Liberté* من 2015 إلى 2020. نالت شهادة الليسانس في اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة عنابة، وبدأت حياتها المهنية في الصحافة عام 2007 في جريدة *L'Est républicain*. بالموازاة مع كتابة تقارير حول مواضيع مختلفة تتعلق بالأحداث الراهنة (الحوار بين الثقافات، الهجرات...)، تعاونت أيضًا مع العديد من المجلات المتخصصة في الفنون والسينما على وجه الخصوص. في عام 2022، حازت جائزة أفضل إنتاج صحفي عن الهجرة، في إطار مسابقة نظمتها المنظمة الدولية للهجرة بالجزائر.

ليديا سعيدي مصورة وأمينة محفوظات الصور الفوتوغرافية. يركز عملها على قضايا الحرية، والقيود الاجتماعية، والذاكرة. وهي تعمل أيضًا على مشاريع رقمية تهدف إلى تثمين التراث الأرشيفي وتبادل المعرفة. ليديا عضوة في مشروع «أرشيف نضالات النساء في الجزائر».

نوال الوراد درست الهندسة المعمارية والسينوغرافيا، وعملت في الوسط المسرحي، ثمّ في الصحافة المكتوبة، قبل أن تنشر قصصها المصوّرة الأولى (كوميكس). صدر لها، من بين إصدارات أخرى، لدى منشورات داليمان *Les vêpres Algériennes* («صلوات الغروب الجزائرية») عام 2012، و*Bach to black* («عودة باخ إلى الأسود») عام 2013، و*Regretter l'absence de l'astre* («أسفٌ على غياب النجم») عام 2015؛ وعن منشورات Cambourakis القصة المصوّرة *Alger-Marseille, Allers-retours* («الجزائر العاصمة-مارسيليا، ذهاب وإياب») عام 2015.

نجوى راهم صحفية مستقلة ومراسلة لوكالة أنباء المرأة (JINHA) منذ ثلاث سنوات. وهي أيضًا عضو في موقع MedFemiswiya. وتعمل نجوى أيضًا محررةً في المجلة الثقافية *Foufoun*، ومنتجة في إذاعة Voix de femmes، وعضو في جمعية «المرأة في اتصال» ومؤسسة «الجريدة النسوية الجزائرية». في عام 2017، حازت درجةَ الماستر في الصحافة المرئية والمسموعة ووسائل الإعلام الجديدة في المدرسة الوطنية العليا للصحافة وعلوم الإعلام في الجزائر العاصمة.

ماجدة زوين صحفية ومديرة برامج في إذاعة Voix de femmes. عملت في قناة «الجزائرية»، وتتعاون حاليًا مع العديد من المنصات، بما فيها المواقع الإخبارية *Casbah Tribune* ورصيف 22. ماجدة هي أيضًا ناشطة في مجال حقوق المرأة.

هيئة التحرير

سيَر

فريدة بن ويس – مدقّقة لغوية للنسخة الفرنسية
مديرة مشاركة لمجلة «إيكوسيم» المتخصصة في الآثار والتراث الجزائري منذ 2012. شاركت في العديد من المشاريع الثقافية، بما في ذلك مشروع «متحف بلا حدود» (Museum With No Frontiers)، التابع للاتحاد الأوروبي، حول الفن الإسلامي في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وهي حاصلة على تكوين في التاريخ، وتخرجت من كلية الآداب بجامعة الجزائر.

فريال خليل – مترجمة المحتوى من العربية إلى الفرنسية
محامية ومستشارة قانونية، تعمل لدى جمعية وسيلة في الجزائر العاصمة منذ عام 2009.

لويز ديب – مصمّمة غرافيك
فنانة، تعمل مصممة ومدرّبة في استوديو تصميم الغرافيك «شامبو» (Studio graphique Chimbo) في الجزائر العاصمة، وهي متخصصة في مجالي النشر والهوية البصرية، كما تهوى تنظيم ورشات للإبداع الفني، نذكر من بينها: ورشة «مخبر الخطّ»، وهو مخبر لتصميم الخطوط في الجزائر العاصمة؛ وورشة «متنبر»، وهو مشروع بحثي يُعنى بالذاكرة الجماعية لخمس مناطق جزائرية، تجسَّد على أرض الواقع من خلال إقامات فنية وتأسيس جريدة في عام 2021.

جميلة حيدر – مترجمة ومساعدة تحرير (اللغة العربية)
مترجمة أدبية ومدققة لغوية وتُرجمانة، تقيم وتعمل في الجزائر العاصمة. تساهم جميلة أيضًا في الموقع الثقافي «رحبة»، وعملت سابقًا ناشرة في داري نشر جزائريتين وأستاذةً للغة الإنجليزية.

سعدية قاسم ومايا وعبادي – رئيستا التحرير
تحضّر سعدية قاسم لنيل درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا القانونية، وتتمحور أبحاثها حول قانون الأسرة. أخرجت فيلمها الوثائقي الأول «فلفل لحمر» في عام 2019. سعدية مناضلة نسوية في جمعية شبكة وسيلة في الجزائر العاصمة، ومهتمّة بتاريخ الحركة النسوية في الجزائر وبمسارات المناضلات النسويات. كما أنها تساهم في المشروع التعاوني «أرشيف نضالات النساء في الجزائر»، رفقة أوال حواتي وليديا سعيدي.

مايا ناشرةٌ، حاصلة على شهادة ليسانس في اللغة الفرنسية وآدابها، وماستر في النشر. التحقت بعد إتمام دراستها بمنشورات البرزخ، حيث عملت محررةً للعديد من الروايات والدراسات التي أصدرتها الدار. في عام 2018، أسست مايا وعبادي منشورات موتيف التي تنشر، من بين مطبوعات أخرى، مجلة «فصل» المتخصصة في النقد الأدبي الصادرة باللغتين العربية والفرنسية. تعمل حاليًّا، مع ليبَا موران وتودا بوعناني، على بحث ومشروع نشر حول الكتابات عن السينما في البلدان العربية خلال فترة ما بعد الاستقلال.

رحلة إلى الخروج وهاغا*

* عنوان رواية فرجينيا وولف الأولى، صدرت في عام 1915

لالة فاطمة نسومر
ما وراء الأسطورة

حبيبة جحنين

«نحن جزء من هذا الجبل، كالحجارة والصخور التي يتكون منها. ستغادرون، عاجلًا أم آجلًا، وسنبقى.»
لالة فاطمة نسومر للجنرال راندون[1]

فاطمة نسومر، نسوية في المقام الأول

ثانوية ابن سينا، مدينة بجاية، في قاعة الطعام بذلك المبنى الكئيب والغامض، الذي بني على صخرة خلال الحقبة الاستعمارية، هناك، سمعت اسمها لأول مرة.

نحن في فصل الخريف لعام 1985، وأنا طالبة بالثانوية ومندوبة القسم، ومنشطة نادي السينما النسائي لمركز الشباب «سوماري»، بحيّنا «حومة أوبازين». استدعتنا مديرة الثانوية، السيدة ليلى حسينة تريكي، إلى مكتبها، حيث طلبت حضور خمس طالبات من الأقسام النهائية لمساعدتها في تنظيم يوم إحياء ذكرى الأول من نوفمبر 1954 (تاريخ اندلاع الثورة التحريرية).

عزمت السيدة تريكي، التي كانت هي نفسها مجاهدة سابقة، على دعوة المجاهدات السابقات، «صديقاتها»، كما قالت، للإدلاء بشهادتهن حول نضالهنّ، وعن دور المرأة إبان ثورة التحرير؛ جاكلين ڤروج المولودة نيتر[2]، زهور زراري[3]، فاطمة بن عصمان المولودة زكال[4] (رحمهن الله).

تأثرنا بالاستماع إلى هؤلاء النساء الثلاث وأبهرنا بهن وهن يخبرننا عن مسيرتهن بنبرة متواضعة ومتحفظة. انحبست أنفاسنا إجلالًا، في ذلك المكان الصاخب عادةً. ما زلت أتذكر الوقار المنبعث من كلامهن.

أخبرننا عن روابطهن المعقدة مع عائلاتهن وعواقب قرارهن الانخراط في الثورة، وسنوات السجن والتعذيب، وعن تنظيم المقاومة... كنّا نتخيّل، جملة بعد جملة، وكلمة بعد كلمة، في أعينهن وفي كيانهن وفي إيماءاتهن، تلك الشّابات اليافعات اللاتي كنّ. لقد كنَّ في سنّنا عندما انضممن لصفوف المقاومة والكفاح المسلح، وقمن بعمليات مختلفة من أجل تحرير الجزائر. في لحظة ما، ساد نوع من التوتر اللطيف قاعةَ الطعام المزدحمة بطالبات الثانوية وبعض الطلاب.

فيما يخصني، وصل توتّري وتركيزي إلى ذروتهما عند سماعي اسم فاطمة نسومر... وأنها ولدت في عام 1830! زعزعت تلك اللحظة تصوري عن انخراط النساء في مختلف النضالات، وجعلتني أدرك ذلك

1. سعدون سليمان، مقتطف من *Lalla N'Ouerdja la Révoltée* («لالة نورجة الثورية»)، دار نشر ميديا اندكس، 2019.
2. جاكلين ڤروج نيتر (1919-2015)، مناضلة شيوعية فرنسية ومناهضة للاستعمار الفرنسي، عضوة في جبهة التحرير الوطني ومجاهدة.
3. زهور زراري، (1937-2013)، مناضلة جزائرية طالبت بالاستقلال، مجاهدة بقصبة الجزائر، ثم صحفية وكاتبة.
4. فاطمة زكال (1928-1990)، مناضلة قومية ومجاهدة.

التاريخ المغيَّب عمدًا، والإنكار الذي يحيط بالتزامهنّ الوطني، في فترات مختلفة من تاريخ الجزائر.

أخذت السيدة تريكي تروي مسيرة هؤلاء الأيقونات، ومقاومتهن للغزو الاستعماري الفرنسي العنيف. تحدثت عن فاطمة نسومر، المرأة القبائلية، الجبلية، التي انضمت للمقاومة ضد غزو الجيش الاستعماري ونظمتها، واصفةً إيّاها بـ «أسطورة حقيقية».

استمعت بفضول واهتمام كبير لبقية عرض المديرة، التي سلطت الضوء على اختيارات هذه المرأة الناشئة في عائلة محافظة ومرابطة، ما يدل على عزمها القوي على جعل صوتها مسموعا، رافضة الزواج وذلك المصير المحتوم تقليديا للنساء. إن انخراطها في صفوف المقاومة ضد الغزو الاستعماري المسلح هو ما سيبقى أثره راسخًا في الأذهان، جاعلا منها «شخصية أيقونية» ستصمد أمام اختبار الزمن، على الرغم من الصمت والنسيان والطمس والإنكار. فكتبنا المدرسية وقتها لم تأت على ذكر قصة هذه المرأة مطلقًا.

في طريق عودتي إلى المنزل، رافق خطواتي عرض ليلى حسينة تريكي، وشهادات زهور زراري وجاكلين ڤروج وفاطمة بن عثمان زكال، وشغلت كلماتهنّ فكري.

حين وصلت إلى المنزل، سألت يمّا عمّا إذا كانت تعرف فاطمة نسومر وإذا كان بإمكانها إخباري بما تعرفه. فتوجهت إلى خزانة الكتب وسلمتني كتاب الطاهر أوصديق[5] «لالة فاطمة نسومر، سرد»، وقالت لي «صدر منذ عامين، في 83 على ما أعتقد». نظرت إليها بعيون الدهشة، حتى خمّنت أفكاري: «كيف فلت مني هذا الكتاب؟». في مساء ذلك اليوم، التهمت الكتاب ذي المائة صفحة التهامًا، وأعددت بعدها بحثًا عرضته بالثانوية، بعد بحث آخر عن قانون الأسرة. في تلك الفترة، لم أكن أعرف حركة نضال المرأة من أجل حقوقها، كما برز خلال السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الماضي، لاسيما بشأن قانون الأسرة الذي سُنَّ في عام 1984، على الرغم من احتجاجات النساء ومعارضتهنّ، بخاصة المجاهدات السابقات منهن.

بصفتنا طالبات بالثانوية، كان وضعنا كنساء يشغل حياتنا بعمق، مثلما كانت تشغلنا القضايا النسوية، حتى لو لم نكن على دراية كاملة بمدى الضرر الذي مسّنا.

بعد حصولي على شهادة البكالوريا، انتقلت إلى الإقامة الجامعية بالجزائر العاصمة، ليس فقط من أجل مزاولة دراساتي العليا، ولكن أيضا لمقابلة النسويات، لاسيما عضوات مجموعة «أحلام»، اللاتي كنّ ينظمن عروض نادي سينما غير مختلط بمتحف السينما الجزائرية في العاصمة، وكذلك اجتماعات نسائية بحديقة صوفيا بالجزائر الوسطى. تسارعت عجلة التاريخ، على الأقل وفق رؤيتي

5. الطاهر أوصديق، *L'La Fad'ma n'Summer. Récit* («لالة فاطمة نسومر، سرد»)، دار نشر لافوميك، 1983. أعيد نشره في عام 2011 لدى المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

للأمور، وتوسعت الحركة النسائية[6] ونُظّمت، إلى أنّ حلّ عام 1988 محمّلاً بالنضال والقمع والتعذيب والتنظيم الذاتي والتعبئة.

خلال مظاهرة 8 مارس/آذار 1989، تحشدت الجمعيات والائتلافات النسائية من جميع أنحاء البلد في شوارع العاصمة، وصدحت أصواتنا بالنص التالي:

جزايريات أحرار

ما يقبلوش العار

ويواصلو المشوار

حتى الانتصار

الديمقراطية

حقوق نسوية

آ فاطمة، آ فاطمة، أ فاطمة نسومر...

الديمقراطية

حقوق نسوية

و مازلنا ثوّار

احتوت هذه الجمل القليلة التي تغنت بها مئات النساء لوحدها على مجمل برنامج نضال المرأة من أجل تحررها. كلمات تكررت دون كلل ولا ملل، إلى يومنا هذا، وبعد أكثر من ثلاثين سنةً، يبقى للحرية والكرامة والديمقراطية طريقٌ تسلكه لتحقيق النصر، نحو احترام حقوق المرأة.

لماذا التذرع باسم فاطمة نسومر؟ أكنّا نطلب منها الحماية؟ أكنّا نطلب الانتماء لرمز المقاومة الذي تمثله؟ أكنّا ندرك أن فاطمة تحدّت العائلة والقرية لتحقيق المصير الذي اختارته لنفسها؟ تتذكر شوارع الجزائر العاصمة ذلك وكذلك نحن النسويات.

في العدد الأول من مجلة الجمعية النسائية لمدينة تيزي وزو، «ثيغري نتمطوث» (صرخةالنساء)، لشهر نوفمبر/تشرين الثاني 1990، يمكننا قراءة نص غير موقع بعنوان «زيارة إلى فاطمة نسومر»، يسرد تفاصيل رحلة نظمتها الجمعية لزيارة الأماكن التي عاشت فيها فاطمة نسومر وتلك التي بصمتها بمرورها. أذكر الفقرة الأخيرة منه هنا: «لقد لاحظنا أن فاطمة تُذكر في أهازيج قريتها كشخصية أسطورية. يُحكى عن شجاعتها وقوة شخصيتها، ولكن بما أنها امرأة فإن الأضواء تُسلّط أكثر على عفتها. لذا، وباقتناع شديد، يحكى بين النساء بأن جنرالًا فرنسيا اقتحم زنزانتها، بنيّة يمكنكم تخمينها، تحول إلى امرأة بينما كانت هي تطير في هيئة يمامةٍ بيضاء». يعدّ هذا النص مؤثرًا بما يعالج من مواضيع؛ فهو يُظهر في جوهره كيف تُروى القصص المتعلقة بالنساء، التي بقيت عالقة في الذاكرة الجماعية، على نحو يبرز حرصهن على شرفهن، وهذا على الرغم من مرور الوقت.

في عام 2002، اقترح عليّ نبيل فارس أن أحرر نبذة عن سيرة ومسيرة فاطمة نسومر لنشرها في قاموس فرنسا-الجزائر[7]. ويعود مرة أخرى اسم هذه المرأة إلى لظهور في حياتي ليمنحني الفرصة للتعمق في بحثي. لقد فوجئت بعدم وجود الكثير من المراجع عن هذه الشخصية الرمز؛ حيث تُحيل

6. فريال لعلامي، «تطور الحركة النسوية بين 1989 و1991»، مجلة «لبلاصة»، العدد 0، مارس/آذار 2022.

7. حبيبة جحنين، «فاطمة نسومر»، dictionnaire *L'Algérie et la France*(قاموس «الجزائر وفرنسا»)، تحت إشراف جنين فيرداس لورو، دار نشر روبرت لافونت، 2009.

Page 11

CULTUREL

VISITE CHEZ "FATHMA N'SOUMER"

Le choix du site de Fathma n'soumer pour notre première sortie aérée a été symbolique pour nous association de femmes; il nous a été donné de découvrir l' épopée d'une femme kabyle ayant réussi à s'imposer et à imposer ses idées. La présence de monsieur Bittam nous a été bénéfique par sa bonne connaissance du personnage et de la région.

Nous avons quitté Tizi-ouzou à 8h du matin en direction de Soumer. Nous avons sillonné les crêtes de kabylie dans une ambiance très animée et la tête pleine de rêves d'un passé que nous ignorions presque toutes.

Nous avons fait plusieurs arrêts notamment sur des lieux où se sont déroulés les batailles de 1871 contre l'armée Francaise.

A 10h 30 nous étions à Tichekirt. Tichekirt , nom kabyle du chêne , est le lieu d'une bataille à laquelle a participé "Fathma n soumer" le 17 au 19 juillet 1854. Nous y avons découvert des tombes d'époque ignorées et ensevelies en partie par le monument érigé en l'honneur des chouhadas de 1954 - 1962. De cet endroit, on pouvait admirer Tiurtatin Nurdja (gouffre qui servait d'abri à Fathma n' soumer et à ses combattants et qui ferait le bonheur de spéléologues. tout près de là se dresse le pic d'Azru n thur, un monument religieux y est construit.

Ce lieu est historique , c'est là que les responsables des patrouilles militaires ont débattu de l'intégration de "Fathma n soumer" et de sa désignation à la tête des troupes.

A 11h 50 nous étions au village de Fathma. Nous avons déjeuné au pied de "Taqubets" de son père datant de 1850.

A 12h 20 nous étions à Soumer village situé en contre bas au pied du djurdjura; avant d'amorcer la descente nous avons découvert un monument érigé il y a une dizaine années en hommage à Fathma n'soumer, commémorant ses faits guerriers (1851-1857).

Dans le petit village de Soumer, nous avons découvert avec beaucoup d'émotion la maison en pierre du père de Fathma et la petite pièce sans fenêtre conservée telle quelle où il exercait sa profession d'instituteur. On y découvre des objets d'époque : le portrait de Fathma et un coffret en métal lui ayant appartenu. L' accueil des descendants de la famille de Fathma n'soumer fut des plus chaleureux (rappelons que Fathma n'a pas de descendants et que son mariage forcé et non consommé n'a duré que trois jours). Pendant un moment les femmes ont exprimé leurs sentiments en chantant et dansant; puis une limonade fut servie.

De cet endroit le pic "Azru n thur" nous parut plus proche et plus imposant. Au pied de ce pic on pouvait apercevoir le village "TAKHLIDJT AT ATSU " , lieu où Fathma n , soumer se réfugia et fut capturée par un général Francais.

La dernière halte se fit au village "Khanssous" où le "cheikh hadj azouz at ali", agé de 87 ans nous y attendait pour nous parler de Fathma et répondre à nos questions.

Pour clôturer notre longue et riche promenade, nous avons visité un moulin à eau conservé comme élément du patrimoine culturel. La famille propriétaire a bien voulu nous faire une démonstration.

Fatiguées mais heureuses, les femmes chargées de fleurs , de pierres ramassées ça et là, sont remontées dans le bus pour le retour.

صفحات من العدد الأول لمجلة جمعية «ثيغري نتمتوث» (صرخة النساء)، نوفمبر/تشرين الثاني 1990، تيزي وزو. وثيقة خاصة ملك لسميّة صالحي. أرشيف نضالات النساء في الجزائر.

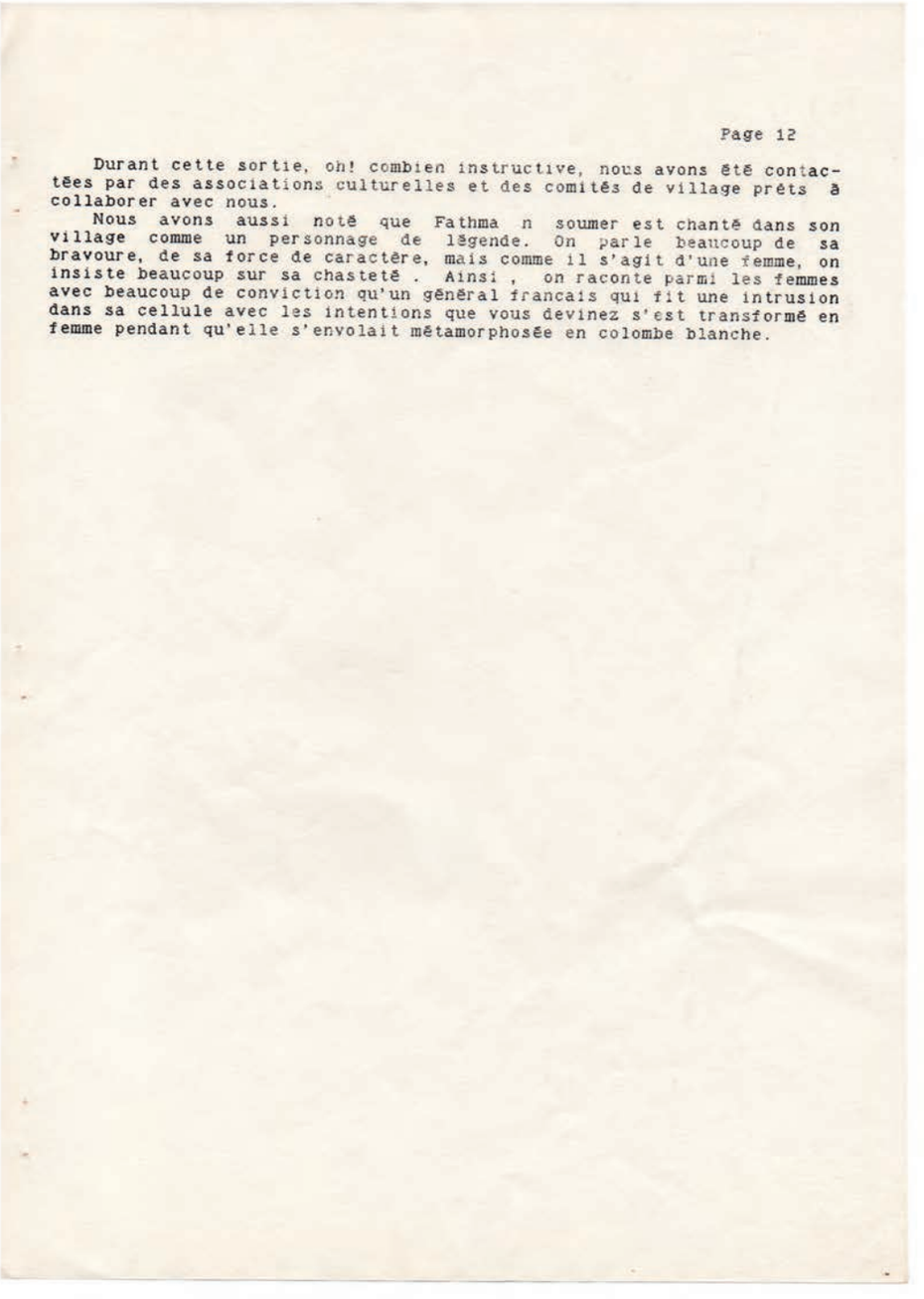

Page 12

Durant cette sortie, oh! combien instructive, nous avons été contactées par des associations culturelles et des comités de village prêts à collaborer avec nous.

Nous avons aussi noté que Fathma n soumer est chantée dans son village comme un personnage de légende. On parle beaucoup de sa bravoure, de sa force de caractère, mais comme il s'agit d'une femme, on insiste beaucoup sur sa chasteté . Ainsi , on raconte parmi les femmes avec beaucoup de conviction qu'un général francais qui fit une intrusion dans sa cellule avec les intentions que vous devinez s'est transformé en femme pendant qu'elle s'envolait métamorphosée en colombe blanche.

صفحات من العدد الأول لمجلة جمعية «ثيغري نثمتوث» (صرخة النساء)، نوفمبر/تشرين الثاني 1990، تيزي وزو. وثيقة خاصة ملك لسميّة صالحي. أرشيف نضالات النساء في الجزائر.

المقالات والكتب القليلة التي تصف مسيرتها والمعارك التي شاركت فيها إلى كتاب إيميل كاري[8] والروايات والشهادات الشفوية التي لم يأت عليها الدهر وتناقلتها إلى أن حطّت عندنا. هناك أيضا كتاب الطاهر أوصديق الذي يخبرنا عن جوانب مختلفة من حياة فاطمة، ويعرض تفاصيل تُعلي هذه المرأة إلى منزلة البطولات؛ امرأة شابة تتحدى التقاليد والمحظورات، وتختار طريق اليقين والمقاومة.

لالة فاطمة، قائدة عسكرية

تذكر معظم القصص التي تتناول سيرة فاطمة نسومر أنّها الأخت الصغرى لأربعة إخوة ذكور، بينما يقول الطاهر أوصديق في كتابه أنّها تنتمي لعائلة كبيرة متكونة من خمسة إخوة وأختين. يبدو لي أن العناصر المنقولة لنا من حياة هذه البطلة، العناصر والحقائق التي تُسلط عليها هذه القصص الضوء، تساهم في تكوين الصورة التي يودّ الرواة رسمها؛ صورة امرأة سامية وصوفية. يعتبر تحيز الطاهر أوصديق مختلفًا، فهو في كتابه يضع الشخصية في سياق السياسة، وتقاليد ذلك الوقت، ممّا يجعلنا نتخيّل بسهولة امرأة تتصارع مع جميع الحدود التي تفرضها العائلة والقرية، لترسم دربها بنفسها وتتْبع صوتها الداخلي.

تروي جميع المصادر أنّ لالة فاطمة نسومر كبرت بقرية ورجة (المسمّاة الآن أبي يوسف). ولدت سنة 1830، السنة التي شهدت الحملة العسكرية الفرنسية على الساحل العاصمي؛ الغزو الذي امتدّ شيئا فشيئا إلى المناطق الأخرى كمنطقة القبائل. كان أبوها سي أحمد محمد متعلّمًا، كبير عائلة من الأعيان من ملّاك الأراضي، وكان شيخ مدرسة قرآنية تنتسب إلى طريقة سيدي محمد بن عبد الرحمان بوقبرين. تابع إخوتها الخمسة التعليم القرآني بالمدرسة العائلية، واستُثنت فاطمة وأختيها كونهن بنات. لكنّ فاطمة دأبت على التسلّل من البيت والجلوس تحت نافذة المدرسة القرآنية لتتعلّم القرآن، واللغة العربية كتابةً وقراءةً. نشأت وإخوتها على حب الأرض ورفض الغزو الفرنسي.

«في السادسة عشرة من عمرها، كانت متوسطة القامة وكاملة، ذات جسم قوي ومشية مرنة. (...) ذات وجه بيضاوي الشكل وبشرة فاتحة (...) وشعر وافر ينسدل على ظهرها ليلامس خصرها؛ إذ كانت تفضل عدم ربطه (...) ذات عينان زرقاوان واسعتان، تشعّان بالحنان والطيبة، قادرتان على إلهام الاحترام لدى أي شخص يقترب منها. (...) كانت مغرمة بالملابس ولا تتردد في إبداء سعادتها عند ارتدائها *الجبة*، *والفوطة* الحمراء المصنوعة من الحرير، التي تميّزها عن رفيقاتها (...)»، هكذا يصفها الطاهر أوصديق في كتابه؛ امرأة ذات جمال خاطف، تتمتع بشخصية قوية ومهيبة.

أمام عروض الزواج العديدة، كانت فاطمة تردّ دائمًا برفض قاطع. ويقال أنّها منذ بداية رفضها للمصير الذي أراده لها والدها وعائلتها، أي ايجاد زوج وتكوين أسرة، أخذت تعتزل الناس وتحبس نفسها في غرفتها، رافضة الأكل والشرب، كنوع من المقاومة... «أدّى تمرّدها على سلطة العائلة إلى فقدان الحظوة لديهم واعتبارها مصدر عار. فجعلوها في مرتبة العاصية، وأجبرت على العيش محبوسة في غرفة ضيقة ومظلمة للتفكير والتأمل وتقبّل المصير الذي أُختير لها.»

خرجت فاطمة من العزلة شخصا مختلفًا، ذا مزاج يميل إلى الوحدة، وبدأت صورتها كامرأة فريدة من نوعها ترتسم بين سكان قبيلتها. لم يُجد تمردها ومقاومتها نفعًا إذًا، وزُوّجت قسرا من أحد أقاربها في عمر السادسة عشرة. غير أنّها، مرة أخرى، لم تستسلم، وحرّمت نفسها على زوجها وأغلقت على نفسها باب الغرفة لتقضي أيامها بين الصلاة وقراءة القرآن. فقدت عائلة زوجها صبرها وأعادتها إلى بيت والديها. وعلى الرغم من الانفصال، رفض زوجها تطليقها، بدافع الحقد والانتقام، كما قال البعض. كان الجميع مقتنعًا بأن فاطمة تعاني من مرض عقلي يجعلها هشّة ولا يمكن الدنو منها.

8. إميل كاري، *Récits de Kabylie. Campagne de 1857* («نصوص عن منطقة القبائل. حملة 1857»)، باريس، 1858.

بعد رجوع فاطمة إلى بيت أهلها، انخرطت أكثر في حياة الزاوية التي يرأسها والدها، وذلك حتى وفاته. بعدها، قررت مغادرة قريتها التي أصبحت خانقة لها ولا تسع طموحاتها. حطّت رحالها بقرية سومر، عند أخيها الأكبر سي طيب، الذي ظلت قريبة منه منذ نعومة أظافرها. كان سي الطيب يُدير مدرسة قرآنية هناك، وكان من أتباع الطريقة الصوفية الرحمانية.

فاطمة، التي سميّت نسومر نسبة إلى هذه القرية، أصبحت تدريجيًّا واحدة من ركائز المدرسة والطريقة بفضل أنشطتها مع الأطفال والفقراء، ومعرفتها بالقرآن وتحلّيها بالتقوى، ما منحها مكانة خاصة بين السكان، الذين بدأوا ينظرون إليها كوليّة صالحة، كما وفّرت لها المكانة التي تحتلها لدى أخيها الحماية من الضغوط الاجتماعية. وهكذا، حضت شيئًا فشيئًا بالمزيد من القبول والاحترام. كانت لم تتردّد قطُّ في مشاركة أفكارها والتصرف وفقا لمبادئها وقناعاتها، ممّا أعطاها مكانة مهمة بين نساء ورجال مجتمعها، الذين كلما عرفوها أكثر قدّروها أكثر؛ فخيارات حياتها جعلتها انسانًا ذا مصير شبه مقدس.

منذ أن استقرت في سومر مع أخيها في عام 1850، عاشت فاطمة حياة مكرسة للالتزام والتضامن والتفاني. كان الجيش الفرنسي قد شرع يطوق تدريجيا منطقة القبائل ابتداءً من عام 1845. استشعرت فاطمة وأخوها الخطر المحدق بالمنطقة، فطفقا ينضمان المقاومة. وضعت فاطمة، بالتعاون مع النساء الأخريات، نظاما لجمع الطعام والأسلحة والملابس؛ وأخذت تتنقّل إلى القرى الأخرى لتنظيم الاجتماعات وحشد القرويين لقضية المقاومة، والدعوة إلى تأسيس جيش لمواجهة الغزو الاستعماري.

ويبدو أن لقائها مع محمد لمجد بن عبد المالك، المعروف باسم بوبغلة، كان منعطفًا مهمًا في مسيرتها مقاومةً وقائدةً حرب ضد الغزو الفرنسي. كان بوبغلة، الذي ولد بسعيدة، قد خاض عدة معارك ضد القوات الفرنسية، التي كانت تبحث عنه وتلاحقه. غير أنّه وجد ملاذًا في قلعة بني عباس (البيبان)، والتحق بالمقاومة بجبال جرجرة. تجدر الإشارة إلى أنّ فرنسا احتفظت ببقايا جثث المقاومين الجزائريين، بما فيهم الشريف بوبغلة، في متحف التاريخ الطبيعي بمدينة باريس، إلى غاية تاريخ 5 جويلية/تمّوز 2020، تاريخ استرجاعها وإعادة دفنها بمربّع شهداء الثورة التحريرية بمقبرة العالية، بالجزائر العاصمة.

أثّرت العلاقة التي جمعت بين فاطمة نسومر وبوبغلة العديد من القصص. ففي الروايات والحكايات الشعبية التي تسرد مآثرها البطولية، يحكى أنها رفضت عرضه للزواج، قائلةً إنها ترغب في البقاء حرة ودون الارتباط بأي رجل.

خلّد الرسام المستشرق هنري فيليكس إيمانويل فيليبوتو (Emmanuel Felix Henri Philippoteaux) هاتين الشخصيتين البارزتين للمقاومة في لوحةٍ رسمها بعد وفاة فاطمة نسومر. يعود تاريخ اللوحة إلى عام 1866، وهي موجودة الآن في قصر المرادية بالجزائر العاصمة. نرى فيها فاطمة على حصان وهي تحمل بندقية، إلى جانب الشريف بوبغلة وعدد من رفاقهما في المقاومة. صورها الرسام نفسه أيضًا في لوحته الشهيرة الأخرى، حيث نراها واقفة في المقدّمة، في وضعية محاربة تتحدّى الجيش الاستعماري، وموجهة بندقية نحو أعدائها.

ومع ذلك، اتفقت جميع الروايات على عدم مشاركة فاطمة نسومر بشكل مباشر في المعارك المسلحة، بل وصفتها بالمخطّطة البارعة، التي أجادت إعداد المعارك، وحشد الجيوش، وتنظيم صناعة الأسلحة ونقلها. بفضل عزمها وعزيمتها، قُبلت في مجالس الرجال، وروّج القرويون كلمتها وتوصياتها وخُطبها. وفُسّرت أحلامها على أنها رسائل من الله، ممّا جعل جماعتها يطلقون عليها لقب «النبيئة». أما من الجانب الفرنسي، فلقد لقّبوها بـ«جان دارك جرجرة». «إن قداسة النبيئة معروفة للقاصي والداني (...)

إنها تعرف (...) كيف تتّقي جميع المخاطر، ويمكنها، إن شاءت، دحر الغزو الفرنسي!»، هذا ما كتبه المستكشف والسياسي إيميل كاري (Carrey Émile) في عام 1857. ويضيف أنّها «وحدها النبيئة، المتفرّدة بين أبناء مجتمعها، من بلغت عنايتها بمظهرها حد الأناقة. وبالرغم بدانتها المفرطة، إلا أن ملامحها جميلة ومعبِّرة. والكحل الذي يرسم حاجبيها ورموشها يزيد عينيها السوداوين الكبيرتين كبرا. (...) تتزيّن بالأساور والدبابيس والمجوهرات أكثر من الأوثان القديمة.» ويصفها على أنّها كانت ملفوفة بأوشحة ملونة، ومتبرّجة بالجواهر، ومخضّبة بالحناء «بينما كانت تقود المسبّلين، الماضين طوعًا إلى الموت، في المعركة».

استمرت معركة سباو العلوي في عام 1854 لمدّة شهرين، وأصبحت ذكرى خالدة أدخلت فاطمة نسومر سجلّ الأساطير، وألحقت بالمارشال راندون، الذي كان يقود الجيش الفرنسي المسؤول عن غزو منطقة القبائل، هزيمته نكراء. «كيف لجيش تقوده امرأة، سلاحه من سكاكين وخناجر، أن يدحر جيشًا فرنسيًّا كبيراً، مدجّجًا بالأسلحة؟»[9] لكنّ الجيش سيعود سريعًا، محمّلًا بالعدة والعتاد والجنود، لينال من لالة فاطمة وجيشها، ومن المقاومة.

لم تنقص وفاة الشريف بوبغلة عام 1854 في أي حال من الأحوال من يقين فاطمة نسومر وعزمها؛ واصلت تنظيم المعارك وحشد القبائل لقطع الطريق أمام تقدّم الجيش الفرنسي. وفي 27 جويلية/تمّوز 1857، في خضمّ معركة إشريدن، أُعتقلت فاطمة ووُضعت تحت الإقامة الجبرية بزاوية في بلدية العيساوية، قرب تابلاط بولاية المدية، في ظروف سيّئة. ضمّن الطاهر أوصديق في كتابه ترجمة الأشعار التي كتبتها نساء قرية سومر عن اعتقال لالة فاطمة:

ها قد أتى الفرنسي
يتقدم متتبعا مجرى الماء
وعندما وصل إلى سومر
قطع أشجار الرّمان
كانت نساء سيدي أحمد بدون حجاب
عندما دخل النقيب المنزل
ها قد أتى الفرنسي
يتقدم متتبعا الأرض المنبسطة
عندما وصل إلى سومر
قطع أشجار التين
وأخذ لالة فاطمة
كيف يمكننا اليوم نسيان ما حدث؟
ها قد أتى الفرنسي
يتقدم متتبعا الينابيع
عندما وصل إلى سومر
قطع أشجار الصفصاف
وأخذ لالة فاطمة
كيف بإمكاننا ابتلاع الأكل.

9. إيميل كاري، المرجع نفسه.

توفيت لالة فاطمة نسومر في أسرها عام 1863، عن عمر الثالثة والثلاثين سنةً، ودُفنت بمقبرة سيدي عبد الله، بالقرب من مكان احتجازها، في قرية العيساوية، والتي بقيت طويلا مكانا للزيارة. وحُوّلت زاوية الرحمانية بتورثاثين، بلدية العيساوية، إلى متحف مخصص للالة فاطمة، حيث يمكن للزائر مشاهدة، من بين أمور أخرى، تجسيدا يحاكي مشهد اعتقالها. وفي عام 1995، نقلت السلطات الجزائرية رفاتها إلى مربّع الشهداء بمقبرة العالية (الجزائر العاصمة)، معترفة بذلك بمقام المقاوِمة للالة فاطمة نسومر.

لا شكّ في ضرورة تجديد الخطاب عن النساء الجزائريات الرائدات والمجاهدات، والشخصيات البارزة الأخرى من تاريخنا النسوي، لكن لا بدّ أن نتذكر أنهن عشن عصرهنّ، متخطّيات الحدود التي رُسمت للنساء وقتها، والتي كانت تقلل من شأنهن وتحصرهنّ في إطار منزل مغلق ومسيَّر. ينبغي تجديد الخطاب حتى نتجاوز العبارات الجاهزة والاحتفالات البطولية، ونرتقي بمستوى سرد قصص حياتهن لنسلط الضوء على مدى تعقيد مسار هؤلاء النساء ومدى قوة خياراتهن. من خلال انخراطهن في صفوف المقاومة، تحدَينَ النظام الأبوي بقدر ما تحدين الهيمنة الاستعمارية؛ وإعادتهن النظر في الأغلال العائلية والقبلية كانت أول خطوة لجلّهن نحو التحرر، نحو تحررنا.

لا، لم تعدن إلى المواقد كما تدّعي تلك العبارة المكرسة، التي تهدف إلى مواصلة التقليل من شأن أسلافنا من النساء وتغييبهنّ، بل بقين دائماتٍ عبر الأجيال لزرع بذرة التحرر.

أغرقتني كتابة هذا النص في سنوات الثمانينيّات والتسعينيّات من القرن الماضي، ورافقني عاطفة قوية طوال فترة استحضاري لسيرة لالة فاطمة. علاوة على رمزية هؤلاء النساء اللاتي نحتن نسويتي، وقوتهنّ وأهميتهن، أشعر بالانتساب لهن. ما زلت أسترجع وجوه المجاهدات السابقات اللواتي قابلتهن في سنوات التسعينيات، خلال مظاهرات الحركة النسائية واجتماعاتها؛ وينتابني الندم عن تقصيري في إخبارهن بأننا نحبهن لكل ما هنّ عليه وكل ما ورّثننا إياه. علينا فقط أن نستمر في الحديث عنهن لإحياء ذكراهن، وقوتهن وهشاشتهن وحساسيتهن ومسيرتهن.

واحدة

أخرى*

حوارات

مليكة رحال
آمال زان

* سيرة ذاتية لمايسة باي، صدرت عام 2010

«بمقدور أي شيء أن يصنع التاريخ»

حاورتها: مايا وعبادي

مليكة رحال مؤرخة، مكلفة بالأبحاث بمعهد التاريخ المعاصر في المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا. أتابع منذ بضع سنوات أعمالها ومداخلاتها العديدة في الجزائر. أردت من خلال هذا الحوار أن تحدثنا عن مسارها وأسلوبها المُجَدد والفريد، بل والمتمرد، في كتابة التاريخ. تناولنا الأبعاد الاجتماعية والسوسيولوجية التي تضفيها على عملها، ومعوبة بناء تأريخ لما يحدث حالياً في الجزائر، كما شاركتنا رغبتها في مشاركة معارفها ونقلها.

تصوير: ليديا سعيدي

بدايةً، أود أن تحدثينا عن مسارك. كبرتِ ودرستِ في مدينتي تولوز وبوردو بفرنسا. هل تتذكرين مثلا درسك الأول في تاريخ الجزائر؟

أظن أن أول درس حضرته كان حول «الحرب الجزائرية» في المتوسط، وكان عمري آنذاك أربع عشرة سنة، لكنني لا أذكر مضمونه. علمت لاحقًا أن بعض الأساتذة كانوا يرفضون تدريس هذه الحقبة التاريخية بالرغم من إجباريتها. في سن السابعة عشرة، أي في نهاية الطور الثانوي، عادت الحرب إلى البرنامج؛ وأتذكر أنني لم أصدق كل ما كان يقال، أو بالأحرى لطالما تخيلت وجود رواية أخرى وتفاصيل مهمة لم تكن تُذكَر. في الفترة نفسها، أصدر بنيامين ستورا فيلمًا وثائقيًّا في أربعة أجزاء بعنوان «السنوات الجزائرية»، بُثَّ في التلفزيون في ساعة متأخرة من الليل. فقمت بتسجيله للعودة إليه كدرس بديل أو تكميلي، إذ إنّه كان غنيًّا بالتفاصيل.

وماذا عن عائلتك؟ هل كنتم تتحدثون عن الحرب التحريرية؟

ربما كنا نتحدث في الموضوع ككل العائلات المغتربة، بالرغم من كوننا حالة استثنائية بعض الشيء؛ إذ ولدت لأب جزائري وأم أمريكية، وكنا نتحدث باللغة الإنجليزية. على عكس الأسر المغتربة، التي نادرًا ما كانت تنتمي للطبقة الوسطى، كانت أمي معلمة للغة الإنجليزية وأبي باحثًا في الفيزياء. إذن، كان الموضوع محل تخمين في غالب الأحيان. في الواقع، يمكنني القول إنني عرفت بوجود الحرب دون أن يخبرني أحد، وأنا في السابعة من عمري، عندما تشاجرت مع صديقتي المقربة، إذ قلت لها «نحن الجزائريون من ربحنا الحرب»، فأجابتني: «لا، بل الفرنسيون». وعندما احتكمنا إلى معلمتنا، كنت أتوقع أن تنفي وجود حرب أصلًا، لكنها أجابتنا أن الجزائريين هم فعلا من انتصروا. كانت امرأة مطلقة تعيش مع جزائري، وأدرك اليوم أنها أحاطتني بطيبة كبيرة في مجتمع لم يكن متسامحًا مع أبناء الزيجات المختلطة. على كل حال، كانت تلك أول مرة تيقنت فيها من وجود الحرب التحريرية. ولكني أتذكر كذلك بعض الشذرات، لا أعرف متى بالضبط علمت بأن أحد أعمامي مات شهيدًا، ومرة، عندما علم أبي أني لا أركز جيدا في المدرسة، حدثني عن اضراب الطلبة الذي شارك فيه وألح علي في التركيز في القسم. هو من مواليد 1943، وسليل عائلة من غرب الجزائر استقرت في المغرب. الطفلة التي كُنتها لم تستوعب جيدًا معنى هذا الاضراب. أتذكر كذلك عندما حدثني متأثرًا عن مظاهرة 17 أكتوبر/تشرين الاول 1961، قائلا: «لقد كنا ننتشل جثث الجزائريين من نهر السان حتى مدينة رُوان». ولم أفهم مرة أخرى، إذ قلت لنفسي أن نهر السان يقع في فرنسا، بينما الحرب كانت تدور في الجزائر.

كثيرا ما تتحدثين عن ميولك لعلم الاجتماع وللتاريخ الاجتماعي، لكنك فور نيلك شهادة البكالوريا، سجلت مباشرة في قسم التاريخ...

أمضيت أولًا سنتين في قسم تحضيري في العلوم الاجتماعية، درست خلالهما علم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا. ثمّ كان علينا اختيار حقل الاختصاص المستقبلي، فقررت التسجيل في المادة التي كنت أرتادها بمتعة وهي التاريخ. في الوقت نفسه، كان التاريخ يبدو لنا مادةً رجعية مقارنة بعلم الاجتماع، الذي كان يتميز بالنقدية، وكنت أنزعج كثيرا من طابع «التاريخ القديم» السائد آنذاك. ولربما حدست في تلك الفترة بإمكانية كتابة التاريخ مع إضفاء بعد اجتماعي أكثر بروزًا، بالرغم من افتقار الدراسات الاجتماعية التي كنا نقوم بها آنذاك إلى بعد زمني، فغالبًا ما كنت أشعر بالملل وأنا أستجوب سكانا من مدينة بوردو حول ممارساتهم السينمائية! لقد كان ينقصني عمق زمني وتحليل للذاكرة وتواصل مع باقي العالم...

بعد سنتين إذن قررت التخصص في علم التاريخ؟

بالفعل. وأدركت تدريجيا وجود أشكال مختلفة للتاريخ؛ فبالموازاة مع وجود تعليم مترهل وأناس يمارسون تاريخا سياسيا لم يكن يهمني، كان هناك مختصون في العصور الوسطى الأوروبية أو العصور القديمة، يمزجون بين التاريخ والأنثروبولوجيا على نحوٍ مشوق للغاية.

سأتذكر دائما ذلك الأستاذ في التاريخ الإغريقي الذي كان يصف لنا الأبجدية الساكنة (لتفسير الخطية أ و ب)، فخطّ على السبورة كلمة «كتب» بالعربية، والتي يمكن قراءتها بطرق مختلفة وفقًا لعلامات التشكيل. كان ذلك مذهلًا في كنف مجتمع فرنسي متحفظ إزاء اللغة العربية، يكتشف فجأة شرعيتها العلمية في تعليم التاريخ. كان المختصون في العصور الوسطى والقديمة مجبرين على تقديم الفرضيات بحكم نقص المراجع، وذلك باللجوء إلى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللغويات. كنت أراهم أكثر ذكاءً من المختصين في التاريخ المعاصر، الذين كانوا يمضون وقتهم في شرح مراجعهم العديدة.

عندما أردت العمل على تاريخ سوريا ولبنان في شهادة الماستر، اقترح علي الأستاذ الوحيد المتمكّن نسبيًا من العالم العربي أن أتناول انتفاضة جبل الدروز بسوريا، التي تحدثت عنها الصحافة المحلية (بوردو) آنذاك. فاكتشفت أن السياق السوري ذريعة لفهم المجتمع الفرنسي أو تاريخ الصحافة الأوروبية، وهو ما يوضحه إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق». كنت راغبة في دراسة سوريا لتعلم اللغة العربية، والغوص في تاريخ العالم العربي، وليس لتحليل تقلبات الحياة المحلية في بوردو. الأستاذ الذي نصحني اسمه ڤي بيرفيلي (Guy Pervillé)، وهو مختص في تاريخ الجزائر، وقد صار اليوم من المدافعين عن نظرة رجعية للتاريخ. في الأخير، نصحني بتناول موضوع أكثر أهمية حول الجزائر، وقبلت بذلك.

لقد كان هذا الأستاذ هو من دفعك إذن للعمل على الجزائر، لكن ألم تراودك الرغبة من قبل؟

لا. لأنني كنت أتخوف من العمل على الجزائر وكان من الأسهل عليّ آنذاك التوجه نحو موضوعَي سوريا ولبنان. في تلك الفترة، أي عام 1995، لم يتبقَ لي أقرباء كثر بالجزائر ولم أتعلم اللغة العربية في المنزل (وكانت إمكانية تعلمها في المدرسة الفرنسية نادرةً جدًّا). في سوريا أو لبنان، كان بإمكاني تعلمها دون عُقَد، على العكس من الجزائر حيث بدَت لي الأمور أكثر صعوبة من الناحية العاطفية، بما أنه تعَسر عليّ تحديد مكانتي فيها.

اقترح علي الأستاذ بيرفيلي فيما يخص الجزائر العمل على موضوع «نواب المجموعة الانتخابية الثانية بالمجلس الفرنسي بين 1945 و1962». واعترف لي لاحقا أن هدفه كان إثبات بقاء حزب نافذ موالٍ لفرنسا إلى غاية 1962. لم يكن ذلك يهمني، لكن هذا الموضوع كان سيسمح لي بالبحث عن مصادر والقيام ببحث سوسيولوجي، ودراسة مسارات أفراد وعائلات... بعدها، انضممت إلى مسابقة التعليم وشهادة التبريز، ثم علّمت التاريخ في الضاحية الباريسية، وسجلت في الدروس المسائية لمعهد اللغات الشرقية (إينالكو) لتعلم العربية. وبعد مرور ثلاثة سنوات، حان الوقت للتسجيل في رسالة دكتوراه، فاتصلت ببنيامين ستورا.

من أين أتتك فكرة العمل على سيرة علي بومنجل؟

في البدء، اقترحت على بنيامين ستورا مواضيع مشوقة لكنها مستحيلة التجسيد، كنت راغبة في دراسة الاستعمار بوصفه واقعًا مُعاشًا، كيف يُكّيف المكان مثلا... لكن ذلك استوجب اختيار بلدة معينة وإعداد دراسة إفرادية. أعرف الآن أن هذه المقاربة تسمى «التاريخ المصغر»، لكنني آنذاك اعتقدت أن اختيار مكان محدد يتنافى مع التعميم ودراسة ماهية الاستعمار. كانت في جعبتي اقتراحات أخرى، مثلا، دراسة المرجعيات التاريخية المتقاطعة بين الروايات الفلسطينية والجزائرية، وهو اختيار صعب في إطار أطروحة في علم التاريخ. اقترحت كذلك موضوعًا حول الازدواجية اللغوية، لكن ستورا قال لي ببساطة أنّ «مزدوجي اللغة كانوا كثيرين في حزب فرحات عباس (اتحاد البيان الجزائري الديموقراطي). يمكنك تقديم أطروحة حول هذا الأخير». لم يحفزني الأمر كثيرًا في البداية، لكنني كنت مضطرة للشروع في العمل، كما شكل ملءُ الفراغ التاريخي في هذا الصدد محفزًا كافيا بالنسبة لي. اقترح عليّ ستورا، الذي كان قريبًا من عائلة بومنجل، تكريس شهادة ما قبل الدكتوراه لسيرة علي بومنجل، بصفته مناضلًا في حزب البيان. كانت خياراتي إذن مزيجا من الاهتمام والفرص السانحة. ويبدو لي اليوم، وأنا أتذكر الموضوع، أنني لم أكن على دراية شاملة بآليات اختيار المواضيع التاريخية، وأنني لم أكن فاعلة رئيسية في مساري بل مثل قشة تنساب مع البحر.

لكن رغباتك الأولى سوف تظهر لاحقا في عملك: فكرة الاستعمار بوصفه واقعًا معاشًا، دراسة المسارات الفردية...

بالفعل، لا مكان للصدفة. حيث يتبين لي اليوم أن كل شيء مرتبط، وقد ساعفني الحظ لبناء هذا الانسجام. من المهم اليوم بالنسبة لي إعادة التفكير في مساري لمساعدة طلابي في بناء مسارهم، فمن المحتمل أنّ بعضهم لا يستفيد من التوجيه والنصيحة الكافيين، الذين حظيت بهما في سنهم. عليهم دائما أن يجدوا طريقة للتوفيق بين خياراتهم الشخصية والنظام الجامعي. أشعر بمسؤولية مرافقتهم في اختيار مواضيع قابلة للتحقيق، تسمح لهم بالنجاح دراسيا دون تقييد تطلعاتهم، وهي مسألة تفرض نفسها خصوصا في المجتمع الفرنسي، حيث غالبًا ما يتعطل نجاح التلاميذ والطلاب المنحدرين من الطبقات الشعبية، وهو ما ينبغي على الأساتذة التفكير فيه جديًّا. وبما أن الكثير من هؤلاء الطلاب ينحدرون من فئة المهجر، فالمسألة تهمني أضعافًا.

«كتابة التاريخ لا تستلزم حيازة موضوع فقط، بل إيجاد نوع محدد من المصادر لروايته.»

كيف وصلتِ لمعهد التاريخ المعاصر؟

أثناء دراستي، لم أكن على دراية بوجود هذا الصنف من التاريخ ولا بهذا المعهد، ولم نكن نتحدث عن النقاشات الدائرة في فرنسا آنذاك. كنت مثلًا أحضّر شهادة ما قبل الدكتوراه في بوردو بينما، على بعد 100 متر من إقامتي، جرت محاكمة موريس بابون بشأن نشاطه إبان الحرب العالمية الثانية، وليس ما اقترفه خلال الحرب الجزائرية. لكن الطرف المدني ما لبث أن أقحم مجازر 17 أكتوبر/تشرين الأول 1961 في الجزء الأول من المحاكمة المخصص للتعريف بالمتهم، كما قام المؤرخ جون-لوك إينودي (Jean-Luc Einaudi) بمداخلة مطولة عشية الذكرى السادسة والثلاثين لهذه المجازر. لذلك افتتحت النشرة التلفزيونية في 17 أكتوبر/تشرين الأول 1997 بالتذكير بما حدث يومها، وبأن جزائريين قد تم إغراقهم في نهر السين. إلّا أن كل هذا كان غائبا في دروسنا، بالرغم من وجود ارتباط وثيق بين مجال اختصاصنا وما كان يحدث في تلك المحاكمة، حيث أُستدعي مؤرخون للشهادة، بعضهم رفض وبعضهم قدم خبرته كجون-لوك إينودي، بينما اعتبر زميلي الحالي بالمعهد، هنري روسو (Henry Rousso) وهو مختص في الحرب العالمية الثانية،

أن الموضوع خارج عن نطاق عمله، وأن هناك خلط بين دور الشاهد والخبير. بيد أن هذا الجدال القائم آنذاك لم يتخطَّ عتبة جامعة المدينة التي احتضنت المحاكمة!
دون معرفة بوجود اختصاص يسمى التاريخ المعاصر، كنت أرغب في إجراء حوارات ومقابلات. وسنحت لي الفرصة للقاء المؤرخة سيلفي ثينو (Sylvie Thénault) التي كانت تعمل في المعهد آنذاك، وتمكنت من توقيع عقد لمدة سنتين، واستطعت في الوقت نفسه إنهاء أطروحتي واكتشاف هذا الاختصاص بمنهجياته ونظرياته.

كثيرا ما تتحدثين عن أهمية الأمكنة وما قد تضيف لأبحاثك، من خلال زيارة المواقع التي دارت فيها الأحداث التاريخية...

بالفعل، فاكتشاف المكان المادي قد يغير كل شيء في دراسة تاريخية، حيث يصعب أو يستحيل عليّ فهم الأحداث إذا لم أفهم بعدها المادي؛ أين دارت؟ كيف كان يتواصل الفاعلون فيما بينهم (مثلا، في السرية)؟ كيف كان شكل الأحياء والسكنات التي يذكرها الشاهدون؟ دون هذه التفاصيل، يبقى التاريخ مجردًا.
ذهبت منذ شهر لأول مرة إلى منطقة الأوراس، وبالتحديد إلى مشونش حيث دارت الأحداث التي أرويها في كتاب «1962»، مما سمح لي ببناء صورة دقيقة وسياق جغرافي وطبيعي ملموس (وبالتالي إطار اجتماعي واقتصادي وثقافي)، وهذا ما أضفى على هذه الأحداث واقعية كثيفة.

في إطار اشتغالك على حزب البيان الجزائري وعلي بومنجل، كان عليك السفر إلى الجزائر. كيف عشت هذه الرحلة الأولى بصفتك باحثة؟

في 2002 و2003 عدت إلى الجزائر لأول مرة بعد خمس عشرة سنة، وبين السفرين جرت الكثير من الأحداث؛ عشرية التسعينيّات، ووفاة والدي وجداي... كانت عودة ثقيلة نوعًا ما، وكان العمل ذريعةً ومحفزًا لتجاوز شكوكي. التقيت بأقرباء بومنجل، وسمحت لي إقامتي بلقاء مؤرخين كدحو جربال وفؤاد سوفي ووردة تنغور. ذهبت لاحقا، في إطار رسالة الدكتوراه، إلى وهران لبحث شاقٍ عن أعضاء الحزب السابقين، فالتقيت في طريقي بأشخاص آخرين. واجهتني آنذاك الصعوبات نفسها التي تواجه أي باحث يقوم بدراسات ميدانية.

في الوقت نفسه، قمت باكتشاف البلد...

نعم، عدت إلى الجزائر، ثم وهران، التي بدت لي أكثر هدوءًا من العاصمة، وأريحَ لامرأة بمفردها التجول في شوارعها. كان الشارع من أكبر الصعوبات التي واجهتني، حيث بدت لي المواصلات معقدة للغاية (تتذكرين أن الحافلات لم تكن تعلن عن وجهتها، وأنّ سيارات الأجرة كانت لها مسارات محددة)؛ اضطررت لحفظ خريطة العاصمة. لم يكن استعمال الهاتف النقال معممًا وقتها، بل كنا نلجأ للتاكسيفون! أما الفضاءات المتاحة للنساء فكانت نادرة للغاية، على عكس يومنا هذا؛ وللأكل في مطعم، كان علينا اجتياز قاعة مليئة بالرجال للوصول إلى فضاء «عائلي»... كنت أمشي طوال الوقت لغياب مكان أستطيع الجلوس فيه وحيدة... فتزامن عملي باحثةً مع هذا التأقلم مع الفضاء العمومي، وما ينجر عنه من صعوبات بالنسبة لامرأة تجول المدينة لوحدها.

بأية طريقة كنت تتملين مع الأشخاص الذين أردت محاورتهم؟

في كل مكان، كان عليّ إيجاد أشخاص يوصلونني إلى الشهود. وكمنت الصعوبة فيما يخص حزب البيان في أن معظم مناضليه المعروفين مسنون للغاية أو متوفون، أما الأقل تقدّمًا في السن فلم يكونوا فخورين بتاريخهم «البياني». أجريت بالكاد عشرة حوارات مع قدامى الحزب، وترجمت هذه الصعوبات آثار الذاكرة المتعلقة بالطريقة التي روى (أو كتم) بها الفاعلون نضالاتهم الماضية. إن امتنع قدامى حزب البيان عن الخوض كثيرًا في شبابهم النضالي، فلأن هذا الماضي لم يكن مُثمنا في جزائر ما بعد الاستقلال. بالرغم من ذلك، نجحت في حصد بعض الشهادات. وأتذكر لقائي بتلمسان مع زوجة أحد منضالي حزب الشعب الجزائري، التي دردشت وإياها في انتظار زوجها. روت لي أنها كانت أول امرأة جزائرية في المدينة تحصل على شهادة البكالوريا، في قسم مختلط داخل ثانوية للذكور، مما أثار حفيظة الأهالي آنذاك، وكانت تعاني كل يوم في طريقها إلى المدرسة من الشتم والضرب بالحجارة، ووصل بها الأمر إلى رفض الصورة الجماعية للقسم لتجنب اضطهاد أكبر. وبعد سنوات من المقاومة، لم تستطع متابعة دراستها في الطب. سمعت هذه الحكاية بينما كنت مقيمة في فندق بتلمسان حيث كان حضوري غير لائق وشبه مرفوض، وبعد ليلة أمضيتها هناك، أُستُقبلت بكرم من طرف عائلة طالب-بن دياب؛ وساعدت إقامتي في كنف هذه الأسرة على تسهيل وجودي في المدينة. بالرغم من عدم إمكانية إدراج حكاية هذه السيدة في كتابي حول حزب البيان، إلا أنها محفوظة مع حكايات أخرى في «مكتبة ذهنية» تؤثر على تفكيري، إذ إنها كانت بمثابة صدى لما كنت أعيشه آنذاك.

بالفعل فقد كان بإمكان هذه الحكاية أن تجد مكانها في مدوّنة Textures du temps («نسيج الزمن») الذي أطلقتها في 2012، حيث نجد كثيرًا من السرديات المشابهة. هل حفزتك قصة السيدة التلمسانية لخلق هذا الفضاء الافتراضي؟

بالتأكيد. حصلت في 2010 على وظيفة باحثة في مشروع عن تاريخ الجزائر المستقلة، وهو موضوع لم يتناوله الكثير من المؤرخين (وحده المؤرخ عبد الرحيم طالب-بن دياب كتب عن حقبة السبعينيات، لكن ذلك لم يكن كافيًا على صعيد بلد بأكمله). فتوجب الاستطلاع والبحث عن الأرشيف والمواضيع للدخول في

تصوير: ليديا سعيدي

هذه الفترة بمخيال متجدد. كتابة التاريخ لا تستلزم حيازة موضوع فقط، بل إيجاد نوع محدد من المصادر لروايته. وعلى العكس من ذلك، يمكننا إيجاد أرشيف لا يفيدنا في شيء. كان هدفي من خلال هذه المدونة الحفاظ على بصمات لهذه الاستطلاعات، علها تفيد باحثين وطلاب آخرين في دراساتهم المستقبلية، كما سمحت لي بالوصول إلى جمهور مختلف. فعلى غرار مواقع التواصل الاجتماعي أو الجرائد، تتيح المدونة الكشف عن أبحاث لأشخاص ترتبط بهم بصفة مباشرة، مما يقودنا للقاء شهود جدد!

يتسم أسلوبك في المدونة بالأدبية والضمير الشخصي، حيث تتحدثين عن حالتك وأنت تتأهبين للقاء شاهد أو للذهاب إلى مكان معين أو المعوبات التي تواجهك لإنهاء أطروحتك... وترافقين نصومك بصور تلتقطينها بنفسك. هل يعدّ كل هذا عناصر إضافية تندمج في إطار عملك باحثةً؟

خلال تأليف كتابي عن علي بومنجل، كنت قد اشتغلت على فكرة أن سرد الجانب الاستقصائي يُثري القصّة التي نرويها. سمحت لي المدونة بالتعمق أكثر في هذا الاتجاه، وذلك بالتذكير بالسياق الذي أعمل فيه، والصعوبات التي تواجهني، والفرضيات التي أطرحها. كما سمح ذلك بالتعريف بعملنا لأشخاص يجهلونه، ولا يدرون بأننا لسنا معصومين من الخطأ، وأننا غالبا ما نواجه صعوبات مادية تدفعنا للترقيع، وأننا نتأثر أحيانا بمواضيع عملنا، وهو أمر لا يظهر في الكتب التي نصدرها. هي طريقة لمساعدة القراء على الدخول في عوالمنا عبر تفكيك العمل أمام أنظارهم. أما فيما يخص الصورة الفوتوغرافية، فهي شغف آخر، فأنا أمارس التصوير التقليدي (باستخدام الفيلم) وكثيرا ما أغير صورًا مرافقة للمقالات الصادرة في المدونة دون أن ينتبه أحد لذلك. وتسمح لي الصورة بإثراء البحث ببصمات الماضي، حيث تصير الآثار المادية مكملة للسرد الأدبي.

في 2010، أصدرت سيرة علي بومنجل لدى دار نشر Belles Lettres («لي بيل ليتر») بفرنسا، و«برزخ» بالجزائر، وهما دارا نشر عامتين، وليستا متخصصتين في الأبحاث التاريخية. فتوجه كتابك إذن إلى جمهور عريض. هل كان ذلك هدفك الرئيسي؟

نعم، لقد كنت محظوظةً بالعمل مع داري نشر عامتين، وجادتين في الوقت نفسه. عندما نشتغل على أبحاث تاريخية قائمة على الحوارات والأرشيف ونتعامل مع زملاء جزائريين، من المهم أن تكون أبحاثنا متاحة للأشخاص المعنيين في قالب ميسور. إنها مسألة أخلاقية وسياسية. لم ينجح الكتاب كثيرًا بعد صدوره بفرنسا، حيث بالكاد قدمت محاضرَتَين ولم تتحدث عنه الصحافة. وكان ذلك شكلًا من أشكال العرقلة، بحكم حساسية الموضوع. ففي الفترة نفسها اعترف اللواء أوساراس بضلوعه في اغتيال بومنجل، ولم يمكن من الممكن متابعته قضائيا بجريمة القتل بسبب قوانين العفو، ولكن فقط بمخالفة تمجيد جريمة حرب. خلال المحاكمة، أكد ناشروه (دار بيران) على استعدادهم لإصدار أي كتاب يرد على مذكرات أوساراس، فاقترحت عليهم مخطوط سيرة بومنجل لكنهم رفضوه. فقمت بنشره عند دار «لي بيل ليتر».

هل صدرت الطبعة الجزائرية سريعا بعدها؟

نعم، بعد بضعة شهور. وكان الأمر مختلفًا للغاية، حيث سمح السياق بتغطية إعلامية واسعة، وبلقاءات مؤثرة مع أشخاص عرفوا علي بومنجل. خلال لقاء نشطته بحي باب الواد، قام بيار شولي بمداخلة، اكتشفَت بفضلها ابنة بومنجل، وكانت طالبة سابقة عند شولي، أن الرجلين كانا يتعارفان جيدًا. هذه اللقاءات، وهذا الحوار بين المؤرخين والشهود العيان، يضفون معنًى جديدًا على عملي.

«يمكنني البحث عن هوامش حرية، على غرار باقي النساء.»

كثيرًا ما تذكرين مسألة الشرعية والتموقع بصفتك مؤرخةً تشتغل على الجزائر من منابر ومراكز بحث أوروبية. هل لا يزال ذلك هاجسك إلى اليوم؟

يتعلق الأمر بمسألة سياسية محضة، حيث اعتُبرت كتابة التاريخ خلال بناء الدول الوطنية أداةً لتقوية الحس الوطني. أما في الحقبة الاستعمارية، فكان التحكم بكتابة التاريخ، مع طمس المجتمعات المُحتَلة، أداةً للهيمنة. اليوم، ونحن نعيش في دول أوروبية قوية منذ قرون، يمكننا التظاهر بتفنيد فكرة كتابة التاريخ من منظور أو لصالح دولة ما. لكننا نتوجه بعدها لبلدان حديثة الاستقلال للومها على كتابة تاريخها الوطني (وهو الأمر نفسه فيما يخص التبادل الحر؛ بعدما ارتكزت الثورة الصناعية على مبدأ الحمائية الاقتصادية، يحول نظام التبادل الحر اليوم دون أي تطور اقتصادي مستقل لبلدان الجنوب). لكن هذا لا يعني مطلقًا أن على الدولة الانفراد بكتابة التاريخ، بل أن هذه الأخيرة يجب أن تتم في الجزائر دون الأخذ بعين الاعتبار معايير قد تكون منافية لمصالحها. في هذا السياق، يصعب حل مسألة «من أين نكتب التاريخ» وموازين القوى التي تفرضها. ولذلك من المهم فيما يخصني أن أوضّح أني جزائرية من المهجر، تعمل بفرنسا، ولا تطمح للتكلم نيابة عن زملائها العاملين بالجزائر.

تتساءلين كذلك عن اللغة الواجب استعمالها. تابعت دروسا في العربية بمعهد الإينالكو وتحاولين أحيانا استعمالها في عملك. لأي سبب تولين كل هذه الأهمية للغة؟

نعم. مسألة اللغة تحيلنا لمسألة النشر، فللوصول إلى جمهور اليوم، يحبذ أن تُكتَب الدراسة بالعربية. ليس بمقدوري حاليا الكتابة بهذه اللغة لكني أتحسن تدريجيًا. وإن استطعت لتشبعت كذلك باللغة الأمازيغية... ولا يتوقف الأمر عند منظور المقروئية فحسب، بل هي مسألة ترتبط بالواقع أيضًا؛ إذ من غير المنطقي تنظيم نشاطات باللغة الفرنسية فقط، بينما واقع البلاد يتنافى مع ذلك. ويسمح لي تعلم اللغة العربية بالتعريف بالصعوبات الماضية والحالية في هذا المجال بفرنسا، حيث أنها نادرة جدًا على مستوى المدارس والثانويات، وحتى الجامعات.

تقولين إن هدف التاريخ المصغر هو خلق التوازن مع التاريخ الأكبر في البلدان الأوروبية، بينما تعتبرين أن وحده الأول موجود في الجزائر. هل يعني ذلك أن للتاريخ المصغر دور أكثر أهمية عندنا؟

التاريخ المصغر هو تاريخ موضوع محدد ومحدود؛ سيرة فردية، قصة مكان، حكاية مجموعة معينة.... وقد سمح هذا المنهج في أوروبا بكتابة تاريخ معاكس للتاريخ الرسمي الذي يُسرد انطلاقا من وجهة نظر الدولة وأرشيفها. فيما يخص تاريخ جزائر ما بعد الاستقلال، لا يوجد هناك تاريخ مهيمن بسبب غياب تأريخ علمي وقلة المؤلفات التاريخية. باستطاعتنا ممارسة التاريخ المصغر (حتى ولو لم نتمكن من الوصول إلى الأرشيف)، لكن في الجزائر لن تسمح هذه الممارسة بمعارضة أو تنقيح السرد الرسمي المهيمن، بل ستشكل في السنوات المقبلة تأريخًا علميًّا في انتظار زيادة عدد المؤرخين وتسهيل وصولهم للأرشيف. وعندها، سيكون من الضروري التركيز على الطاقة الانتاجية لهذه المنهجية. الصعوبة تكمن في عدم استقرار التاريخ المصغر؛ فليس من السهل توجيه طلاب الدكتوراه إلى هذا المجال الذي لا يوفر ضمانات كافية لإيجاد المادة اللازمة للتأليف.

تقولين في كتابك «1962» إنّ من بين تعاريف التاريخ الشعبي هو كونه تاريخ الأقليات؛ «الأصوات التي نادرًا ما نسمعها، أصوات البسطاء والأميين والنساء». كما تذكرين كثيرًا النساء في مدوّنتك الإلكترونية، وتحدثت عنهن في نمك الأول الذي نشرته بشأن الحراك في 24 فيفري/شباط 2019. هل تنتبهين لظواهر معينة بصفتك امرأة مؤرخة؟

بالتأكيد. وكذلك لأنني شعرت بالارتباك أمام غياب هذه المسألة في كتبي. لم تكن هناك نساء، أو بالكاد، في صفوف حزب البيان الجزائري. أما في كتابي عن بومنجل، فقد طرحت مسألة العلاقات الجندرية نفسها، لاسيما في الكنف العائلي (بين الإخوة والأخوات، بين الأزواج). لكن الدراسة التي أشتغل عليها حاليًا ذكرية بالدرجة الأولى. باشرت إذن تأليف «1962» وأنا على دراية ضئيلة بمسارات النساء، وكلي تساؤل عن سبب غيابهن في عملي. ويعود هذا الهاجس لتجربتي الشخصية في الفضاء العام، لاسيما حين أسافر إلى بلدان أخرى؛ حيث أدركت أن الجسد لا يتحرك بنفس الطريقة في الجزائر أو فرنسا أو الولايات المتحدة، أو في بلد آخر من بلدان المغرب أو العالم العربي. وهي تجارب متنوعة تساعدنا على طرح أسئلة وجيهة بشأن دخول النساء في السياسة مثلًا، أو في الفضاء العام، وكيف تطالبن بمكانة متساويةٍ مع مكانة الرجال أو مختلفة عنها. تسمح لنا هذه التجارب بتدقيق نظرتنا؛ حيث أتذكر أنني، خلال سفر إلى الشرق الأوسط في التسعينيات، استبطنت بشكل أو بآخر القيود المفروضة على النساء في الفضاء العام. واستمر الأمر كذلك لبعض الوقت في الجزائر. لكنني تيقنت بعد حين أنني في بلدي، وليس عليّ الانصياع لمثل هذه القيود أو التأقلم مع الواقع كما هو، ويمكنني البحث عن هوامش حرية، على غرار باقي النساء.

كيف تبلورت هذه المقاومة وهذا الرفض؟

قد تأتي على شكل بذل جهود أقل في اختيار اللباس أو إيماءات أكثر حرية، ألّا تولي اهتمامًا زائدًا لكونك لا تتصرفين كما يُطلَب منك تمامًا، أن تكوني على طبيعتك بما أنك في بلدك. لا أعيش في الجزائر بصفة دائمة، ولذلك ليس من اللائق أن أعتبر نفسي مسؤولة عن ثورة نسوية، لكنني أملك هامش حرية استطعت الوصول إليه بفضل نساء أخريات. قد تبدو هذه الأمور بسيطة لكنها ثمرة تجربة ولا تقتصر على مسألة الجندر، بل هي مسألة فضاء عام. فيما يخص الجزائر، يتعلق الأمر بالأحداث التاريخية التي عرفتها البلاد. عندما باشرت أطروحتي، كنا قد خرجنا بالكاد من التسعينيات وكان الخوف لا يزال قائما، بما فيه ذلك المرتبط بالرقابة الاجتماعية. عندما عدت في 2003، أكد لي الأصدقاء وقريباتي أنه يستحيل عليّ الذهاب لوحدي إلى القصبة. مر وقت طويل قبل أن أدرك أن الأمر يتعلق بقيود اجتماعية أكثر منه بخطر على أمني الشخصي. كانت هناك موانع عديدة، ولم نكن نميز فيها بين الخطر والعادات الاجتماعية، كالخروج ليلًا بالنسبة للنساء، مثلًا. الطريقة الوحيدة لمعرفة الجواب كانت التجربة، أي استعمال الجسد كمؤشر أساسي، مما قد يعرضنا لأخطار إن كانت نظريتنا خاطئة. عندما سمحت لنفسي بالقيام بهذه التجربة، على غرار الكثير من النساء، كان المجتمع قد أصبح أكثر ليونة في هذا الشأن، ولذلك لم يكن تصرفي هذا ثوريًا للغاية، بما أن الظروف قد صارت تسمح به.

عندما نقرئك، نشعر بوجود موهبة للسرد، كما أنك تهتمين كثيرا بمسألة اللغة. هل أنت قارئة للروايات الأدبية؟

بقدر ما انا قارئة تاريخ كسولة، بقدر ما أحب قراءة الروايات. عندما باشرت العمل على تاريخ الجزائر المستقلة في 2010، خُيل لي أنني فتحت مجالًا جديدًا، لاسيما فيما يخص التسعينيات. إلا أنني اكتشفت بعدها رواية «خرفان المولى» لياسمينة خضرة، فأدركت أن الروائيين لطالما سبقونا في كتابة التاريخ، بحكم معرفتهم المباشرة بالمجتمع، وعدم تقيّدهم بالمصادر، وقدرتهم على العمل انطلاقا من ذاكرتهم. ولذلك من الممتع بما كان دراسة ما يكتبه الروائيون عن الماضي؛ فمن بين الطرق التي نمارس بها التاريخ المعاصر، هي أن ندرس كيف يتم استذكار حقبة ما وكيف تكون روايتها. مثلًا: ماذا نجد في الروايات الأدبية حول الحرب التحريرية؟ ما الذي يتذكره المؤلفون وما الذي يكتمونه في الأدب، من بن هدوقة إلى سمير تومي؟ فتصبح الروايات آثارًا للحقبة والمجتمع الذين كُتبت فيهما. وهو تصوري أيضًا عن الأفلام السينمائية. كان كتابي «1962» مناسبة لذكر بعض الأفلام والأغاني التي ظهرت في السنوات الأولى للاستقلال. الأدب والسينما والموسيقى وسائل لاكتشاف سرديات مختلفة تلهمنا وتُساءِل طريقتنا في الكتابة. كما أقرأ كتب تاريخ أنجلوساكسونية، وهي تتميّز بأسلوب يدمج أبعادًا شخصيةً لمؤلفيها في السرد التاريخي. وهو ما نلمسه أيضًا في كتبي.

تتضمن كتبك كذلك إيحاءات لعناصر من الثقافة الشعبية، ومنها كرة القدم، مما يعتبر تجديدا في كتابة التاريخ...

بالفعل، فبإمكاننا أن نكون مؤرخين أو مؤرخين اجتماعيين طوال الوقت. أتذكر بدايات الحراك، عندما تفاجئ الكثير من الدور الذي يضطلع به مشجعو كرة القدم، إلا أنني أتذكر «تيفو» رُسِمَ عليه وجه مروان البرغوثي، رأيته في 2016 خلال مقابلة بين نادي مولودية الجزائر واتحاد العاصمة. في الأسبوع نفسه، صدر مقال في جريدة «الوطن» يتناول هؤلاء المشجعين، لكن دون ذكر كلمة «السياسة»، وقد لفت هذا الأمر انتباهي آنذاك. يمكننا التفكير انطلاقًا من آثار تبدو سطحية للغاية، لكننا ندرك أهميتها بصقل النظر... بمقدور أي شيء أن يصنع التاريخ؛ الملاعب وممارسات المشجعين مثلًا قد تشكل موضوعا شيّقا للمؤرخين، فالشعارات الرياضية هي أدوات توريث تاريخي يتجاوز صداها حيز الملعب.

ما هو موضوع عملك حاليًا؟

أشتغل على مشروعين مختلفين؛ الأول يتناول الأشخاص الذين اختطفهم الجنود الفرنسيون بالعاصمة عام 1957، وهو امتداد غير مباشر لكتابي حول علي بومنجل، حيث نجد حالات مشابهة. أما الثاني، فهو عمل كنت أرغب في إنجازه منذ اثنتا عشرة سنة عندما دخلت معهد التاريخ المعاصر؛ إذ أردت الربط بين حقبتي ما قبل الإستقلال وما بعده من خلال سرد مسارات فردية لمناضلين شيوعيين (من الحزب الشيوعي الجزائري وحزب الطلائع الاشتراكية)، وهو ما يتيح لي تغطية فترة طويلة تمتد من الأربعينيات إلى التسعينيات.

المغارة

المتفجرة*

تفكيك

*عنوان الرواية الأولى ليمينة مشاكرة، صدرت عام 1979.

الرباط وهوس العذرية

وئام أوراس

كيف نسمي الجنس بالدارجة الجزايرية؟[1] ما قدرتش نلقى كلمة تكون ماشي قبيحة. ما قدرتش تاني نسمي الأعضاء التناسلية بكلمات لا تعبر إلا عن جزء من الجسد وفقط، فالكلمات بالدارجة الّي تعين المهبل والقضيب تكون إما طفولية إما عيب («ملتحت»، «بين الرجلين»، «لْتَمّا»...). بصح مزية كاين لغات عديدة نقدرو نستعملوها، ومنها كلمات بالعربية الّي راح نستعارها لكسر الحاجز اللغوي.

الجنس وكل ما يحيط به يعد من أكبر الطابوهات في بلدان المغرب والمشرق العربيّين، بصح يكفي خطرات نكونو في جماعة تع نساء باش الهدرة تنحل، وتتسرب سلسلة من الحكايات المتشابهة وبينها عامل مشترك، الّي هو تقديس العذرية وواجب الحفاظ عليها. في هذا السياق، تم خلق عدة طرق لمنع النساء من ممارسة الجنس. في شمال إفريقيا، العادات الأكثر انتشارًا هي ختان البنات بمصر وموريطانيا، أما في الجزائر[2]، تونس والمغرب، كاين عادة أخرى منتشرة وتُستعمل للتحكم في عذرية البنات وهي ما يسمى بالرباط.

الرباط عادة سحرية تستعمل لمنع البنات من ممارسة الجنس وذلك للحفاظ على العذرية[3]. عندو عدة أسامي: الرباط، الربيط، ولا التصفيح والتصفاح في شرق الجزائر وتونس، التقاف في الغرب والمغرب، والتسكار. الطفلة الي يمارسوا عليها هذه العادة يقولوا عليها مربوطة، مصفحة، مسكرة، متقفة، مغلوقة، مقفولة؛ عكس البنات الي مايكونش عندهم غشاء البكارة ويقولوا عليهم بطريقة سلبية مفتوحة، محلولة.

أول مرة سمعت بهذه العادة كنت في الثانوية. وحدة من الّي يقراو معايا قالت لي «أنا مربوطة»، سألتها واش معنتها، جاوبتني بلي ماتقدرش تفقد عذريتها. بعدها، تلاقيت بعدة بنات مراهقات وحنا في نفس العمر قالوا لي أنهن مربوطات؛ وحدة فيهم قاتلي بلي استطاعت ممارسة الجنس مع صديقها وما سالتلهاش قطرة دم بما أنها مربوطة، الرباط يحميلها عذريتها. في الحقيقة هي برك من النساء الّي عندهم غشاء مطاطي ولا ما عندهاش أصلا غشاء. كملت نسمع من هنا وهناك عن الرباط في دزاير العاصمة وفي مدن أخرى. كاين بعض المؤلفات حول هذا الموضوع بصح تقعد قليلة[4]. سألت العديد من النساء والرجال الّي حولي وبزاف منهم ماشي سامعين به. ومنهم الّي يعاودوا يتاصلوا بيا بعد ما يتفكروا بلي وحد النهار سمعوا بوحدة كانت مربوطة، فات وقت قصير باش وصلت إلى النساء الي هوما عاشوا الرباط وجمعت الشهادات تعهم؛ وكل ما تحدثت معهن ومع غيرهن عن هذا الموضوع، كل ما نشوف شحال الرباط منتشر ويمس تقريبا كل العائلات من بعيد أو من القريب.

1. هذا المقال مكتوب بالدارجة الدزيرية، ومعرب شوية. تم ترجمته إلى الفرنسية.

2. حسب علمنا، لا يوجد ختان البنات في الجزائر. بصح نفيسة زردومي ذكرت بلي في رحلة لها في المنطقة الصحراوية الساورة، لقات بلي عند قبيلة الرڤيبات في تيندوف يمارسوا الختان على البنات الّي ما بين ثلث وست سنين، وهذا للتحكم في شهوة النساء من جهة، وللتقليل من حجم البظر من جهة أخرى. النسا يربطوا رجلين ويدين الطفلة ووحدة فيهم تشوهها، وبعدها تحطلها الخنة. أنظر:
Nefissa Zerdoumi, *Enfant d'hier : L'éducation de l'enfant en milieu traditionnel algérien*, Paris, Ed. Maspero, 1982, pp. 208-209.

3. كاين نوع آخر تع سحر الرباط الّي يندار للرجل من طرف الزوجة ولا الحبيبة باش تولي عندو استحالة الانتصاب كي يكون مع إمرأة أخرى. يُستعمل لتجنب الخيانة ولا للإنتقام، مثلا عندما رجل يتزوج من امرأة أخرى. في ليلة الدخلة كي رجل ما يكونش عندو انتصاب، بعض العائلات يقولوا بلي سحراتو أمرأة. كاين سحر الرباط (ربيط) آخر، الّي هو ربيط الولادة، يندار لتجنب الحمل. كاين عدة طرق مستعملة من بينها ربط الحرير، وين كاين تكرار مقولة «ماشي الحرير الي عقدت، ولادتي وولادة راجلي الي اربطت». فيما يخص ربيط الولادة أنظر:
Joseph Desparmet, « Ethnographie traditionnelle de la Mettidja (suite) », *Revue Africaine*, Alger, Ed. Société Historique Algérienne vol° 60, 1919, pp. 260-265.

4. بعض المؤلفات من القرن الواحد والعشرين عن الرباط:
Ibtissem Ben Dridi, 2004 ; Ibtissem Ben Dridi 2010 ; Berkahoum Ferhati 2007 ; Moussa et al., 2009.

هذه العادة منتشرة في القرى وحتى في المدن وعندها أربعة عوامل مشتركة:

- الطفلة تتربط قبل سن البلوغ وقبل أول حيض. لازم تاني الطفلة تقدر تهدر باش تعاود مقولات، أي ما تكونش رضيعة ولا صغيرة ما تهدرش؛
- الرباط تديرو امرأة كبيرة الّي خلاصلها الحيض، تكون غالبا امرأة من العائلة، من غير الأم، ومتعودة تربط البنات؛
- الرباط يندار غير بين النسا. في اليوم الّي يديروه فيه، لازم الدار تكون خالية من الرجال، ما يكون حتى ذكر بالغ. يقدروا يكونوا دراري صغار ماشي بالغين، بصح ماشي في الغرفة الي يندار فيها الرباط. النسا ما يقولوش للرجال واش راح يديروا، كل العملية تتخطط ما بيناتهم؛
- كي تجي حا تتزوج الطفلة، في ليلة الدخلة تعها يعاودوا «يحلوها»، ولا «يفكولها الرباط» بطريقة تشابه الّي داروهالها كي ربطوها.

كاين عوامل اخرى الّي تتبدّل حسب العادات. مثلا، المرأة الي تدير الرباط هي الّي لازم تفكو؛ عند آخرين تقدر تكون امرأة أخرى الّي تفكو. الرباط يقدر يندار عند البعض في الصباح قبل الظهر، وهو شرط من الشروط باش يمشي؛ وعند البعض الآخر يكون في أي وقت، المهم قبل المغرب. كاين الّي كي تتربط لازم تغمض عينيها وكاين الّي لا؛ هذا يختلف حسب العادة والمنطقة. العوامل الّي تكون دايما ثابتة هي الربعة المذكورين الفوق.

أنواع وطريقة الربط

الرباط يندار بعدة طرق مع اختلافات حسب المنطقة وحسب المرأة الي تربط. خمسة من السبعة نساء الّي تحدثت معاهم وجمعت شهاداتهم، عاشوا في الجزائر العاصمة والبليدة، وكلهم ربطوهم بالكادنا، والثنين الباقيين من قسنطينة وعنابة، ربطوهم بالشلاطات. كلهم في سبعة عاشوا في المدن.

الكادنا، الرمانة[5]

الكادنا من أكثر الطرق استعمالا في شمال وسط الجزائر. عكس طريقة النسيج ولا الصندوق، الكادنا ما تاخدش بلاصة، رخيسة وسهلة. لازم نفس المفتاح والكادنا الي ربطوا به هو الي يحلوا به، كأن الحرس على الكادنا يعني حرس على الطفلة.

حسينة، امرأة من بوفاريك في أواخر الثلاثينات، ربطتها جدتها كي كانت صغيرة ومدت الرمانة والمفتاح ليماها الي بحّرتهم. حسينة ما شفاتش بلي هي مربوطة، حتى قبل عرسها ختها حكاتلها. «كي عرفت قبل عرسي بلي أنا مربوطة خفت يأثر على زواجي. أم صحبتي الّي رابطة قاع بناتها هي الّي حلتني. بعتت طفل صغير يشري رمانة عند حانوت يطل بابو على الشرق، وكان مالازمش يسقسي السومة ديالها. كان عليا نكون كيما خلقني ربي، ما لابسة والو، لا حوايج، لا مناقش، لا خاتم، غير إيزار بيض. المرأة قاتلي نغمض عينيا ونقعد واقفة، حطت الرمانة بين رجليا وحلتها، وبعدها طلعتها لراسي وغلقتها. عاودتها سبع مرات».

5. الرمانة كلمة مرادفة للكادنا، تستعمل في عدة مناطق في دزاير.

حسينة وبزاف نساء وحداخرين كي ربطوهم وهوما صغار، يغلقوا الكادنا بين رجليهم وبعدها يفتحوها قدام راسهم ويعاودوا هذه العملية سبع مرات. باش يحلوهم قبل زواجهم، يفتحوا الكادنا بين رجليهم ويغلقوها قدام راسهم ويعاودوها تاني سبع مرات. وكأن الطفلة تنفتح للدنيا مادامها ماتعرفش الجنس، وتنغلق كي تعرف مذاق الجنس، ودهنها يولي مربوط عند الزواج.

الشلطات، الوشام

الشلطات، ولا لوشام، يندارو بالشفرة في الفخذ، عددهم يتراوح بين ثلاثة، خمسة، ولا سبعة شلطات صغار، حسب العادة. سامية من قسنطينة ربطتها مرّت عمها؛ دارتلها ثلاثة شلطات في الثلث الداخلي تع الفخذ، حكت الاسفنجة بالفحم وبعدها حكت الشلطات باش يخرج وشام صغير. باش يحلوها، لازم يندارو الشلطات في الجهة المعاكسة. سلمى من عنابة، دارولها سبعة شلطات صغار، حكولها الدم الي خرج بالزبيب ومدولها تاكل سبعة حبات، دارولها وشام بنفس الطريقة. في بلاصة الزبيب كاين الي يستعملوا التمر.

حتى ولو هذه الطريقة موجودة في وسط الجزائر وفي عدة مناطق، هي منتشرة أكثر في الشرق وفي تونس[7,6]. عكس الكادنا، الشلطات يخلوا أثر ماشي غير سيكولوجي بل في الجسد تاني؛ تخلي دليل بلي الطفلة مربوطة. كاين نية إظهار بلي عايلتها حرسوا باش عذرية الطفلة تكون محفوظة.

طرق واحداخرى

من بين الطرق الأخرى كاين استعمال الصندوق والمنسج. غالبا ما يستعملوهم بنفس المبدأ؛ يغلقوا ويحلوا الصندوق سبع مرات، ولا ادور الطفلة على المنسج سبع مرات. الصندوق يعتبر أقوى من استعمال الكادنا. العديد من الّي تكلمت معاهم يقولوا بلي النسيج هو الّي واعر بزاف، يعني فعال أكثر. في كل الطرق، الطفلة تعاود مقولة «أنا حيط والراجل خيط» ولا «أنا حيط وولد الناس خيط»، نهار يحلوها تقلب المقولة وتولي «أنا خيط والراجل حيط» ولا «أنا خيط وولد الناس حيط». علابيها الرباط ما يندارش على الرضيعة، لأنها ما تقدرش تعاود المقولة.

أثر الرباط

أثر الرباط على الحياة الشخصية والجنسية يختلف حسب المرأة وعيشتها. بما أن الرباط يندار في الصغر، الأغلبية ما يشفاوش. ما بين السبعة نساء الّي تحدثت معاهم حول هذا الموضوع، ستة كان سنهم يتراوح ما بين ستة سنين وثناش سنة. واحدة برك من هاذو النساء كانت بالغة كي دارولها الرباط، واعتابروا أهلها أنهم طولوا باش داروهولها، وما شفاتش عليه؛ عرفت بلي هي مصفحة نهار شافت فلم Le Verrou[8]. حول التصفيح. شفات بلي مرت عمها دارتلها شلطات في فخذها. امرأة أخرى، أمال، شفات بلي هي مصفحة كي صحبتها هدرتلها على كيفاه يندار الرباط، تفكرت بلي في صغرها دارولها نفس الشي.

غالبا ما يختفي هذا الحدث من الذاكرة ويظهر من جديد، وقد يظهر بطريقة لاواعية؛ كالخوف من الإيلاج، تشنّج لا إرادي للعضلات، وجع يقدر يكون قاسي، إلخ. هذه الأعراض ماشي خاصة بالنساء المربوطات برك، الكثير من النساء يعيشوا الجنس كعذاب وليس كلذة، حاملين في ذهنهم التحكم الي كبروا به والي يتجسّد في عدم تقبل أي اختراق، ويخلق تشنج مهبلي.

6. هذي الطريقة مفصلة في كتاب إبتسام بن دريدي:
Ibtissem Ben Dridi, *Le tasfih en Tunisie. Un rituel de protection de la virginité féminine*, Paris, L'Harmattan, Coll. « Histoire et perspectives méditerranéennes », 2005.

7. Barkahoum Ferhati, « Les clôtures symboliques des Algériennes: La virginité ou l'honneur social en question », *Clio. Femmes, Genre, Histoire,* n° 26, 2007, pp. 169–180.

8. *Le Verrou*, film de Leila Chaïbi, Hélène Poté, 2016, 63'.

كي ما يقولوش النساء للطفلة بلي هي مربوطة يكون خطرات عن قصد، لأن كاين الاعتقاد عند العديد من البنات بلي الرباط يمنعهم من فقدان غشاء البكارة. حسب أمينة، الرباط يحميلها عذريتها: «نجمّع مع صاحبي وچامي سالتلي قطرة دم، المرّة اللولة كنت خايفة بصح ما صرالي والو. كي راني مربوطة ماما ما تقعدش خايفة عليا وما تعسنيش». بصح كاين تجربات تختلف عن تجربتها: «خطرات كانت عندي علاقات جنسية مع صاحبي وماساليش الدم، بصح خطرات واحدخرى نحس كْلي عندي حاجة تغلقني ملداخل، نكون حابة بصح غير توصل باش يدخّلو ما نقدرش، كانت تصرالي بزاف وماكنتش أصلا علابالي بلي أنا مربوطة، حتى قبل عرسي باش قالولي»[9].

استحالة الإيلاج تقدر تكون حتى في ليلة الدخلة؛ «ليلة قاع وراجلي يحاول، كنت مسدودة وكان يحكمني السطر بزاف، كلي حاجة تمنعني، يامات وهو يحاول حتى كي حكيت لعمتي قاتلي بلي جداتي ربطتني بالكادنا. عمتي جابت كادنا وحلتني، بعدها ما بقالي حتى سطر».

أعراض أخرى يقولوا عليهم النساء بلي جاوهم على جال الرباط، كيما الوجع تع الظهر، تع الراس، وحتى الوجع تع الحيض. إذا كاين الّي يعيشوا الرباط بالوجع واستحالة الحياة جنسية، كاين الي الرباط ما يبدّل حتى حاجة فيهم، كيما في حنان، امرأة في الربعينات، كانت عندها علاقات جنسية قبل الزواج مع نزيف الدم في أول علاقة جنسية؛ «الرباط ما مشاش فيا، ما دارلي والو. عرفت بلي أنا مربوطة مُور أول علاقة جنسية ديالي، أصلا أنا مانامنش بهاذا لحوايج، كي سمعت بلي داروهولي زفعت، حسيت حبوا يربطوني بمعنى يحّكموا فيا»[10]. كاين حالات تحكّم الّي توصل الى أقصى حد. امرأة من الجزائر العاصمة صفحت بنتها زهرة، هذا ما منعهاش تديها على الأقل أربع مرات في السنة لفحص عذريتها عند الطبيب، في كل سنين المراهقة وحتى في أوائل سن الرشد. من صغرها تقوللها بلي العذرية هي أهم شي في حياتها، وبلي بلا بها ما تسوى والو.

الاعتقاد بشأن الرباط

وجود الرباط يُبَرّر من طرف النساء والّي يعرفوه لسببين؛ السبب الأول هو حماية الطفلة من فقدان غشاء البكارة وحماية «شرف» العائلة، والسبب الثاني هو حماية الطفلة من الاغتصاب. السبب الثاني يُقدّم لتبرير كثرة استعمال التصفيح في فترة الاستعمار وفي العشرية السوداء[11]. إلا أن غرض استعمال الرباط مقابل الاغتصاب هو أيضا لتجنب فقدان غشاء البكارة. الأخطر لدى الكثير من العائلات عندما الطفلة تكون ضحية اغتصاب، ليس الصدمة النفسية الي تعيشها الطفلة، بل عدم وجود غشاء البكارة الّي مُرتبط في المجتمع بقيمة المرأة.

كيفاه يمشي الرباط؟

في الاعتقاد الشعبي، الرباط يجيب الجن يسكن في الرّحم، وهو الي يمنع كل علاقة جنسية ويتحكّم في جسد الطفلة. عند فك الرباط، الجن يخرج من الجسم. هذا الاعتقاد يوصل إلى حد التفكير بلي كي امرأة مصفحة ترفض قاع الخطابة، يكون هذا على جال سحر الرباط. كي طفلة مربوطة ما تتزوّجش، يقولوا بلي الجن يكون منعها، حب يكتسبها ويرجع جن عاشق. كاين تاني الإعتقاد بلي جن الرباط يقدر يسبب طلاق النساء المتزوجات لوكان الفك ما يكونش قوي.

امرأة في الستينات في عمرها من بوفاريك، الّي عَرْفت في حياتها عشرات وعشرات النساء المربوطات والنساء الي ربطوا قريباتهم. قالت لي بلي المرأة المربوطة كي ما تتزوجش، لازم تفك الرباط باش كي تتوفى ما تروحش به عند ربي، كونو سحر الّي يأثر على الخلق. الرباط ماشي عادة دينية، وأصبح بالشوية يُعتبر من ممارسات الشعونة.

الأئمة والشيوخ يهدروا عليه في التلفزيون وفي فيديوهات على اليوتوب ومواقع التواصل الاجتماعي، ومنهم الّي فيهم

9. الكلمات المسطرة غُيّرت من طرف الكاتبة.
10. الكلمات المسطرة غُيّرت من طرف الكاتبة.
11. ما كانش إحصائيات ولا أرقام تقريبية حول الرباط ومدى وجوده.

ملايين المشاهدات [12]. الكثير منهم يحذروا من هذه العادة الي يقولوا عليها سحر وشعونة، حرّموها وينّصحوا بالرقية الشرعية عند الراقي باش يفكوا السحر. تحريم الرباط بطريقة واضحة خلاه يزرع خوف غضب الله عند النساء، بصح كمل يرسخ نفس فكرة تقديس غشاء البكارة والتحكم في البنات باش ما يفقدوهش، يعني تراجع عادة التصفيح ما تعنيش اطلاقا تراجع في هوس العذرية.

هوس العذرية

الرباط، فحص غشاء البكارة لإثبات العذرية، المنع من الخروج من الدار، المنع من رفقة الذكور، التهديد، العنف السيكولوجي والجسدي، تكرار أن العذرية أهم شي للبنت، تكرار أن البنت غير العذراء فاسدة ليس لها صلاحية، إظهار القمجة بعد ليلة الدخلة... وزيد وزيد. كل هذا يُظهر المكانة المقدسة الّي يمدها المجتمع لمفهوم وهمي الّي هو العذرية، والمكانة الدونية الّي يمدها للنساء ويعتبرهن كسلعة. تجاهل جسد النساء يولّد عنف ممارس في الحياة اليومية، ويخلي الاعتقاد يغلب ما هو حقيقي وملموس. كالاعتقاد أنو لازم حتما الدم يسيل عند الإيلاج، وتجاهل أن هناك نساء عندهم غشاء مطاطي وين قطرة دم ما تسيل؛ كالاعتقاد أن غشاء البكارة هو كرامة وشرف العائلة، وتجاهل التصرفات اللاأخلاقية[13] تع الرجال الي شرفهم غير محصور في جسدهم، فيفعلوا ما يشاؤون. الازدواجية الأخلاقية الي تسمح للرجل ما تمنع للمرأة، تبيّن مدى التفرقة الي كاينة حسب الجنس. لنفس الفعل، كفعل ممارسة الجنس، الرجل يُشجع على ذلك أو يعتبر دار غلطة يقدر يتوب عليها، بينما المرأة تُعاقب على ذلك والعقاب قد يصل إلى القتل.

الفضيحة، الغلطة، المصيبة، الفاحشة، الزنا... كل هذه الكلمات تعين الجنس، تعينو خاصة للطفلة. الطابوهات الثقيلة الّي تحيط بالجنس خلات سكوت غامض على كل العنف الممارس ضد النساء. من بين تحديات النسوية في بلدان المغرب والمشرق هي كسر هذه الطابوهات؛ يتم هذا بالتحدث ووالنقاش عن هذا الموضوع، لتسليط الضوء عن كل العادات، التقاليد، والممارسات الّي تقمع النساء والّي لازم تتنحى.

12. من بين الفيديوهات الموجودة: «إعلمو خطورة سحر التصفيح. جواب على سؤال أحد المتابعات»؛ «ما هو سحر التصفيح؟ وما هو علاجه؟»، للغريب الموصلي؛ «سحر التصفيح (الثقاف) وكيف يعطل الزواج على الفتاة او يسبب لها مشاكل بعد زواجها»... بعض الفيديوهات هي حصص تلفزيونية جزائرية، من بينها: «للنساء فقط: التصفح السحر وربط البنات تعددت المصطلحات والكارثة واحدة»، حصة في Beur TV؛ «الشيخ شمس الدين. التصفاح سحر ولا توجد نية في المحافظة على البنت بفعله»، حصة في النهار TV للشيخ شمس الدين.

13. عبارة «تصرفات لا أخلاقية» تعبر عن الفعل الي يعتبر أخلاقي ولاأخلاقي في المجتمعات الأبوية التقليدية، كفعل ممارسة الجنس خارج إطار الزواج.

المستقبل غدًا

المستقبل غدًا

المستقبل غدًا

المستقبل غدًا*

راهن النضال

*عنوان قصيدة لآنا غريكي، نُشرت في مجلة «حضور المرأة»، 1984

المادة 66 من قانون الأسرة

عنف وتمييز ضد المطلقات وحرمان من العدالة

نجوى راهم وماجدة زوين

كل عام، بتاريخ 08 جوان/حزيران، تتجدد المطالب بإلغاء قانون الأسرة في الجزائر من طرف منظمات نسوية ومدافعين عن حقوق المرأة. صدر هذا القانون عام 1984، استنادًا إلى مشروع قانون الفقه الإسلامي الجزائري (Code Morand)، الذي أُقترح في الفترة الاستعمارية، المستمد بدوره من الفقه الإسلامي، ثم جرى تعديله عام 2005 . لكن هذا القانون ما يزال يثير الكثير من الجدل منذ ما يزيد على أربعة عقود، حيث ترى بعض الجمعيات الحقوقية النسوية أنه قانون يحمل بين طياته تمييزًا بين الرجل والمرأة، وإجحافًا في حق النساء الجزائريات.

يُعتبر قانون الأسرة في صيغته الحالية، في نظر الناشطات النسويات، تكريسًا للهيمنة الذكورية، وانتهاكًا لمبدأ المواطنة، ومنافيًا لروح الدستور الجزائري الذي يكرس المساواة بين الجنسين. ويرى المطالبون بإلغائه أنه قانون ينطوي على نقائص وظلم للمرأة الجزائرية، خاصة الفقرة الأولى من المادة 66، التي تنص على إسقاط حق الحضانة عن الأم المطلقة في حال أعادت الزواج، ومنحه للأب وإن كان متزوجًا.

فيما يرى حقوقيون أن قانون الأسرة الجزائري من أحسن القوانين في الدول العربية. تقول المحامية عائشة زميت في حوار مع مجلة «لبلامة»: «قانون الأسرة الجزائري عرف عدة تعديلات وتعتبر الشريعة الاسلامية أول مصدر للتشريع، وبالتالي فهو كأي قانون وضعي يحتوي على عدة نقائص. يحاول القانونيون والناشطون والمنظمات النسوية في كل مرة تحسينه ليتماشى وتطور المجتمع، مع المحافظة على مصدر تشريعه». وتضيف زميت: «نعم، به عدة نقائص، كما أن هناك عدة مواد يُسيء القضاء فهمها وتطبيقها. أصل القانون هو الشريعة، وهاته الأخيرة بها عدة مذاهب؛ فهناك مسائل بها خلاف والمُشرّع لا يؤخذ بالخلاف».

الحضانة في القانون والشريعة

تعتبر الشريعة الإسلامية الحضانة مسألة مهمّة في إطار تنظيم الأسرة. ويرى الإسلام أن الحضانة من حق الأم بدليل الآية القرآنية التالية: «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف» (سورة البقرة 233).

أمّا قانون الأسرة فينصّ على أنّ مصاريف حضانة الأطفال تكون على عاتق الأب، مع توفير سكن ملائم للحاضنة أو دفع بدل الإيجار في حالة وقوع الطلاق. إلّا أنّ المادة 66 المكرّسة لسقوط حق الحضانة عن الأم، فتقول: «يسقط حق الحضانة بالتزوج بغير قريب محرم، وبالتنازل ما لم يضر بمصلحة المحضون».

قدمت حقوقيات ملاحظات حول المادة 66 موضّحات بأنها تجمع بين حالتين مختلفتين تمامًا (سقوط الحق، والتنازل عنه)، وأنّ الجمع بينهما سيُفهم بشكل مضلل، يوحي أن لهما نفس الطبيعة. كما أن ترجمة المادة إلى اللغة الفرنسية لا تذكر نقطة مصلحة الطفل إلا في حالة التنازل، بخلاف الجملة باللغة العربية التي تربط كلتا الحالتين بمصلحة الطفل.

علاوة على ذلك، قام المُشرّع عام 2005 بتغيير مركز الأب في ترتيب المستفيدين من الحضانة، حيث إنّه كان يأتي في المرتبة السادسة في قانون 1984 بعد روابط الأمومة، وقفز في 2005 إلى المرتبة الثانية.

إسقاط الحضانة: ماهي الأسس الدينية؟

لم يرد في القرآن آية تنص على إسقاط الحضانة عن الأم عند زواجها، أما في السنة النبوية فقد ورد حديث رواه عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة قائلة: «إن ابني هذا كان بطني له وعاءً وثدي له سقاءً وحجري له حواءً، وإن أباه طلقني وأراد أن ينزعه مني، فقال لها رسول الله "أنت أحق به ما لم تنكحي"» (أخرجه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني).

وتستند حجج المساندين لإسقاط الحضانة عن الأم في حالة زواجها مرة ثانية إلى أن زواجها من أجنبي قد يؤدي إلى نقصان حنانها اتجاه طفلها، وانشغالها عن رعايته. وقد كرس المُشرّع الجزائري عام 2015 مبدأ مصلحة الطفل في المادة 7 من قانون حماية الطفل: «يجب أن تكون المصلحة الفضلى للطفل الغاية من كل اجراء أو تدبير أو حكم أو قرار قضائي أو إداري يُتّخذ بشأنه». كما أقرّ أنه لا يمكن تحديد مصلحة الطفل دون إشراكه والاستماع إلى رأيه، وفقًا لسنه ومدى نضجه.

الاجتهاد القضائي الجزائري

سُجلت العديد من الاجتهادات القضائية حول حضانة الأطفال قبل الاستقلال وبعده؛ حيث سنّ المُشرّع الجزائري عام 1984 مبدأً قانونيًا نص على ما يلي: «إذا علم الأب بزواج الحاضنة ولم يطالب بالطفل خلال مدة سنة واحدة من يوم علمه بهذا الزواج، يبقى الطفل نهائيًا في حضانة الزوجة، ويعتبر الأب في هذه الحالة متنازلا عن حقه»، أما الاجتهاد القضائي الحالي، فجاء على أساس تفهم مصلحة الطفل وفق الحالات التي تحددها المحكمة العليا. وفي أكتوبر 2020، أصدر قاضي محكمة باب الزوار قرارًا بعدم تطبيق المادة 66 على الأكفال من الذكور فقط، الأمر الذي جعل الكثيرين يتساءلون حول امكانية استخدام المنطق نفسه إذا كان جنس الكفيل أنثى.

شهادات أمهات حاضنات...

إيمان... رحلة نضال من أجل استعادة حضانة ابنها

تروي إيمان، أم حاضنة، رحلتها في الكفاح من أجل استعادة ابنها. «زواجي الأول كان تقليديًا، في سن مبكرة. كان يكبرني بأربع عشرة سنة، وحملت منه بعد فترة وجيزة. كان صعب المراس، لا يحن عليّ أبدًا. حاولت جاهدةً تجاوز المشاكل الموجودة بين المتزوجين حديثا، حاولت إصلاح العلاقة لكن دون فائدة. تصدُّع العلاقة بيننا كان بسبب خروجي ذات مرة من دون إذنه. نعم أخطأت بعدم إخباره، وكلفني ذلك غاليًا.»

وتواصل حديثها قائلة: «مكثت في بيتنا لعدة أشهر. لم يسأل عن ابنه الذي أحمل ولا عن حالتي. بعد ولادة ابني، قررت اللجوء الى القضاء؛ رفعت قضية رجوع لكي لا أفقد حقوق ابني. لم يقبل الرجوع، وحكمت عليه المحكمة بمبلغ أربعين مليون [سنتيم]. بعد صدور الحكم تراجع وطلب إرجاعي لكي لا يدفع المبلغ. وقع الطلاق بيننا. بعد فترة ازدادت مشاكلي لأني امرأة مطلقة في مجتمع لا يرحم. ابني أصبح بعمر العامين. بعد مرور أحد عشر شهرًا على زواجي الثاني، وصلتني دعوى اسقاط حضانة».

وتردف أنه بعد استنفاد كل الطرق، «اقترح علي المحامي التفاهم مع زوجي السابق من أجل تقاسم الأيام بيننا، من أجل مصلحة الولد وتفادي العداوة بيننا. قبل موعد المحاكمة، تركت الولد لديه شهرين بطلب منه، كان يأتيني في نهاية الأسبوع. عند بداية الجلسات شوه صورتي أمام القاضية وقال إنّني لا أهتم بالولد وتركته لمدة شهرين، مع أنها كانت بالمفاهمة.

أخذ مني حضانة الطفل، ودخلت في دوامة كبيرة. أصبت بانهيار عصبي. أبي لم يسمح لي بالطعن في القرار قائلًا إنها قضية خاسرة. حتى زوجي الثاني لم يقف الى جانبي، بل بالعكس، بعد ولادة ابني الثاني اتهمني بعدم العدل بينهما. ابني تعلق كثيرًا بأبيه وأصبح لا يهتم بي. كما أنني لاحظت عليه تصرفات غريبة تفيد بأنه تعرض للاغتصاب. توجهت إلى مركز الشرطة، بعدها قابلت وكيل الجمهورية، قال لي إنني لا أملك دليلًا من الطب الشرعي؛ كما قال إنني ربما أسعى الى اتهام طليقي لأسقط عنه الحضانة».

تختم ايمان حديثها قائلةً: «هذا القانون غير العادل حرمني من ابني؛ أصبح لا يهتم بي. والده لم يطبق توصيات القاضية بالعدل وعدم حرمانه من أمه. سأناضل من أجل استعادة حضانة ابني مهما حدث».

راضية... «رفضتُ عروض الزواج خوفا من فقدان ابنتي»

«بعد زواج دام ثماني سنوات حدثت بيننا مشاكل. كان يريد الطلاق دون دفع النفقة أو بدل الإيجار. طلب مني الطلاق بالتراضي ظنًّا منه أنه لن يدفع شيئًا في هذه الحالة. لكن عندما علم بوجوب دفع النفقة، رفض ورفع عليّ قضية إهمال عائلي، رغم أنني مكثت في بيتنا مدة عامين كاملين من دون أن يصرف على ابنته فلسا واحدًا. أنفقت عليها وأدخلتها مدرسة خاصةً، ثم جاء ليتهمني بالإهمال.» مضيفة: «قدمت كل الأدلة لإثبات براءتي وحصلت عليها. بعدها قمت بخلعه. أما الآن أعيش مع عائلتي وأنفق على ابنتي. منذ سنة ونصف لم يطلب رؤيتها».

تردف راضية: «رفضت الارتباط خوفًا من فقدان حضانة ابنتي، خاصة أنه قام بابتزازي في العديد من المرات بطلب الحصول على أموال مقابل تطليقه لي؛ لهذا رفضت كل عروض الزواج لأنني متأكدة بأنه مبتز، وسيقوم بسلبي حضانة ابنتي».

أمال... «معاناتي بدأت منذ الزواج، وأسقط عني الحضانة فقط من أجل التهرب من دفع النفقة»

تروي أمال، أمٌّ حاضنةٌ ومتزوجةٌ مرة ثانيةً، قصتها مع طليقها. «بدأت معاناتي منذ أول يوم زواج لنا، خاصة بعدما اكتشفت أنه يعتمد على والديه في كل شيء. بعد سنة، حملت بأول طفلة لنا. وفي آخر زيارة لمنزل والداي لم يأتِ ليسأل لا عن ابنته، التي

أصبحت بعمر الثلاثة أشهر، ولا عن حالتي. أخبرني أن والدته لا تريديني مجددًا في بيتها». وتضيف: «بعد محاولات فاشلة في اصلاح العلاقة بيننا، قام بتطليقي، ولم يدفع لي أيّ تعويضٍ، ولا نفقة ابنته لأزيد من سنة. كنت المسؤولة على مصاريف ابنتي وكل مستلزماتها، وكل هذا كان بمساعدة أهلي».

تكمل أمال: «في عام 2008، رفعت قضية إهمال عائلي وطلبت العودة إلى بيت الزوجية. لم يكن يحضر جلسات الصلح. حتى يوم النطق بالحكم، لم أكن أرغب في الطلاق.

بعد أربع سنوات من النطق بحكم الطلاق، كان ملزمًا بدفع النفقة، لكنه كان يتلاعب بالقانون؛ كان يدفع مرة في الشهرين، وكان يأتي لرؤية ابنته وقت فراغه، خاصة وأنه أعاد الزواج مرة ثانية. فلم أكن أهتم بمعرفة أخباره.

وفي عام 2014 تزوجت مرةً ثانيةً. تعرفت على زوجي الحالي الذي يعيش نفس حالتي الاجتماعية، بحكم أن لديه طفلة من زوجته المتوفية، وتزوجت زواجًا مدنيًّا أمام الجميع، لم أخفي شيئًا. وبعد مرور ثلاث سنوات التقيت صدفة بعائلته وزوجته الثانية، وعندما رأوني حاملًا بطفلي الأول من زوجي الثاني عام 2017، قاموا برفع دعوى قضائية ضدي بحكم أن النفقة يستفيد منها زوجي الحالي. وبعد الكثير من الجلسات والدعاوى التي لم يكن يحضرها ككل مرة، ربحت الحق في حضانة ابنتي بعد أن قدمت كل الأدلة والاثباتات بعدم دفعه للنفقة والبحث عن مصلحة ابنته. لكن سرعان ما قام بالطعن في الحكم وحكمت المحكمة العليا عام 2019 بحقه في الحضانة، ولكنه لم يهتم لهذا الحكم ولم يأت لأخذ ابنته حتى يومنا هذا».

تقول المحامية عائشة زميت إن المادة 64 من القانون عدلت على نحو غير ترتيب الأشخاص الأحق بالحضانة، إذ كانت هذه المادة في قانون 1984 تنص على أن الحضانة تمنح إلى الأم ثم الجدة للأم ثم الخالة ثم الاب، في حين أن تعديل 2005 يضع الأب في المرتبة الثانية بعد الأم. وهدف المُشرّع من هذا التعديل هو مراعاة مصلحة المحضون التي تكون مع والدته أو والده. ولكن المشكلة تكمن في المادة 66، التي تسقط الحضانة عن الأم وتنقلها آليا إلى الأب في حالة الزواج من غير المحرم.

وتشير المحامية إلى وجود بعض الاستثناءات أمام القضاء فيما يخص زواج الأم مرةً ثانيةً. ففي حال تزوجت برجل أجنبي، فإن ذلك يتنافى مع مبادئ الشريعة الإسلامية ويُسقط عنها الحضانة؛ أما إذا تزوجت بمسلم فمن حقها التمسك بالحضانة، في حال أثبتت أن هذا الزواج لا يؤثر على مصلحة المحضون.

حركة الأمهات الحاضنات

ترى الكثير من الأمهات الحاضنات أنّ زوج الأم يعتبر محرمًا شرعيًّا، وأنّ القانون يكيل بمكيالين؛ فهو يمنح الزوج السابق الحق في إسقاط الحضانة عن الأم حتى وإن أعاد الزواج عدة مرات. كما تعتقدن أن بعض أحكام القانون الحالي هي مصدر للعنف ضد المرأة.

في عام 2020، نقلت مجموعة من الأمهات الحاضنات، جئن من مختلف مناطق البلاد، ومن مختلف المستويات الاجتماعية والفكرية، رسالتهن للسلطات المعنية من أجل إيجاد حل وسط لوضعيتهن، حيث وجهن خطابًا إلى رئيس الجمهورية تدعونه فيه إلى إلغاء المادة 66، وجاء فيه: «إن إلغاء المادة 66 من قانون الأسرة هو المطلب الرئيسي لتعبئة المواطنين الجزائريين للتنديد بالظلم الذي تسببت فيه هذه المادة، والذي يولّد حالات محفوفة بالمخاطر والمأساة في بعض الأحيان».

انطلقت هذه المبادرة بإنشاء مجموعة على موقع التواصل الاجتماعي فايسبوك، تحت شعار «معًا لإلغاء المادة 66 من قانون الأسرة»، ولقيت تفاعلًا كبيرًا، حيث وصل عدد أعضاء المجموعة إلى أزيد من 8000 عضو وعضوة، أغلبيتهم مؤيدون لحق المرأة في الزواج مرة ثانيةً، مع احتفاظها بحضانة أبنائها. وتصدر هاشتاغ «لا لإسقاط الحضانة عن الأم بعد إعادة زواجها مرةً ثانيةً» العديد من الصفحات.

تعمل النساء الناشطات في هذه الحركة على دعم بعضهن البعض، وعلى تشجيع أمهات حاضنات أخريات لكشف المستور. كما يحرصن على التواصل والاجتماع لمناقشة إمكانية وسبل التغيير في المادة نفسها، وحشد جمهور متتبع أكثر للوصول إلى التأثير على الرأي العام.

علاوة على ذلك، تسعى المجموعة الافتراضية للأمهات الحاضنات إلى فتح باب التعاون مع الجمعيات النسوية ومنظمات المجتمع المدني المعنية بالدفاع عن حقوق المرأة، من أجل الوصول إلى نتائج تجمع مصلحة الأم والطفل، وتتيح للنساء التمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الرجل في حالة طلاقه وحتى زواجه من امرأة ثانية. وتبقى كل هذه المساعي والمطالب مرفوعة إلى السلطات الوصية دون إنشاء أي جمعية أو منظمة.

المادة 66 من قانون الأسرة والدفع بعدم الدستورية؟

ما انفكّت الدساتير الجزائرية منذ عام 1963 تعلن أن المرأة مساوية للرجل؛ حيث ينص الدستور الجزائري على أن المواطنين متساوون أمام القانون دون أي تمييز بين الجنسين، وهذا ما جاء في المادة 32 منه: «كل المواطنين سواسية أمام القانون. ولا يمكن أن يُتذرّع بأيّ تمييز يعود سببه إلى المولد، أو العِرق، أو الجِنس، أو الرّأي، أو أيّ شرط أو ظرف آخر، شخصيّ أو اجتماعيّ».

يقول مسانسن شربي، دكتور في الحقوق بجامعة باريس 2: «إن قانون الأسرة هو معيار تشريعي، ويتطلب التسلسل الهرمي للمعايير أن تكون متسقة مع الدستور، وهو المعيار الأعلى

رجاءا لا تحرموا الأطفال من أمهاتهم بعد زواجهن للمرة الثانية فزوج الأم محرم شرعي و ليس سببا لاسقاط الحضانة

السيد(ة). بتاريخ

الى السيد رئيس اللجنة القانونية بالبرلمان

الموضوع طلب الغاء المواد 65 و 66 و 70 و تعديل المادة 64من قانون الأسرة الجزائري لأن الزوج محرم شرعي .

سيدي الوزير المحترم ،أناشدكم السعي لتغيير قانون الأسرة بما يتناسب و مصلحة الطفل المحضون الذي يعاني من سوء المعاملة و استغلاله بعيدا عن حضن أمه ،و كذا حماية للأم الحاضنة من التهديد و الابزاز و الاستغلال و ذلك بالغاء المواد 65و 66و 70 من قانون الأسرة وجعل الحضانة للام حتى بعد زواجها ،كون زوج الأم يعتبر محرم شرعي بدليل القرآن الكريم في الآية 23 من سورة النساء ، ما يعني أنه ليس سببا في اسقاط الحضانة ،و كذا تعديل المادة 64 من قانون الأسرة بجعل الأم حاضنة حتى بعد زواجها ثم تأت الجدة للام ثم الخالة ..الخ ، و ذلك لصالح الطفل المحضون قبل ان يكون رحمة بالأم و الجدة لأم الأم التي اصبحت تتعرض للتهديد من طليقها فيما تبقى من حياتها بنزع أطفالها ان تزوجت ؟ فتشردت الكثير من المطلقات و لجأن للزواج العرفي لهذا السبب و خوفا من فقدان فلذات أكبادهن . فالطفل لا يمكنه العيش بعيدا عن حضن والدته خصوصا أنها حية ترزق ،أمه التي خلقها الله عز و جل لحضانته و ليس زوجك الأب أو غيرها ، فهي الأكثر حرصا على صحته و سلامته و نجاحه ،هي الوحيدة التي تتحمل صراخه و عناده و تسهر لأجله ليلا ان جاع او مرض ، هي الوحيدة التي لا تكل و لا تمل من خدمته ،و ان انزعجت تعود و تندم و تحتضن طفلها ،هي الوحيدة نبع الحنان بالنسبة له ثم تأتي بعدها الجدة للأم ، الأم الثانية ان تعذر على الأم حضانة طفلها ، سيدي الوزير المحترم الكبار و يرفضون الابتعاد عن أمهاتهم فما حال الصغار و هم ينزعون من أمهاتهم نزعا ؟؟؟.

دور الحضانة لا تقوم به الا امرأة ، و لا يعقل ان تنزع الحضانة من الأم التي خلقت لأجله و تعطى لزوجة الأب ؟؟ التي لا علاقة لها بالطفل ، بل هو بالنسبة لها حمل ثقيل يؤرقها .

أملنا بأن تأخذوا مطالب الآلاف من المطلقات بعين الاعتبار ، فنحن كنساء مطلقات و غير مطلقات نثق بكم و بحبكم لأطفال وطننا الغالي ،و بحفاظكم على شرف العديد من المطلقات خصوصا الصغيرات و الفقيرات و اليتيمات ، اللاتي يعانين الظروف القاسية حيث يتم ابتزاز الكثيرات منهن مقابل الحصول على لقمة عيش و مأوى لأطفالهن في مجتمع لا يرحم .

كلنا أمل بأن تنقذوا الطفولة البريئة و ترمموا جراح أمهات مكسورات

لكم منا سيدي الوزير المحترم كل الاحترام و التقدير

توقيع المعنية

للدولة. إن قانون الاسرة يتعارض بشكل واضح مع مبدأ المساواة الدستوري، لذلك ينبغي تنحية بعض أحكام قانون الأسرة جانبًا باعتبارها غير دستورية».

ويردف متسائلا عن سبب عدم اللجوء إلى آلية الدفع بعدم الدستورية فيما يخص المادة 66 من قانون الأسرة، إذ «لم نسمع بقضية طرحت إشكالية عدم دستورية المادة 66، هل هي من المحرمات؟».

يعدّ هذا الاجراء، الذي دخل حيز التنفيذ في مارس 2019، فرصة قانونية للمتقاضين لنيل حقوقهم، في حال رأوا أن النصوص القانونية المرجعية المطبّقة على قضاياهم تتعارض مع أحكام الدستور. وهذا الإجراء من اختصاص المحامي، لكونه الشخص الذي يمثل المتقاضي أمام القضاء العادي أو القضاء الإداري.

في الثامن من مارس/آذار 2021، حاولت إحدى المحاميات استخدام آلية الدفع بعد دستورية قانون الأسرة، ونددت ببعض مواده، عبر فيديو تفصيلي شاركته عبر مواقع التواصل الاجتماعي، تطرقت فيه إلى الكثير من النقاط، منها التلاعب بالنفقة وإسقاط حق الحضانة في المادة 66، وفق تصريح للناشطة آمال حجاج للمجلة.

سبق وأن شاركت هذه المحامية معاناتها مع زوجها السابق، الذي حاول مرارًا سلبها حضانة ابنتها. كما عدّدت الأسباب التي جعلتها تتحرك وترفع دعوى قضائية ضد طليقها، لتثبت عدم دستورية المادة 66 وسعيها إلى تحريك القضاء عن طريق الحصول على تأييد الرأي العام.

تعود حيثيات هذه القضية إلى محاولة المحامية أخذ ابنتها للدراسة في الخارج، فحكمت القاضية بإسقاط حق الحضانة عنها بحجة أنها أرادت تهريب ابنتها بعيدا عن والدها؛ مع أنها لم تكن تنوي الزواج مجدّدًا.

بعد فترة وجيزة من نشر الفيديو في 17 مارس/آذار 2021، أُحيلت إلى المجلس التأديبي، وتمت المداولة بالمساس بمؤسسات الدولة والطعن بعدم دستورية القوانين الجزائرية. كما رفضت القاضية إعادة سماع الطفلة مبررة ذلك باطلاعها على مضمون الملف، دون حاجتها إلى معرفة المزيد.

للإشارة، فقد حاولت المحامية تحريك الرأي العام والمجتمع المدني بالتوجه مباشرة إلى وزارة العدل، قبل أن تتراجع عن قرارها بعد العراقيل التي واجهتها، سواءً من قبل زملائها في المجلس أو حتى من جمعيات ومنظمات المجتمع المدني، الذين تخلوا عنها بعدم التجاوب معها. في نهاية المطاف، اضطرّت إلى ترك ابنتها عند والدتها، وسافرت للعمل في الخارج من أجل ضمان مستقبل ابنتها وتحسين وضعها الاقتصادي.

في هذا الصدد، نشرت الناشطة الحقوقية ورئيسة مركز الإعلام والتوثيق لحقوق الطفل والمرأة (سيداف)، نادية آيت زاي، مرافعة من أجل إلغاء الفقرة الأولى من المادة 66 من قانون الأسرة، أعلنت عنها يوم 24 جوان/حزيران 2021 بمقر مؤسسة «من أجل المساواة» (أخرجه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني). بالجزائر العاصمة.

تضمّنت المرافعة اقتراح الإلغاء تماشيًا مع اتفاقية الأمم المتحدة للقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، التي صادقت عليها الجزائر بتاريخ 18 ديسمبر/كانون الأول 1997، وكانت دخلت حيز التنفيذ في 03 سبتمبر/أيلول 1981. حيث عرّفت الاتفاقية التمييز ضد المرأة على أنّه «أي تفرقة أو استبعاد أو تقييد يتم على أساس الجنس ويكون من أثاره أو أغراضه، توهين أو إحباط الاعتراف للمرأة بحقوق الانسان والحريات الأساسية في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمدنية أو في أي ميدان آخر، أو توهين أو إحباط تمتعها بهذه الحقوق أو ممارستها لها، بصرف النظر عن حالتها الزوجية وعلى أساس المساواة بينها وبين الرجل».

كما اعتمدت المرافعة على مراعاة المصلحة الفضلى للطفل المكرسة دستوريًا، وهذا ما جاء في قانون حماية الطفل لعام 2015، بالإضافة إلى إبداء رأي المحضون في الأمور المتعلقة بمنح الحضانة، مع اتباع المبدأ المذهبي والاجتهادي القضائي المتبع قبل الاستقلال وبعده حول مسألة فقدان الأم حق الحضانة بعد زواجها مرة ثانية وأنّه ليس بالأمر المطلق.

أما الناشطة الحقوقية ورئيسة جمعية «حورية للمرأة الجزائرية»، فترى أن المادة 66 عززت ظاهرة الزواج السري بين المطلقات، لخوفهن من فقدان حضانة أطفالهن.

وقالت بشأن مبادرة «نور»، التي أطلقتها الجمعية، إنها جاءت من أجل مراعاة مصلحة الطفل المحضون، ولتحقيق توازن بين مصلحة المحضون والحاضن، مع إتاحة الفرصة للمرأة المطلقة أو الحاضنة بالزواج مرة أخرى، دون خوف من فقدان الحضانة، إضافة إلى أهداف أخرى، منها توفير حضانة آمنة للطفل، والرعاية النفسية والتربوية، وتأمين الاستقرار العاطفي له.

كما خرجت هذه المبادرة بتوصيات، منها استحداث مجالس للوساطة بعيدًا عن المحاكم، لنشر الوعي والتأهيل الأسري من قبل جمعيات ومنظمات مختصة في شؤون الأسرة. بالإضافة إلى فتح النقاش مع الهيئات الشرعية والمختصين في المجالات الأخرى.

وتبقى كل هذه المبادرات الجمعوية والمرافعات القانونية بدايةً لوضع خارطة طريق واضحة من أجل تعزيز مطالب الأمهات الحاضنات وإعادة النظر في الفقرة الثانية من المادة 66. كما ترى آيت زاي أنّه يجب إعادة التذكير والعمل مجددا من أجل إحداث التغيير في قانون الأسرة الجزائري بالعمل المشترك بين جميع الأطراف المعنية من المجتمع المدني والسلطات العليا في البلاد.

اِسمعوني*

جرائم قتل النساء في الجزائر

* أغنية لوردة الجزائرية

في الفاتح جانفي/كانون الثاني من عام 2020، أطلقت الناشطتان النسويتان وئام أوراس ونريمان مواسي باهي موقع «لا لقتل النساء – الجزائر» (Féminicides Algérie).

يُعنى هذا الموقع بتسليط الضوء على جرائم قتل النساء في الجزائر من أجل إدانتها، من خلال العمل الدؤوب على إحصائها استنادًا لما يُنشر في الجرائد ومنصات التواصل الاجتماعي، إضافةً إلى إجراء مؤسّستي الموقع استقصاءات دقيقة تتيح إعادة بناء قصص هؤلاء النساء المغدورات.* توجد أنواع مختلفة من جرائم قتل النساء، وهي:

قتل النساء على يد الشريك الحميم (العشير): وهي جريمة القتل التي يرتكبها رجل تربطه علاقة حميمة، راهنة أو سابقة، بالمرأة التي قتلها، سواءً كان زوجها الراهن أو السابق، أو خطيبها، أو حبيبها؛

قتل النساء على يد شخص غير الشريك الحميم: وهي جريمة القتل التي يرتكبها رجل لا تربطه أيّ علاقة حميمة مع الضحية؛ مثلًا، أحد أفراد الأسرة، أو أحد الجيران، أو متحرشٌ جنسيٌّ، أو مغتصبٌ؛

قتل النساء باسم «الشرف»: وهي جريمة القتل التي يرتكبها عادة أحد أفراد الأسرة ضد المرأة، بذريعة تجاوز جنسي أو أخلاقي مزعوم.

*** لمعرفة المزيد عن المشروع وآليات جرائم قتل الإناث في الجزائر، يمكنكم الاطلاع على مقال «قتل النساء في الجزائر: تعداد للتنديد»، الصادر في العدد 0 من مجلة «لبلاصة»، 2022، ص 58-62.**

قائمة جرائم قتل النساء في العام 2022

1. حفيظة منصوري، في العقد الثالث من العمر. اختفت يوم الخميس 30 ديسمبر/كانون الأول 2021. تبيّن بعد خمسة أيام أنّ جارها قتلها، ثمّ أحرقها ودفنها، لأنّها رفضت الزواج به. **أم البواقي، 03 جانفي/كانون الثاني.**

2. لويزة حمداش، 65 سنة، أم لخمسة أبناء، قتلها ابنها بضربات على الرأس. **البويرة 05 جانفي/كانون الثاني.**

3. فتيحة بومزراق، أستاذة لغة فرنسية متقاعدة، ضربها ابنها، الذي كان يعنّفها منذ عدة سنوات، وخنقها حتى الموت. **البليدة، 13 جانفي/كانون الثاني.**

4. امرأة مجهولة الاسم، 65 سنة، قتلها زوجها بعدة ضربات على مستوى الرأس. **عنابة، 16 جانفي/كانون الثاني.**

5. فاطمة رحماني، 34 سنة، ضربها زوجها بحمالة المعاطف على راسها عدة مرات حتى قتلها. كان يعنّفها منذ عدّة سنوات. كانت فاطمة أستاذة اللغة العربية في الثانوية، وكانت حاملًا بطفلها الأول. **تلمسان، 6 فيفري/شباط.**

6. كلثوم رخيلة، 33 سنة، ضربها زوجها السابق وطعنها حتى الموت أمام أطفالها. كان يعنّفها، ويهدّدها ويضايقها منذ عدة سنوات، بل وحاول قتلها سابقًا. تقدمت كلثوم بشكاوى لدى مصالح الدرك عدّة مرّات. كانت أمًّا لثلاثة أطفال. **بومرداس، 13 فيفري/شباط.**

7. امرأة مجهولة الاسم، 22 سنة، قتلها زوجها طعنًا. كانت أمًّا لطفل واحد. سيدي بلعباس، **24 فيفري/شباط.**

8. امرأة مجهولة الاسم، 40 سنة، قتلها ابن أختها طعنًا. كانت تحضّر عرسها. أم البواقي، **24 فيفري/شباط.**

9. رفيدة بوعود، 9 سنوات، قتلها جارها خنقًا، وسرق القرطين الذين كانت تضعهما. **معسكر، 01 مارس/آذار.**

10. امرأة مجهولة الاسم، 30 سنة، قتلها زوجها السابق طعنًا. كانت أمًّا لأربعة أطفال. وهران، **02 مارس/آذار.**

11. امرأة مجهولة الاسم، 19 سنة، أخوها وأمّها كتما أنفاسها بالوسادة، بعدما اكتشفا أنها في علاقة حب مع أحدهم. **سوق أهراس، 02 مارس/آذار.**

12. نورة، 33 سنة، قتلها رجل كانت في علاقة معه طعنًا بالسكين، ثمّ أخفى جثّتها بصبّ الاسمنت عليها. **وهران، 26 مارس/آذار.**

13. امرأة مجهولة الاسم، في العقد الثالث من العمر، أحرقها زوجها حيّةً أمام اثنين من أبنائهما. كانت أمًّا لأربعة أطفال. **الوادي، 16 أفريل/نيسان.**

14. خديجة عبادة، في العقد السابع من العمر، ضربها زوجها بأسطوانة الغاز فقتلها. كانت متقاعدة من قطاع الصحة، حيث عملت عاملة نظافة. كانت أمًا لأربعة أطفال. **تقرت، 22 أفريل/نيسان.**

15. خديجة، 39 سنة، ذبحها زوجها أمام أطفالهما، ثمّ حاول قتل أمّها قبل أن يلوذ بالفرار. أُلقي القبض عليه بعد يومين من الجريمة. عانت خديجة من عنف زوجها لعدة سنوات. **سيدي بلعباس، 30 أفريل/نيسان.**

16. امرأة مجهولة الاسم، 71 سنة، قتلها رجل بعد أن كبّلها لسرقة مجوهراتها. في **عين الدفلى، 25 أفريل/نيسان.**

17. هبة محمدي، 28 سنة، توفّيت على إثر تعرّضها للاعتداء والضرب في عدة أماكن من جسدها على يد مجهول. كانت محامية، متخرجة من كلية الحقوق، من جامعة وهران. **الجزائر العاصمة، 09 ماي/أيّار.**

18. أمينة فتان، 29 سنة، قتلها أخوها طعنًا بالسكين. **الجزائر العاصمة، 13 ماي/أيّار.**

19. مروى بوخاري، 18 سنة، قتلها أبوها بضربها ضربًا شديدًا على الرأس. كانت تلميذة في الثانوية. **تلمسان، 18 ماي/أيّار.**

20. امرأة مجهولة الاسم، 20 سنة، قتلها رجل من معارفها بطعنات سكين. كانت أمًّا. **سعيدة، 19 ماي/أيّار.**

21. امرأة مجهولة الاسم، 37 سنة، قتلها زوجها خنقًا. كانت حاملًا وأمًّا لثلاثة أطفال. **بسكرة، 22 ماي/أيّار.**

22. إيمان منصري، 34 سنة، طعنها زوجها تسع عشرة طعنةً بالسكين، ثمّ انتحر. كانت أمًّا لثلاثة أطفال. **عنابة، 06 جوان/حزيران.**

23. ميعاد برحايل، 15 سنة. ضربها أبوها ضربًا مبرحًا، ثمّ خنقها. **باتنة، 12 جوان/حزيران.**

24. سناء منصوري، 39 سنة، تعرّضت للتعنيف والتعذيب على يد زوجها. حيث إنّه حبسها في البيت بعد ولادة ابنتها الأخيرة، وعذّبها لمدة أسبوع، فكسر عمودها الفقري، وعددًا من أضلاعها، ثم دفعها من أعلى الدرج. كانت أمًّا لأربعة أطفال. **سوق أهراس، 15 جوان/حزيران.**

25. سعاد بن زاوي، 43 سنة، قتلها زوجها ذبحًا، ثم طعن ابنتهما البالغة من العمر عشرة سنوات بعدة طعنات سكين، لكنّها نجت من الموت. **سطيف، 19 جوان/حزيران.**

26. بلحمري جميلة، 49 سنة، قتلها زوجها طعنًا بالسكين، أمام أعين أطفالهما. كان زوجها يعنّفها لعدة سنوات. **بشّار، 27 جوان/حزيران.**

27. فاطمة الزهراء بن شيخة، 32 سنة، وهي في طريقها إلى العمل، هاجمها رجل في الشارع وطعنها بالسكين عدّة مرّات. كانت رفقة زميلتها، التي تعرّضت أيضًا للطعن، لكنها نجت من الموت. **الجزائر العاصمة، 28 جوان/حزيران.**

28. لمياء بوتوحة، 24 سنة، قتلها زوجها خنقًا. كانت أمًّا لطفلين. **الطارف، 28 جوان/حزيران**

29. سماح، 29 سنة، قتلها زوجها بعدة طعنات سكين. **ميلة، 11 أوت/آب.**

30. عائشة عميرات، 65 سنة، ذبحها ابنها البالغ من العمر 32 سنة، متقاعد من الجيش. **كانت أمًّا لخمسة أبناء.سكيكدة، 26 أوت/آب.**

31. غنية وطار، 30 سنة، قتلها زوجها نتيجة ضربها ضربًا مبرحًا، لأنها رفضت الرضوخ لمحاولاته استغلالها في الدعارة. كانت من ذوي الاحتياجات الخاصة. **سوق اهراس، 27 أوت/آب.**

32. سامية جموعي، 40 سنة، قتلها زوجها بضربها بأداة حادة خلف رأسها، ثم قتل أطفالهما الثلاثة شنقًا. **عنابة، 30 أوت/آب.**

33. تواتية معزوزة، المدعوة أمينة، 26 سنة، قتلها زوج أختها المتوفاة ذبحًا. كانت تعمل سكرتيرةً في مستشفى عين تيموشنت. **وهران، 15 أكتوبر/تشرين الأول.**

34. فاطمة حمزي، 78 سنة، ضربها ابنها حتى الموت، ثم دفنها في حديقة المنزل. كان ابنها يعنفها منذ عدة سنوات. كان لديها ابنتين، إضافة إلى ابنها. **وهران، 24 أكتوبر/تشرين الأول.**

35. رزيقة باشا، 39 سنة، زوجها، الذي عنّفها لعدة سنوات، قتلها بضربة بالمطرقة على الرأس. كانت أمًّا لبنتين، وتعمل مهندسة معمارية. **عين الدفلى، 7 نوفمبر/تشرين الثاني.**

36. نادية معروف، 54 سنة، قتلها ابنها بعدة طعنات بالسكين. كانت معلمة اللغة العربية في كتّاب مسجد الحي. كانت أمًّا لثلاثة أبناء. **وهران، 13 نوفمبر/تشرين الثاني.**

37. هاجر شطاح، 32 سنة، ذبحها زوجها السابق عند مدخل شقتها، أمام ابنهما البالغ من العمر أربعة سنوات. كان قد هدّدها بالقتل مرارًا. كانت أمًّا لثلاثة أطفال. **عنابة، 14 نوفمبر/تشرين الثاني.**

38. امرأة مجهولة الاسم، قتلها ابن أخيها طعنًا بالسكين في القلب. **عنابة، 03 ديسمبر/كانون الأول.**

ساحرات

الجسم والصحة

* دراسة لمونى شوليه تتناول من بين مواضيع أخرى تاريخ المعالجات التقليديات التي وُصمن بالساحرات، كما حدث لنساء أحرار أخريات. صدر الكتاب عام 2019

أمراض الغدة الدرقية: مشكلة صحية لدى الإناث

إيمان أماني

تعدّ الغدة الدرقية المسؤولة عن إنتاج عدد من الهرمونات، ولها وظيفة كليّةٌ داخل جسم الإنسان من خلال المشاركة في الأداء السليم للأعضاء المختلفة التي يتكون منها؛ فهي تصنّع وتفرز هرمونات أساسية تساهم في تنظيم معدل ضربات القلب، وضغط الدم، ونمو العظام، ووظيفة الأعصاب الصحية. كما تنظم هرمونات الغدة الدرقية درجة حرارة الجسم، ووزنه، وتساعد في الحفاظ على صحة الأظافر والشعر.
إنّ النساء هنّ الفئة الأكثر إصابة بأمراض الغدة الدرقية، فلماذا؟

سليمة، 34 سنةً، طبيبة

كوني طبيبة، كنت مقتنعةً أنني قادرةٌ على الاكتشاف المبكر لبعض الأمراض التي قد تصيبني، وذلك بالتعرف على أعراضها. لكنّني غفلت عن حقيقة أنّ بعض الأمراض قد تجعلنا نشعر أنّنا بصحة ممتازة. بدأت منذ بضعة أشهر العمل في مؤسسة للصحة الجوارية وكنت أعمل بنشاط كبير؛ كان بإمكاني العمل من الساعة الثامنة صباحًا إلى غاية الخامسة مساءً دون أخذ استراحةٍ، ولا حتى فسحة الغداء. ظننت أن حماسي كان السبب في نشاطي الزائد. لكن في الوقت نفسه، فقدت شهيّتي للأكل، وأصبحت عصبيّة على غير العادة (فأنا شخص هادئ بطبعي)، ومتوتّرة للغاية. في غضون أسابيع قليلة، فقدت خمسة كيلوغرامات من وزني، مع أنني كنت آكل كلّ ما أشتهيه. وقتها، قال لي أحد زملائي، على نحو مبهم: «لديك مشكلةٌ في الغدة الدرقية».
وبالفعل، شُخّصت بداء غْرَيْفز. وتبع التشخيص علاجٌ باستخدام أدوية مضادة للدرقية، والعديد من الزيارات لدى الطبيب، وعددٌ من تحاليل الهرمونات. اليوم، عادت مستويات الهرمونات إلى طبيعتها، وأرجو ألّا أصاب بانتكاسة.

لينا، 23 سنة، طالبة

قصة مرضي معقّدةٌ نوعًا ما. تمثلت الأعراض الأولى التي لاحظتها في احمرار وألم في العين. وأنا أعاني من المرض منذ أزيد من سنة. استشرت أوّلًا طبيب العيون، لكنه لم يكتشف أي أمر غير طبيعي. لذلك أُحلت إلى طبيب الأعصاب، ثمّ إلى طبيب الأمراض الباطنية الذي نصحني بإجراء اختبارات للدم والهرمونات، وتصوير الرقبة بالموجات فوق الصوتية. للأسف، اكتشف الأطباء بعد خمسة عشر يومًا إصابتي بعُقَيدة سرطانية. فتقرّر إزالة العُقَيدة والغدة الدرقية بالكامل جراحيًّا. لا أعرف بالضبط دور هذه الغدة؛ فأنا لست ذات تكوين علميّ. لكنّني أعرف أن لكل جزء من أجزاء الجسم دورٌ في العمل السليم للكلّ. من المؤكّد أنهم سيقطعون جزءًا مني لأتمكن من العيش طويلًا، هذا ما يقوله الأطباء. نشعر أنا وعائلتي بصدمة كبيرة، لكنّنا نؤمن رغم ذلك بنجاح العملية. حاليًّا، أنتظر الحصول على العلاج بالمركز الاستشفائي الجامعي بقسنطينة وتحديد موعد العملية؛ أنتظر وأتمنى تحديد الموعد بسرعة... أنتظر متمنيةً العيش طويلًا.

ليندا، 46 سنة، أستاذة

في عام 2020، استأنفنا التدريس متأخرًا، بعد توقف دام شهورًا من التوتر بسبب جائحة كوفيد-19. كنت سعيدة جدًّا بالالتقاء بتلاميذي مجددًا. بعدها بشهر، بدأت أشعر بالتعب، ولا أنام كثيرًا في الليل، وأخذ شعري يتساقط، الأمر الذي أقلقني للغاية. استشرت في البداية طبيبًا للأمراض الجلدية، ووصف لي دواءً. بعد مرور ستة أسابيع، لم ألحظ أي تحسن في حالتي، وفكرت أن الأمر قد يكون مشكلة في الهرمونات. لذلك، أجريت التحاليل اللازمة، وعرفت أخيرًا المرض وراء الأعراض التي كنت أعاني منها؛ كنت مصابة بقصور الغدة الدرقية. حينها، وصف لي الطبيب علاجًا هرمونيًّا، فكان عليّ تناول هرمونات من أجل تحفيز عمل الغدة الدرقية. في البداية، كنت أبتلع الأقراص على مضضٍ، لكن ما إن لاحظت تحسّنًا في حالتي العامة، وبالأخص توقف تساقط الشعر، أصبحت أهدأ، وشعرت بأنني أعود إلى إيقاع حياتي الطبيعي. ما زلت أتناول الأدوية إلى يومنا هذا، وأزور الطبيب بانتظام لفحص مستويات الهرمونات ومراقبتها.

لالّة فطوم، 79 سنة

كما يقول أحفادي، أنا أضع «قلادة طبيعيّةً». بدأ عنقي في الانتفاخ قبل عشرين سنة؛ كنت أعيش وقتئذ في دوّار قرب جيجل. كان الأطباء نادرون في المنطقة، ومع تحملي مسؤولية إعالة ثمانية أطفال، لم أكن أملك رفاهية التنقل إلى المدينة وزيارة الطبيب. كنت ألاحظ كلّما نظرت إلى المرآة أن الورم في رقبتي يزداد حجمًا. كنت قد رأيت هذا قبلًا، فجدتي أيضًا كان لديها «لؤلؤة ضخمة» في الرقبة؛ نسمّيه «لقواتر». عدا هذا، ليس لدي أي مشكلة صحية أخرى. أكل السمك أكثر من الماضي، فأطفالي الآن يعملون ويعتنون بي. لكن ذلك لا يحلّ المشكلة؛ ما زلت أحمل «لؤلؤتي»... سترافقني حتمًا عندما أنتقل إلى رحمة الله.

تميمة، 34 سنة، معلّمة لغة في المتوسطة

كان الناس من حولي يحدثونني عن الغدة الدرقية، وكانت لديّ فكرة بسيطة عنها؛ كنت أعرف أنها موجودة في مكان ما في العنق، وأنّ لها بالتأكيد فائدة ما؛ فكما يُقال عندنا «كل ما خلق الله ضروريٌّ». بعد أربعة أشهر من ولادة طفلي الثالث، أخذ شعري يتساقط؛ في البداية كان التساقط خفيفًا لكن بعدها أصبحت أفقد خصلات كاملة. عندما كنت أقوم بأعمال البيت، كنت أجمع ما يكفي لصنع باروكة، حتى زوجي كان يجد شعرات في صحنه! وقتئذ، ظننت أن ذلك راجع إلى الحمل والرضاعة. بعدها بأسبوعين، بدأت أشعر بالتعب الشديد، أشدّ من المعتاد، وانتابتني هبّات الحرارة، ولم أعد أنام إلا قليلًا، وصرت عصبيّةً أكثر فأكثر. أتذكر أنني قلت لزوجي بأنني ما زلت صغيرة على بداية انقطاع الطمث؛ فأجابني: «سيكون ذلك محبّذًا. يكفينا ثلاثة أطفال!». في يوم الأحد التالي، قررت زيارة طبيب عام. وبعد إجراء مجموعتين من الفحوص الكاملة، أُعيد توجيهي إلى أخصّائيّ الغدد الصماء، الذي أخبرني أنني مصابة بفرط نشاط الغدة الدرقية التالي للولادة. بعد شهرين من بدأ العلاج، لاحظت أن طفلي لا يجد ما يكفي من الحليب في ثديي ولا يشبع. عاودت مراجعة أخصّائيّ الغدد الصماء، وتبيّن بعد إجراء فحص آخر للهرمونات أنني هذه المرة مصابةٌ بقصور الغدة الدرقيّة، نتيجة وصف جرعة عالية جدًّا من الدواء. أنا بطبعي شخصٌ هادئٌ ومرحٌ، هذا ما يقوله زملائي في العمل، لكنّي لحظتها شعرت بأن ما يحدث فوق طاقتي؛ شعرت أن جسمي فقد توازنه كليًّا. فتارةً، الهرمونات مرتفعة، وتارةً أخرى هي منخفضة! مع العلم أنّني أجريت جميع التحاليل والفحوصات لدى القطاع الخاص؛ لقد صرفت عليها ما يقرب من نصف منحة الأمومة. شعرت بالغضب، والإحباط، وطفلي كان يتضور جوعًا، إذ إنّ قصور الغدة الدرقية يؤدي إلى انقطاع الحليب. الآن، وبعد أن طرحت مئات الأسئلة، وبحثت لساعات طويلة على الإنترنت، وأنفقت ألاف الدنانير، أعرف أن مشكلتي هي الغدة الدرقية، وأن المرأة بعد الولادة معرّضة للإصابة بالتهاب الدرقية.

ما هي الغدة الدرقيّة؟ وما دورها في الجسم؟

الدرقيّة هي غدّة على شكل فراشة، تقع في قاعدة العنق، ويبلغ ارتفاعها 6 سنتيمترات وطولها بين 6 و8 سنتيمترات. تنتج الغدة الدرقية الهرمونين ثلاثي يود الثيرونين T3 والثيروكسين T4، الذين يؤثّران على معدّل الاستقلاب، وتفرزهما في الدم. وتحتاج لإنتاجها كميّة معيّة من عنصر اليود، الذي تحصل عليه بشكل أساسيّ من التغذية، فتقوم بتخزينه، تحويله، وإفرازه على شكل الهرمونين المذكورين عند الحاجة. ينظم العملية الهرمون المنبه للدرقية TSH، والذي يتم تنظيم إفرازه بدوره من الدماغ.

لماذا النساء هنّ أكثر عُرضة للإصابة بأمراض الغدة الدرقية؟

النساء ضحايا لهرموناتهنّ، فهنّ أكثر عرضة بثمانية أضعاف للإصابة بأمراض المناعة الذاتية مقارنة بالرجال. يُعتقد أنّ الإستروجينات، الهرمونات الأنثوية الأساسية، هي السبب في تثبيط عامل مهم من عوامل المناعة، ممّا قد يؤدي إلى خلل في عمل الجهاز المناعي. تندرج العديد من أمراض الغدة الدرقية في قائمة أمراض المناعة الذاتية، مثل داء هاشيموتو (التهاب الغدة الدرقية المزمن)، وداء غُرَيفز (الدُّراق الجُحوظي)، ممّا يفسّر شيوعها لدى النساء.
علاوة على ذلك، تتوافق ذروات حدوث هذه الأمراض مع حدوث تغيرات معيّنة في جسم المرأة، مثل الحمل، والولادة، وانقطاع الطمث...

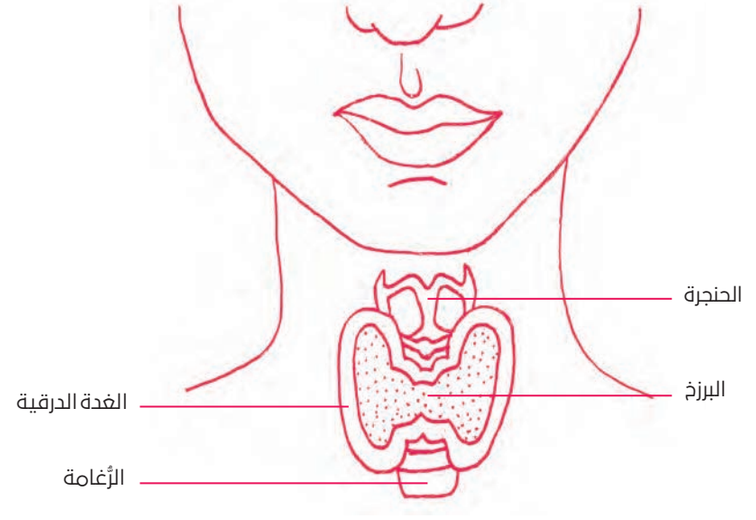

خمسة أمراض تصيب الغدة الدرقية

فرط الدَّرقية: وهو فرط نشاط الغدة الدرقية، حيث إنها تفرز كمية زائدة من الهرمونات، ممّا يؤدي إلى زيادة وتيرة الاستقلاب أو تسريع وظائف الجسم الأساسية (التنفس، الهضم، الدورة الدموية، وظائف الدماغ...). ويتجسّد ذلك في ظهور العديد من الأعراض، التي يسمح حدوثها معًا والربط بينها من وضع التشخيص المناسب. وهي:

- ارتفاع ضغط الدم وزيادة سرعة ضربات القلب،
- فقدان الوزن، على الرغم من الشهية الجيدة، بل وزيادتها،
- التعب الشديد،
- زيادة التعرق، مع ارتفاع درجة حرارة الجسم،
- التهيّج، العصبية، اضطرابات النوم، وارتعاش الأطراف،
- نقص تدفق الدورة الشهرية، أو انقطاعها.

يتمثّل السبب الرئيس في فرط الدرقية في داء غْرَيفز، والذي يصيب فئة النساء الشابات بكثرة. علاوة على الأعراض المذكورة أعلاه، يتجلى هذا المرض بتضخّم الغدة الدرقية وجحوظ العينين (لذا سُمّي أيضًا بالدّراق الجحوظي).
توجد بطبيعة الحال أمراض أخرى تسبب فرط إفراز الغدة الدرقية، من بينها: الورم الحميد السام، ارتفاع مستوى اليود، التسمم الدَّرقي (أخذ هرمونات الدرقية خفيةً لإنقاص الوزن)، والتهابات الدرقيّة التالية للولادة أو الفيروسية.

قصور الدرقية: هو تباطؤ عمل الغدة الدرقية. يصيب قصور الغدة الدرقية النساء بالدرجة الأولى، ويتميز بالأعراض التالية:

- زيادة الوزن، انتفاخ الوجه، جفاف البشرة، وفقدان الشعر،
- بطء القلب (انخفاض معدل دقات القلب)، الإمساك، انخفاض ضغط الدم، انخفاض درجة حرارة الجسم مع عدم تحمل البرد، الاكتئاب.

يندرج قصور الغدة الدرقية غالبًا ضمن أمراض المناعة الذاتية، وهو أكثر شيوعًا لدى النساء فوق الأربعين سنة. من بين مسبّبات قصور الغدة الدرقية داء هاشيموتو، والتهاب الدرقية الضموري، وقد تتراوح أعراضهما بين مجرد الشعور بعدم راحة على مستوى الرقبة وظهور دُرّاق كبير الحجم وصلب وعديد العُقيدات.

تجدر الإشارة إلى أن بعض المناطق في الجزائر تُعدّ مناطق توطّ للمرض (بسبب نقص اليود)، وهي: شرشال، المدية، سطيف، القالة، تلمسان، وعدد من القرى المعزولة في المناطق الداخلية.

العُقيدة الدَّرقية: منتشر انتشارًا واسعًا بين النساء، وهو عادة ورم حميد. العُقيدة الدرقية هي كتلة أو تورّم يتشكل داخل الغدة الدرقية، بدون أعراض وغير مؤلم، وغالبًا ما يُكتشف بالصدفة. في بعض الحالات، من الممكن أن يزداد حجم العُقيدة وتصبح مؤلمة.
يوجد عدة أنواع من العُقيدات:

- العُقيدة المسماة بـ«الباردة»، هي غير نشطة ولا تفرز هرمونات درقية، وهي في 10% من الحالات عبارة عن سرطان الغدة الدرقية،
- العُقيدة «الساخنة» أو النشطة، وتفرز كميّةً كبيرة من الهرمونات الدرقية. هي ورم حميد، لكنها تسبّب فرط الدرقية.

الكيسة الدرقية: وهي كيس يحتوي على سائل أو دم، وقد يكبر حجمه بسرعة ويصبح مؤلمًا.

الدّراق البسيط: يشير هذا المصطلح إلى ضخامة الغدة الدرقية، وهو تضخم حميد، وغير التهابي، ولا يرافقه أي خلل في وظيفة الغدة. كما أنه بدون أعراض، وسببه غالبًا هو نقص اليود في النظام الغذائي.

سرطان الغدة الدرقية: مثل أمراض الغدة الدرقية الأخرى، غالبًا ما يصيب النساء في سن توقف الطمث. ويكون علاجه جراحيًا، إذ يجب إزالة الغدة، ومن ثمّ تناول الهرمونات مدى الحياة. جميع سرطانات الغدة الدرقية تقريبًا هي سرطانات حُليْميّة متمايزة. بصرف النظر عن الأشكال الوراثية أو العائلية، لا توجد عوامل خطر معروفة، أو تدابير وقائية محددة لسرطان الغدة الدرقية. المرض غير مصحوب بأعراض في البداية، ولا يثير انتباه أحد. عندما تنمو العُقيدة السرطانية، تبدأ الأعراض بالظهور: تغير في الصوت، وألم عند البلع، وصعوبة في التنفس، وألم، وشعور بعدم الراحة في الرقبة، وما إلى ذلك.

أسئلة للآخصّائي

الدكتورة هاجر منيا، أخصائية الغدد الصماء والسكري، تجيب عن أسئلتنا.

هل نستطيع العيش بدون الغدة الدرقية؟

لا، لا نستطيع العيش بدون الغدة الدرقية. لذلك، في حالة استئصال الغدة الدرقية بالكامل، يصبح استخدام العلاج ببدائل الهرمونات ضروريًّا للحياة.

ما هي تأثيرات أمراض الغدة الدرقية على الخصوبة والحمل؟

الحمل هو فترة مُجهِدةٌ للغدة الدرقية (زيادة الاحتياجات الهرمونية، استنفاد مخزون اليود...). تتمتع الغدة الدرقية بقدرة كبيرة على التكيف إلا في حالات قليلة محددة، لا سيما نقص اليود أو عندما تكون أنسجة الغدة الدرقية هشّة بالفعل بسبب المناعة الذاتية.

في فترات النشاط الجنسي، يمكن أن تكون الغدة الدرقية مسؤولة عن اضطرابات الخصوبة. حيث تأثر اضطرابات الغدة الدرقية بدون علامات سريرية، والمناعة الذاتية المهاجمة للغدة الدرقية تأثيرًا سلبيًّا على فرص الحمل، وتزيد حدوث حالات الإجهاض. لذلك، من الضروري إجراء فحصٍ كاملٍ للغدة الدرقية في حالة العقم أو الإجهاض التلقائي.

هل ينبغي إجراء تحاليل الغدة الدرقية عند الحمل؟

يُجرى اختبار الغدة الدرقية (الهرمون المنبه للدرقية TSH) على نحو منتظم أثناء الحمل.

هلّا تصفين لنا التهاب الدرقية التالي للولادة باختصار؟

يصيب التهاب الدرقية التالي الولادة 5 % من النساء، ولكن الأعراض يمكن أن تكون خفيفة ولا يلاحظها أحد. بعد الولادة، يحدث تفاقم لظواهر المناعة الذاتية. يظهر التهاب الغدة الدرقية التالي الولادة بعد أسابيع قليلة من الوضع على شكل فرط الدرقية المعتدل والعابر، يليه عودة هرمونات الغدة الدرقية إلى المستويات الطبيعية، ثم مرحلة قد تطول من قصور الغدة الدرقية المصحوب بأعراض إلى حدّ ما.

أنصح بإجراء فحص للكشف عن المرض في حال ظهور أي متلازمة اكتئاب، أو تعبٍ جسديٍّ شديد، أو أي عرض آخر من أعراض خلل الدرقية.

ما هو العلاج باليود؟ وما الذي يميّزه عن العلاج الإشعاعي؟ هل هو متوفّر في الجزائر؟ وما هي كلفته؟

العلاج الإشعاعي هو طريقة علاجٍ موضعيّة للسرطان، حيث يستهدف «الإشعاع» موضع الخلايا السرطانية ويدمّرها، في حين أن العلاج باليود هو علاج يُستخدم فيه «اليود المشع (اليود 131)» الذي يتم تناوله عن طريق الفم على شكل كبسولات، في قسم الطب النووي.

يُستخدم العلاج باليود أساسًا في حالتين:

- **العلاج الجذري بعد استئصال الغدة الدرقية نتيجة إصابتها بالسرطان؛**
- **العلاج الجذري لفرط الدرقية المصاحب لمرض غرَيفز.**

تكون الجرعة أعلى بكثير في حالة سرطان الغدة الدرقية، وتتطلب دخول المستشفى في غرفة معزولة مُبطّنة بالرصاص لمنع تسرب الإشعاعات، على عكس حالة فرط نشاط الغدة الدرقية حيث يمكن للمريض العودة إلى المنزل مباشرة بعد تناول الكبسولة (مع مراعاة بعض الاحتياطات). كما يجب على النساء استعمال وسيلة فعالة لمنع الحمل لمدة 6 إلى 12 شهرًا عند العلاج باليود المشع. ويعدّ الحمل أحد موانع الحصول على هذا العلاج (لذا فإن تحليل هرمون الحمل (bêta-HCG) إلزاميٌّ قبل تناول كبسولة اليود 131 المشع).

للأسف، لا يوجد في الجزائر العديد من مراكز العلاج باليود 131 العمومية. لكن يوجد عددٌ قليلٌ من مراكز الطب النووي الخاصة التي توفر هذا العلاج. تبلغ الأسعار حوالي 25 ألف دينار لفرط نشاط الغدة الدرقية، ونحو 210 ألف دينار لسرطان الغدة الدرقية (تشمل جرعة اليود والمكوث ليومين في غرفة معزولة مُبطّنة بالرصاص).

ما هي فحوصات تشخيص أمراض الغدة الدرقية؟

- توجد فحوصات متنوعة، تتدرج من الإجراء البسيط إلى الإجراءات الباضعة:
- جسُّ الرقبة: هو الفحص الأول، ويتيح تقييم خصائص الغدة الدرقية، وربما البحث عن وجود عُقيدات أو درّاق؛
- الفحوصات البيولوجية: لاسيّما قياس مستوى الهرمونات. ويمكن أيضًا البحث عن أجسام مضادة معيّنة في حال وجود شكّ بإصابة الشخص بقصور الغدة الدرقية المزمن (داء هاشيموتو) أو داء غريفز. علاوةً على التحليل القياسي، يُجرى تحليل العد الدموي لمعرفة إن كان هناك فقر دم، ولقياس نسب اليود، والسكر، والكوليسترول في الدم؛
- تصوير العنق بالموجات فوق الصوتية: يوفّر التصوير معلومات عن وجود أي عُقيدات، وعددها، وحجمها، ومحتواها، وما إلى ذلك؛
- الوخز الخلوي: يُجرى الوخز باستخدام ابرة دقيقة لأخذ عيّنة من خلايا العُقيدة، ويفضل الاستعانة بالتصوير بالموجات فوق الصوتية؛
- التصوير الوَمضاتيّ: هي تقنية تصوير تنطوي على حقن محلول تباينيّ (مشعّ قليلًا) عن طريق الوريد، للكشف عن العُقيدات، أو الدرّاق، أو الكيسات، إن وُجدت؛ كما أنها تؤكد أيضًا نقص أو فرط إفراز هرمونات الغدة الدرقية.

الغدة الدرقية ونقص اليود

يعدّ اليود من المغذيات الدقيقة الضرورية لتصنيع هرمونات الغدة الدرقية، وهو موجود بكميات صغيرة جدًا في الجسم، ويحصل هذا الأخير على باقي احتياجاته من الأغذية. يستحيل على الغدة الدرقية أداء وظيفتها من دون حصولها على اليود.

ويعدّ نقص اليود السبب الرئيسي في العالم (الذي يمكن الوقاية منه) للتخلف العقلي، الذي يتراوح بين القصور الذهني الخفيف والفدامة. والدرّاق (تضخم الغدة الدرقية) هو أحد النتائج الرئيسية لهذا النقص. إلى يومنا هذا، لا تزال هناك مناطق يتوطنها الدراق في الجزائر:القليعة، ومرتفعات جيجل، وسطيف، وجبال المدية، وتيبازة، والمناطق النائية في تلمسان. في هذه المناطق، يعد الفقر، وسوء التغذية، وصعوبة الحصول على أطعمة معينة، السبب في نقص اليود وبالتالي ظهور الدرّاق.

لماذا نضيف اليود في ملح الطعام؟ الملح من المواد الغذائية المستهلكة عالميًا، إذ تستخدمه جميع شرائح المجتمع بانتظام طوال العام. وإضافة اليود إلى الملح لا يغير لونه أو رائحته أو طعمه. في بعض البلدان، يُضاف اليود إلى الحليب أو الماء، ولكن تبقى إضافة اليود إلى الملح الطريقة الأبسط والأنجع لتزويد الناس باليود اللازم لعمل الغدة الدرقية على نحو سليم.

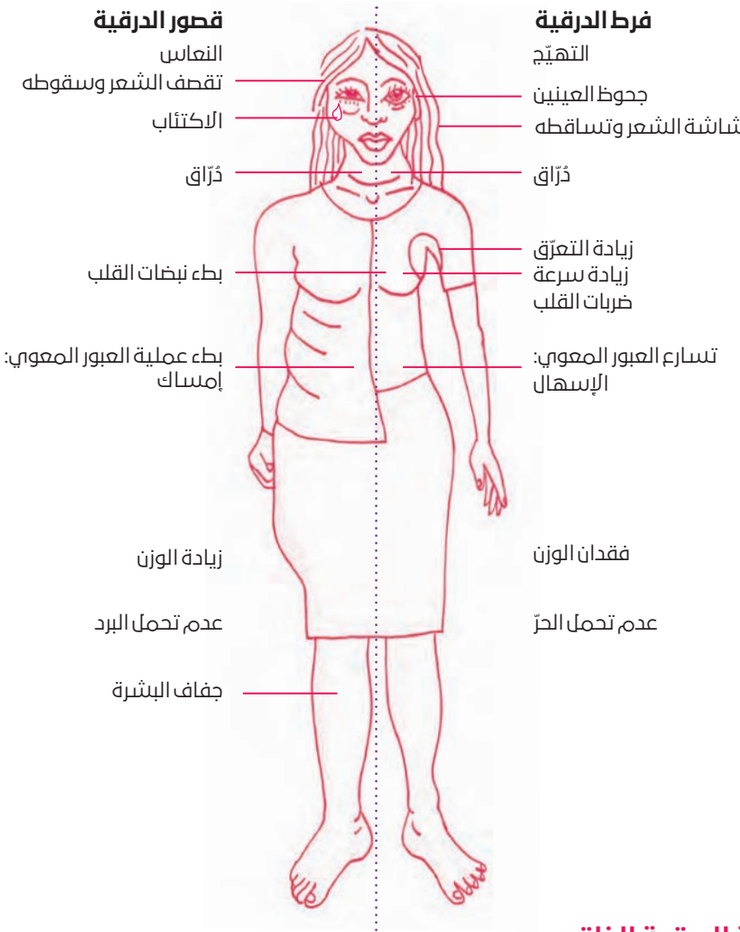

قصور الغدة الدرقية الخلقي

التعريف: نقص إنتاج هرمونات الغدة الدرقية عند حديثي الولادة.

الأعراض: أعراض البداية خفيفة؛ يكون الرضيع كثير النعسان، مع صعوبة في الرضاعة، وإمساك، وجلده يكون مرقّطًا أو مائلًا للاصفرار... إذا لم يُشرع في العلاج في الوقت المناسب، يُصاب الطفل بتأخر في النمو، وانخفاض الوزن مقارنة بالطول، وكذلك تخلف حركي نفسي عام لا يمكن عكسه.

الأسباب: في معظم الحالات، السبب هو تشوه (خلل في تكوين) الغدة الدرقية التي تكون إما في غير موضعها أو لم تنمُ بالشكل الصحيح.

الوقاية: يجب أن يكون فحص الكشف عن المرض منهجيًا، حيث يتم أخذ عينة دم بسيطة من كعب المولود في اليوم الثالث من العمر. إذا كان مستوى هرمون TSH مرتفعًا، فهذا يؤكد تشخيص قصور الغدة الدرقية الخلقي. للأسف، هذا الفحص لا يُجرى في الجزائر.

العلاج: يجب بدأ العلاج بأسرع وقت ممكن (اعتبارًا من اليوم العاشر من العمر). ويتمثل في تعويض العجز الهرموني عن طريق إعطاء هرمون بديل، «ليفوثيروكسين»، يوميًا ومدى الحياة.

واحدة

أخرى*

حوارات

مليكة رحال
آمال زان

* سيرة ذاتية لمايسة باي، صدرت عام 2010

«أفكر في مشاريعي بعقل هندسي، بما أنها تولد في محيطٍ كل شيء فيه متشابك، وتروق لي فكرة التنسيق بين الأشياء. »

حاورتها: هناء مناصرية

آمال زان، مغنية فرضت نفسها منذ سنين على الساحة الفنية الجزائرية. تكتب وتؤدي أغانٍ تروي جزائرها، وتنقل آرائها حول الظلم السائد في البلاد، لا سيما فيما يتعلق بحقوق النساء. في لقاء جمعني بها بمقهى عاصمي، حدثتني بعفويّة عن مسيرتها الفنية، وألبومها الأخير «جسور»، وعن الصعوبات التي تواجه الفنانات في عالم يهيمن عليه الرجال.

يعود لقائك الأول بالموسيقى إلى الطفولة. حدثينا عن ولادة شغفك بهذا الفن...

لقد أدركت، وأنا صغيرة، أنني وُجِدتُ لأغني. وبشهادة والدتي وحاضنتي، كنت أمضي يومي كاملا في الدندنة والغناء. طلبت من أبي أن يسجلني في مدرسة لتعلم الموسيقى، لكن شرشال كانت تفتقد آنذاك لمعهد موسيقي، فانضممت في سن العاشرة إلى «القيصرية»، وهي من الجمعيات الثقافية التي كانت تعطي دروسا في الموسيقى الأندلسية. تعلمت فيها الغناء المنفرد والعزف على آلة القويطرة.

كيف تمكنت من التوفيق بين دراستك وتكوينك الموسيقي ؟

الموسيقى هي شغفي وجزء طبيعي وجوهري من ذاتي، ولا يتطلب مني مجهودات كبيرة. أما بالنسبة للدراسة فقد كان أبي صارما للغاية، حيث إنّه اشترط عليّ التفوّق دراسيا لأتابع تكويني الموسيقي، وكانت هذه «الصفقة» مرهِقة جدًّا للطفلة التي كُنتُها؛ إذ كان ينتابني الهلع أمام احتمال الاستغناء عن الموسيقى، لكن في الوقت نفسه كان ذلك محفزًا لأصير الأفضل. بعد تحصلي على شهادة البكالوريا في عام 2002، انتقلت للعيش في العاصمة حيث صعب علي التوفيق بين دراستي الجامعية في الهندسة ودراسة الموسيقى في شرشال. انضممت في سن التاسعة عشر إلى الجوق الجهوي بالعاصمة الذي كان يديره زروق مقداد، ثم الأوركسترا الوطنية التي كانت تحت إشراف رشيد قرباس. بالتأكيد، الهندسة صعبة جدًّا وتتطلب سهر الليالي للمراجعة، لكنها لم تمنعني من ممارسة الموسيقى.

في الأخير، قررت الخروج من عوالم الموسيقى الأندلسية...

كنت أحب هذه العوالم، لكنني أدركت أنني سأعود إلى الأساسيات وأغير الجو عاجلا أم آجلا. أنا فضولية للغاية، ودائمة البحث عن تجارب جديدة أتعلم منها المزيد. لذلك، قررت مغادرة الموسيقى الأندلسية. وعندما أزمعت المشاركة في حصة «ألحان وشباب»، امتعض مني قائد الجوق الذي لم تعجبه فكرة أن أكتشف عوالم أخرى، بينما كان الأمر بالنسبة لي مرحلةً ضرورية وتحديًّا جديدًا. كنت راغبة في الغناء في سجل موسيقي آخر؛ في التحليق خارج السرب والانعتاق من الإطار الكلاسيكي.

أُخترتِ في 2007 للمشاركة في الطبعة الأولى من مسابقة «ألحان وشباب». كيف عِشتِ هذه التجربة؟ هذا التحرر؟

كنت أطمح في الانفتاح على طبوع موسيقية أخرى، سواءً كانت عالميةً أو جزائريةً (الأغنية الشاوية، القبائلية، الضهري أو الصحراوي). كما كنت أرغب في اكتشاف الموسيقى الغربية والشرقية، لا سيما أن أغلب المشاركين كانوا متأثرين للغاية بهذه الأخيرة؛ مما أثار إعجابي. سمحت «ألحان وشباب» بالتقاء فنانين من آفاق ومرجعيات موسيقية وثقافية مختلفة، وخلقت بذلك ثروة فنية لا يستهان بها. كما أتاحت لي شخصيا، وعمري لم يتجاوز العشرين، التحكم في توتري على الخشبة وأمام الكاميرا. باختصار، كانت هذه الحصة الفرصة التي فتحت لي أبواب اللقاء مع الجمهور. بعدها، دخلت في مرحلة بحث فني عن النفس لاكتشاف هويتي وكتابة أغانيّ الخاصة. كنت على نحو ما المهندسة التي تختبر تصميم الموسيقى. فكرت طويلا في محتوى الأغاني التي سأقدمها؛ أحببت الموسيقى الأندلسية وأداء أغان من التراث، لكني كنت أرغب في الإبداع، مما أدخلني في مرحلة وجودية دامت ستة سنوات، كنت أتساءل فيها عن هويتي.

بالموازاة مع ذلك، تعاونت مع فنانين آخرين، واعتليت الخشبة برفقة مجموعات فنية، مثل «نسمة» و«تريانا الجزائر». استمرّ الحال على هذا النحو، إلى أن أيقظت تجربة شخصية مررت بها الحاجة إلى الكتابة والتأليف الموسيقي، فأصدرت حينها أغنيتي الأولى «ما فيكش النية»، عام 2011.

بعد مرور ستة سنوات من التفكير، هل بلغت أهدافك؟ وما هي المواضيع التي كنت راغبة في تناولها في أغانيك؟

كنت، وما زلت، راغبة في تناول مواضيع عدة، رغم الصعوبات التي أواجهها اليوم. استلهمت في ألبومي الأول من حياتي وتجاربي الشخصية، كما عبرت عن آرائي في مسائل الهوية والتاريخ. أذكر منها أغنية «يِلّيس يوراين» («ابنة ڤورايـة»)، التي خاضت في التصالح مع الذات والتاريخ؛ و«ليّام»، التي تحدثت عن الحنين إلى الطفولة؛ و«يكفي» و«نار الكبدة»، اللتين تناولتا صراع الأجيال. كان هذا الألبوم شخصيا للغاية، ولذلك حمل عنوان «آمال زان». أنا أغني لأكشف عن نفسي، دون حسابات أو اهتمام بما يقال عني. فيما يخص التأليف الموسيقي، فقد جاء بطابع حديث يمزج بين البوب والروك، لكن بصبغة جزائرية أصيلة انعكست على الألحان والإيقاعات.

بالرغم من تكويني الأندلسي، إلّا أنني نشأت في محيط عامر بعشاق الموسيقى، مما سمح لي بالانفتاح على عوالم مختلفة. في المنزل، كان والديّ ينصتان كثيرا للمنوعات الفرنسية وفنانين آخرين، كليندا دي سوزا ومايك برانت ومجموعات كول أند ڤانڤ وآبا... كما كنا نتابع البرامج التلفزيونية، على غرار «الهيت-ماشين»، وكنت أستمع لمغنين مثل البويز-باند وماريا كاري... كبرت إذن في محيط متنوع، خاصّة وأن شرشال كانت مدينة منفتحةً على الثقافة المتوسطية. أتذكر أنه خلال زياراتنا لجدتي في ڤورايا، كانت تردد أغنيات أمازيغية من المنطقة، مثل أغنية «رايدان». أصولي متجذرة في داخلي، ولطالما ساعدني ذلك على استيعاب هويتي والانفتاح على العالم وفهمه.

بالفعل، فقد أثبتِ من خلال أغنية «تلاتة»، وهو نص يعود للقرن الثامن عشر، تشبثك بالأصالة والتراث...

لطالما اهتممت بمسائل التراث الموسيقي بصفتي مغنية، وبالموروث المعماري كوني مهندسة؛ وقد جمعت بين الاثنين في أغنية «تلاتة». كنت أرغب في إطلاق حملة بعنوان «تراث في خطر»، فقمت بتصوير الكليب وسط معالم أثرية مهددة بالزوال، كقصر سانتوجان، الذي استفاد من الترميم بعد مرور سنة. كان هدفي التوعية حول الضرورة المستعجلة للحفاظ على هذا التراث المادي الثمين، على غرار بنايات القصبة وبدلة الشانغاي النسائية (كانت هذه الأخيرة مبادرة تقدمية)، وكذلك التراث غير المادي، عبر إعادة غناء هذا النص بلمستي الخاصة.

كثيرا ما تذكرين الهندسة في أجوبتك وتقارنينها بالموسيقى. إلى أي حد تؤثر آمال المهندسة على آمال المغنية؟ وكيف توفقين بين حياتك امرأةً ومهندسةً وفنانةً؟

إن كان هناك تأثير فهو غير مباشر، بل متصل بالإبداع والتأمل؛ حيث غالبا ما أفكر في مشاريعي بعقل هندسي، بما أنها تولد في محيطٍ كل شيء فيه متشابك، وتروق لي فكرة التنسيق بين الأشياء. أما فيما يخص التوفيق بين حياتي امرأةً ومهندسة وفنانةً، فأتوصل إلى ذلك بالفطرة دون بذل جهود كبيرة. اشتغلت لمدة سبعة سنوات مهندسة لكنني اضطررت للتوقف، إذ كان من الصعب العمل في الميدانين معا، لا سيما أنني أيقنت دومًا باستحالة التوقف عن الغناء. في عام 2015، اتخذت قرارًا حاسمًا، وهو ترك الهندسة والتفرغ كليًّا للموسيقى. كانت مجازفة ضرورية لتحقيق ذاتي كفنانة، بالرغم من خطورة الخروج من منطقة الأمان ومحاولة العيش من الفن في الجزائر. لكنني كنت بأمس الحاجة لذلك.

حدثينا عن ألبومك الأخير «جسور»...

هو ألبوم يحاكي الثروة والتنوع الثقافيين في الجزائر والعالم. هو عبارة عن جسور تصل بيننا نحن الجزائريّون وبين باقي العالم. خضت في مواضيع مختلفة كانشغالات الشبيبة الجزائرية، ووضعية النساء، وخطورة التطرف الديني، وأهمية التسامح... رويت فيه تجاربي الخاصة وحكايات أناس آخرين، وكان مناسبة للعمل مع كل الأشخاص الذين التقيت بهم خلال مساري الفني، ومنهم عدة موسيقيين من شتى الجنسيات. أما بالنسبة للنصوص، فقد كتبتها دون حواجز أو رقابة ذاتية. في تلك الفترة، كنت راغبة في الخوض في عدة مواضيع، وصار ذهني شبيهًا بمحطة كهربائية تشابكت فيها أحاسيس متناقضة، كالغضب والحنان، وكان علي خلق الانسجام بينها. لذلك جاء الألبوم في طابع موسيقى الروك. ألّفت «جسور» قبل خمس سنوات من الحراك، وكان بمثابة التنبؤ بهذا الحدث التاريخي، الذي تمنيت اندلاعه في الجزائر.

لقد أدت الأزمة الصحية الفارطة في تعطيل جميع القطاعات ومنها الثقافة. لكننا اليوم، بالرغم من العودة إلى حياة طبيعية، نشهد ندرة كبيرة في الحفلات الموسيقية، واختفاء معظم المهرجانات المخصصة لهذا الفن. ما هي الأسباب برأيك؟

لا نمتلك صناعة موسيقية في الجزائر، ولا فرق انتاج ولا مديرين فنيين ولا هياكل مخصصة لهذا الفن. أظن أن كل هذا ناجمٌ عن إرادة سياسية تقيد الثقافة وتكمم أفواه الفنانين، وطالما لم نتحرر من هذه الأغلال فلن يتغير الوضع. بالرغم من وجود دائرة إنتاجية لبعض الأنواع الموسيقية، كالزنقاوي والراي والراب، إلا أنها غير كافية، ومن الضروري دمقرطة الإنتاج الموسيقي. أما بالنسبة للحفلات الموسيقية، فغيابها يؤثر علينا جميعا؛ لكنني شخصيا لا أرغب في اعتلاء الخشبة دون حرية تعبير.

«أغني لأكشف عن نفسي، دون حسابات أو اهتمام بما يقال عني»

تكافح الفنانات في العالم من أجل المساواة بين النساء والرجال. في الجزائر، هل من السهل أن تفرض امرأة نفسها بوصفها موسيقيةً ومغنيةً في عالم يهيمن عليه الرجال؟

من الصعب أن تفرض نفسك بوصفك فنانًا في الجزائر، وتتضاعف هذه الصعوبة إن كنت امرأة؛ فالغالبية لا تحب رؤية نساء رائدات في مجالهن، خصوصا وأن الساحة الفنية، الجزائرية أو الدولية، لا تزال تحت هيمنة الرجال، وغالبا ما يمتعض هؤلاء (موسيقيون، منتجون...) من أن تسيرهم امرأة. يجب التذكير أنه باستثناء فرق الموسيقى الأندلسية أو الفنانين الشباب الموجودين على مواقع التواصل الاجتماعي، نسبة الموسيقيين الرجال أكبر بكثير من النساء، وهن تواجهن عدة صعوبات لكسب الاحترام في محيط تسيطر عليه الذكورية. وهو ما عشته شخصيا في تعاملي مع الرجال، سواء على الخشبة أو في الكواليس.

بالإضافة إلى نشاطك مغنيةً ناجحةً، تناضلين من أجل حرية التعبير وحقوق الانسان. برأيك، ما هي التغييرات التي يجب فرضها لترقية حقوق النساء؟

من الضروري إعادة الاعتبار للمرأة بوصفها انسانًا وعضوةً فاعلة في المجتمع. يجب الكف عن بعض الخطابات التي تنتقص من قيمتها وترسمها على هيئة كائن ضعيف بحاجة للحماية. الحماية الوحيدة

التي تحتاج إليها هي القانون، القضاء على التمييز الجندري، وإلغاء قانون الأسرة. منذ بداية الأزمة الصحية، تضاعف العنف وجرائم قتل النساء، وقد نكّرنا اغتيال ريمة حرقا بتيزي وزو في أكتوبر/ تشرين الأول الفارط بمقتل شيماء وأخريات كثيرات. الكل مسؤول عن هذه الظاهرة، ومن الضروري اتخاذ إجراءات صارمة للحد منها. يحتوي ألبوم «جسور» على أغنية عنوانها «شكون انتا»، تتناول مسألة النساء ومخاطر التطرف الديني والنظام الأبوي، وتذكّر ببعض الممارسات الدخيلة التي خلفتها الصدمات التي عشناها، كالعشرية السوداء، وببعض التقاليد البالية، التي يجب الاستغناء عنها. هل نرغب في جزائر تقدمية أم في التقهقر؟

كيف ومتى أدركت رغبتك في الدفاع عن حقوق النساء؟ هل كان ذلك نتيجة حدث معين؟

لا، بل جاء الأمر تلقائيا؛ كردة فعل طبيعية وكغريزة بقاء. فهمت مبكرًا التهميش والتمييز الجنسي الممارسين علينا منذ الطفولة، سواءً في الوسط العائلي أو الاجتماعي. يزداد هذا الوعي مع التقدم في السن، ويفرض سؤال نفسه علينا: هل سنستمر في الصمت أم سنكافح لإنهاء الظلم؛ ليس فقط لأجلنا بل لأجل بناتنا والأجيال القادمة؟ كان الخيار طبيعيا بالنسبة لي؛ إذ لا يمكنني السكوت عن الظلم أيًا كان.

برأيك، ما هي المراحل الأساسية التي يجب المرور بها على أرض الواقع لإنهاء الظلم الممارس على النساء؟

الاستمرار في النضال من أجل تغييرٍ سياسيٍّ ملموسٍ، وإعادة الاعتبار للمرأة بوصفها مواطنةً كاملة الحقوق. وفيما يخصني، الغناء والتعبير عن هذه الانشغالات بكل حرية. يجب علينا جميعًا أن نساهم، كلٌّ في مجاله، في إيقاظ الضمائر، لأنّ الصمت فتاكٌ. ينتقد الكثيرون الحركة النسوية ويعتبرونها ملوّثة لصورة النساء الجزائريات وسلوكياتهن، بيد أنّ مسألة حقوق المرأة هي مسألة حقوق الإنسان، لا أكثر ولا أقل. هدفنا هو العيش في مجتمعٍ مزدهرٍ ومتكافئ، ولا يزال النضال طويلا .

تصوير: ليديا سعيدي

نتي قدامي

تاريخ النضال

وأنا موراك*

* تحوير عنوان أغنية للشيخة ريميتي «نتا قدامي وأنا موراك» – «تسير أمامي وأنا أتبعك»

8 مارس 1965 مسيرة في تاريخ الجزائريات

ناتاليا بن خالد-فينس

في بداية الثمانينيّات، أدلت النائبة باية حسين بكلمة في المجلس الشعبي الوطني، لتعبر عن رفضها للنص الذي كان سيصير في عام 1984 قانون الأسرة. بعد مرور عشرين سنة، عثرنا على شهادة تصف ردود الفعل التي لاقت خطابها، حيث «انهال يومها على باية حسين، المجاهدة التي حُكم عليها بالإعدام أثناء الثورة التحريرية وعمرها لم يتجاوز السابعة عشرة(...)، وابل من التصفير والسخرية والشتم من رجال لم يشارك أحدهم في الثورة».

في الجزائر، لا نتذكر المجاهدات إلا بصفتهن بطلات للكفاح الوطني، حتى وإن شاركن في نضالات أخرى بعد الاستقلال؛ فنادرًا ما نجد آثار تاريخهن بعد 1962، وكثيرا ما يقال لنا باختصار أنهن «عدن إلى المطبخ» غداة الحرب. والسبب أنه غالبا ما يحدث خلط بين عدم انضمامهن للاتحاد الوطني للنساء الجزائريات (UNFA)، وهو تنظيم جماهيري ما لبث أن اتسم بصبغةٍ رسمية، واهتمامهن بقضايا النساء. لا نسائل بما فيه الكفاية عودة العديد منهنّ إلى «المطبخ» في ظل الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن حرب دامت ثماني سنوات: أي استراتيجيات اتخذن في كنف عائلاتهن؟ وفيما يخصّ اللواتي كن يعملن، كيف فرضن أنفسهن في فضاءات غالبًا ما يهيمن عليها الرجال؟ نادرًا ما ننظر إلى هذه السرديات بوصفها جزءًا من تاريخ الجزائر ومن تاريخ الحركة النسوية. وهي مسألة لا تخص الجزائر فحسب، كما كتبت المؤرخة والمناضلة النسوية جيردا لورنر (Gerda Lerner): «لقد ساهم جهل النساء بتاريخ نضالهن وانتصاراتهن في إبقائهن تحت الوصاية (...) لقد قيل للنساء أن لا تاريخ لهن، وصدقن ذلك».

ولأن نصف الإنسانية قد حرِمَ من ذاكرته، تتخذ الأجيال الجديدة للحركة النسوية موقفًا مناهضًا لجيل النسويّات السابق لهنّ، أو تجهلن وجوده. ولتفادي هذا الركود في «سنة صفر» لا نهاية لها، يلزم للنساء اكتشاف تاريخ للحركة النسوية يأخذ بعين الاعتبار مختلف التجارب النسائية، حسب هويتها الجغرافية والزمنية، مع الاحتفاظ بالروابط التي تجمعها بالتجربة الإنسانية المشتركة بين جميع النساء.

وفيما يلي بعض العناصر لتاريخ يعود إلى عام 1965، بمناسبة اليوم العالمي لحقوق النساء، بضعة أشهر قبل الانقلاب على أحمد بن بلة، أول رئيس للجزائر المستقلة.

أُخِذَ المقال التالي من نص طويل نُشر في مدونة Texture du temps («نسيج الزمن») للمؤرخة مليكة رحال بتاريخ 7 مارس/آذار 2019 تحت عنوان «النساء في الشارع، مكانة 8 مارس في تاريخ الجزائر المستقلة المديد».

لطالما احتفلت الدولة الجزائرية بيوم 8 مارس/آذار، مما يدل على احتفاء شرعي بكل النساء اللواتي شاركن في الكفاح وتظاهرن وأيدن بشتى الوسائل الحرب التحريرية. كما رغب المتحكمون في زمام السلطة الظهور بمظهر المدافعين الأمثل عن حقوق النساء. ذلك أنّ المرأة الجزائرية كانت محل صراع بين جبهة التحرير الوطني من جهة، والدولة والجيش الفرنسيين من جهة أخرى، وكان كل منهما يزايد في الخطابات الموجهة للمجتمع الدولي وللنساء الجزائريات حول التزامه بالدفاع عن حقوقهن. فكان من الطبيعي أن تحتفل الدولة الجزائرية المستقلة بيوم الثامن مارس وتسلط الضوء على المجاهدات، بالرغم من أن معظمهن لم يلبثن أن رفضن إضفاء هذه الشرعية التقدمية على نظام الحكم.

لا نعرف إلى اليوم إن وُجد حقا لدى السلطة وباقي المجتمع اهتمام فعليّ باليوم العالمي لحقوق النساء. روت لي زهور زراري، وهي أولى صحفيات الجزائر المستقلة، أنها أرادت في عام 1963 كتابة مقال حول كيفية الاحتفال بالثامن من مارس/آذار في دول الاتحاد السوفياتي، لكن رئيس تحرير الجريدة الكبرى التي كانت تعمل بها لم يُبد أي اهتمام بالموضوع. وتروي زراري أنه من شدة غضبها، مزقت المقال وصفعت رئيس التحرير وغادرت الجريدة نهائيا. بعد مرور سنتين، طلبت جبهة التحرير الوطني من زهور زراري المشاركة في تنظيم مسيرة 8 مارس 1965 بالجزائر العاصمة. وقد دخلت هذه المظاهرة حيز الأسطورة بالنسبة للعديد من النساء (في 1997، كتبت كاثرين ليفي، التي شاركت في المظاهرة، واحدًا من المقالات النوادر حول هذا الحدث)، إلّا أنّ أغلب النساء لسْن على دراية بهذه المسيرة، ولذلك وجبت العودة إليها.

في مارس/آذار 1965، لم تمر بعد ثلاث سنوات على استقلال الجزائر، ولربما لأن البلاد تنطلق من نقطة الصفر ولأنها في مرحلة تشييد، كانت بحاجة لرؤية صارمة. تقول كاثرين ليفي أن نساء الجزائر العاصمة قد طفح بهن الكيل، حيال العمل بأجر زهيد والبطالة وقلة التكوين والرقابة الاجتماعية التي يمارسها الإخوة والأزواج.

كانت نقطة انطلاق المظاهرة ساحة أول ماي لتعبر شارع زيغود يوسف وتنتهي في حي باب الواد، وهو مسار يمر على جزء كبير من المدينة. شاركت الآلاف من النساء في المسيرة، بعضهن خرج «بهيئة أوروبية» (كما كان يقال آنذاك)، وبعضهن اكتسين الحايك. شهدت المظاهرة مشاركة عضوات من الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات وطالبات وعاملات تنظيف، وكانت الشعارات تعبر عن تضامن النساء الجزائريات مع أخواتهن في الكفاح بأنغولا وإيريتريا، وفي أماكن أخرى من العالم. ثم فجأة، سُمعت «شعارات تلقائية، كانت في البداية مغمورة بمكبرات الصوت على رأس المسيرة إلى أن رددتها جل النساء الحاضرات، فغطت بدورها على الشعارات الرسمية. وطالبت هذه الشعارات بالمساواة والعمل وحقوق النساء، باللغة الدارجة أو الفرنسية، ومن بينها عبارات موجهة إلى الرجال: "ادخلوا إلى المطبخ واتركوا لنا السياسة"، "ابقوا في المنزل واعتنوا بالأطفال، أما نحن فسنعتني بأنفسنا". انهال وابل من الألقاب والزغاريد على المارين أمام وزارتي الفلاحة والصحة، وقامت مجموعة من النساء بقطع الطريق أمام الحافلات والسيارات، مما سبب هلعًا لدى بعض الراكبين الرجال الذين لاذوا بالفرار».

رفضت النساء الاكتفاء بالشعارات الرسمية، وقررن استرجاع الشارع وتاريخ الثامن مارس. انتهت المسيرة في قاعة سينما «ماجستيك» بباب الواد، وهو فضاء شهد أحداثًا سياسيةً حاسمةً في تاريخ الجزائر المستقلة. تروي زهور زراري أنها دعت الرئيس بن بلة للقدوم لمحاورة النساء، وكان جوابه في البدء «هل هناك جمهور غفير؟» (مما يتطابق وشخصية بن بلة الشعبوية). نعم كان هناك جمهور غفير، ولم يقتصر قدوم الرئيس على ربع ساعة من الحفاوة الشعبية كما كان مسطرًا. وقد نقلت صحيفة Alger le soir («مساء الجزائر») أنه صرح يومها: «عليكن اتخاذ مسؤولياتكن حيال الوطن. أود أن يكون يومكن هذا يوم حشد لتقوية الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات ليرقي إلى مستوى حزبنا الطلائعي الذي يبقى مفتوحا أمامكن ومستعدًا لدعمكن». كان نص الخطاب قد وُزّعَ على الصحفيين، لكن بن بلة ما لبث وأن خرج عن النص وذهب به الحماس للهتاف: «انتزعن حقوقكن!»، كما تروي لنا زهور زراري التي استدعاها الرئيس في اليوم التالي للتأكيد على رغبته في مساندة النساء لتحسين وضعيتهن. في الوقت نفسه، تروي كاثرين ليفي أن عددًا من النساء اللواتي طلقهن أو ضربهن أزواجهن بسبب مشاركتهن في المسيرة، بدأن في التوافد على مركز الاتحاد الوطني للعمال الجزائريين بباب الواد. لن نعرف أبدًا ما الذي عزم (أم لا) بن بلة القيام به من أجل النساء، بما أنه أُزيح من الحكم بعد ثلاثة أشهر فقط.

في 22 أوت/آب 1965، صرح الرئيس الجديد هواري بومدين بمناسبة تدشين المتحف الوطني للثورة، أنه يرى المرأة الجزائرية كتلك الأخت المحاربة في الجبال بجانب إخوتها، وليست تلك المرأة «التي تراود الماجستيك وساحة الشهداء لإطلاق الزغاريد».

1. من مقال حسن زروقي في جريدة «لومانيتي»، 18 جوان/حزيران 2004.

2. Gerda Lerner, *The Creation of Patriarchy*, 1986

3. خلال السنوات الأخيرة، صارت هذه «المعركة لكسب العقول والقلوب» محل دراسات عديدة:

Neil Macmaster (2009) *Burning the Veil: The Algerian war and the 'emanicipation' of Muslim women*, 1954-62. Manchester: Manchester University Press ; Ryme Seferdjeli (2005) *The French Army and Muslim Women during the* Algerian *War*. *Hawwa* 3(1), 40-79 ; Diane Sambron (2007) *Femmes musulmanes, guerre d'Algérie 1954-1962*. Paris: Autrement ; Elizabeth Perego (2015) *The veil or a brother's life: French manipulations of Muslim women's images during the Algerian War, 1954-62. Journal of North African Studies, .20(3), 349-373*

4. حوار مع الكاتبة، 21 ديسمبر/كانون الأول 2005. الاطلاع كذلك على:

Djamila Amrane (1991) *Les Femmes algériennes dans la guerre*. Paris Plon ; Malika El Korso (1996) *Une double réalité pour un même vécu*. Confluences Méditerranée (17), 99-108 ; Natalya Vince, *Our Fighting Sisters: Nation, Memory and Gender in Algeria, 1954-2012*. Manchester: Manchester .University Press

5. Catherine Levy (1997). *La journée du 8 mars 1965 à Alger*. Clio. Histoire, femmes et société.

6. ليفي، المرجع السابق.

7. جريدة Alger ce soir («مساء الجزائر»)، 10 مارس/آذار 1965.

8. خطاب 20 أوت/آب 1965، «خطابات الرئيس، 19 جوان 1965-19 جوان 1970»، قسنطينة، وزارة الإعلام والثقافة، 1970، ص47-48.

أرشيف

الصفحة الأولى من أسبوعية «الشباب»، العدد 19، 14 مارس/آذار 1965. مكتبة فرانز فانون، الجزائر العاصمة.

٨ مارس

احتفلت المرأة فى جميع أنحاء العالم بيوم الثامن من مارس الذى يعتبر الشرارة الأولى التى انطلقت لتعلن عن بدء كفاح طويل لايزال مستمرا حتى يومنا هذا ، وقد احتفلت المرأة الجزائرية كبقية نساء العالم بهذا اليوم لتعبر عن تضامنها مع نساء العالم، وقد نظمت مهرجانات فى جميع أنحاء البلاد احتفاءا بهذا اليوم ، تشارك فيها آلاف من النساء الجزائريات وتشاهدت شوارع العاصمة جموع النساء اللائى كن يحملن لافتات تعبر عن ارادتهن فى السير جنبا الى جنب مع الرجل لبناء مجتمعنا الاشتراكى التقدمى ، والقضاء على الرواسب الاجتماعية التى لاتزال تحد من نشاط المرأة فى جميع الميادين .

وقد تشارك فى هذه المهرجانات والمظاهرات مناضلات بهدف نساء فلسطين والكونغو والبرتغال واسبانيا الخ ...

وألقى الاخ أحمد بن بلة كلمة حيا فيها المرأة الجزائرية وأكد من جديد تضامن الجزائر مع الشعوب التى لاتزال تكافح فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وقد قال بالخصوص موجها كلامه للمرأة الجزائرية « وانى لأجد سعيد بمساهدة اللافتات التى تطالب بمساهمة المرأة فى الحزب . وانا أعلن على يقين أن الرجال لن يمنحكن أبدا الحقوق طواعية واختيارا ولن تتوصلن للحصول عليها الا بكفاحكن وحده وأؤكد انه لن تكون ابدا اشتراكية بدون مساهمة المرأة »

لمحة تاريخية عن كفاح المرأة :

فى يوم ٨ مارس من سنة ١٨٥٧ وفى مدينة نيويورك بالولايات المتحدة خرجت مظاهرة نسائية لاول مرة فى التاريخ تطالب بحقوق المرأة ، ومساواتها بالرجل ، وتخفيض ساعات العمل وقد كانت هذه المظاهرة ، التى قامت بها عاملات مصانع النسيج فى نيويورك هى الشرارة الاولى فى تاريخ كفاح المرأة من أجل المساواة والعدالة الاجتماعية وقد قوبلت هذه المظاهرة من طرف السلطات بوسائل العنف التى أدت الى سقوط أولى ضحايا المرأة فى كفاحها من أجل الحصول على حقوقها ومساواتها بالرجل فى جميع الميادين . ولكن العنف الذى قوبلت به أولى مظاهرات المرأة لم يستطع أن يوقف الحركة النسائية سواء فى الولايات المتحدة أو فى غيرها من بلدان العالم .

ففى سنة ١٩١٠ بعد مضى ثلاثة وخمسين عاما على مظاهرة نيويورك كان ظهور المرأة على المسرح السياسى بعقد مؤتمر فى مدينة كوبنهاغ للحركة النسائية الاشتراكية ، وقد كان هذا المؤتمر ذكرى لضحايا المظاهرة الاولى ، وفى هذا المؤتمر وقع الاختيار على يوم ٨ مارس ليكون يوم المرأة فى جميع انحاء العالم .

وابتداءا من سنة ١٩١١ بدأت حركة التضامن بين نساء العالم تتسع حتى شملت الكثير من بلدان العالم ، فكانت عدة مظاهرات فى برلين والولايات المتحدة .

المرأة الجزائرية تتبوأ

وما أن طلعت سنة ١٩١٢ حتى تساهد العالم المرأة فى روسيا القيصرية تقوم بمظاهرات سلمية ضد الحرب التى كانت على الابواب ، ثم تلى ذلك مظاهرات اخرى فى باريس تطالب باطلاق سراح روزا لكسمبورغ المعتقلة فى المانيا .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى تبلورت قضية المرأة بشكل أكثر جعلت الرجل يقر شيئا فشيئا نظرته السابقة الى المرأة وقد حصل هذا الاقر لعدة أسباب منها أن المرأة أظهرت أنها قادرة على تأدية مختلف الاعمال التى كان تقوم بها الرجل فى مختلف القطاعات ، سواء فى الميدان الصناعى ، او الزراعى ، فقد استخدمت المرأة فى المصانع الحربية ، وغير الحربية ، كما انها قامت بجميع الاعمال فى المزارع التى تركها الرجال عندما ذهبوا الى ميدان القتال ، وعندما رجع الرجل من الحرب وجد المزرعة التى تركها لازالت تنتج وان المرأة قامت بجميع الاعمال الشاقة التى كان يقوم بها .

ولم تتوقف الحركة النسائية بعد انتهاء الحرب بل على العكس اصبحت المطالب التى تنادى بها ضرورة ملحة يجب ان تتحقق حتى يمكن ان تشارك المرأة مشاركة فعالة فى بناء المجتمع الانسانى .

فى ٨ مارس ١٩٢٣ و ٨ مارس ١٩٢٦ حصلت مظاهرات نسائية اخرى فى مدريد ضد الحرب والفاشية ثم كان اجتماع الفيدرالية العالمية للمرأة سنة ١٩٤٥ التى جعلت يوم ٨ مارس يوما رسميا تحتفل به المرأة فى جميع انحاء العالم .

كفاح المرأة الجزائرية :

ان احتفال المرأة الجزائرية باليوم العالمى للمرأة ، قد كان عبارة عن مظاهرة رائعة عبرت فيها المرأة عندنا عن تضامنها مع نساء العالم ، وخاصة مع المرأة التى لاتزال تكافح ضمن الكفاح البطولى التى تخوضه الشعوب فى افريقيا واسيا وأمريكا اللاتينية ضد الامبريالية والاستعمار ومن أجل الحرية والاستقلال الوطنى .

وتاريخ المرأة الجزائرية لايقل بطولة وشجاعة عن تاريخ الرجل لقد شاركت المرأة عندنا فى الكفاح البطولى الذى خاضه شعبنا طوال ١٣٠ سنة ، ولم تتأخر عن تقديم التضحيات التى فرضتها ظروف الكفاح ، سواء فى الماضى أو فى الحاضر ، وأظهرت للعالم اجمع أنها امرأة عظيمة بكل ما فى الكلمة من معنى ، ولهذا لايمكن أن نعتبر يوم ٨ مارس هو مظاهرة للمطالبة بحقوق المرأة وذلك لان المرأة الجزائرية قد أخذت حريتها بنفسها ، وانها فرضت نفسها رغم الظروف الاجتماعية ، والتقاليد التى كانت تكبلها ، أى انها حصلت على حريتها أثناء الفترات العصيبة من تاريخها الحديث .

وقضية حرية المرأة عندنا لا يمكن أن نطرح بالشكل الذى طرحت به ، وان هذا الشكل قد تجاوزته الظروف والاحداث وانها يجب أن نطرح بشكل آخر وهو كيفية مشاركتها فى البناء الاشتراكى ، والميادين التى يمكن أن تنتج فيها احسن من غيرها .

ان التضحيات التى قدمتها المرأة الجزائرية لا تعد ولا تحصى منذ الاحتلال الى الآن ، واذا اردنا أن نقيم التضحيات والشجاعة القادرة التى اظهرتها فاننا سوف نجد آلاف الامثلة .

ويكفى أن أذكر أنه بلغت بها التضحية والشعور بالواجب الوطنى الى حدالانتقام والاقتصاص من أقرب الناس اليها . ففى أثناء الثورة التى استمرت أكثر من عشرين عاما . فى الجنوب الجزائرى ، والتى كانت تقوم بها قبائل أولاد سيدى الشيخ ، كان عميل من عملاء الاستعمار فى ذلك الوقت ، يدعى حمزة بوبكر يساعد جيش الاحتلال على قهر الثورة والقضاء عليها ، ولم يستطع احد أن يتوصل اليه لانه كان يتمتع بحماية الجيش الاستعمارى فما كان من زوجته الا ان نفذت فيه حكم الاعدام وقتلته انتقاما للشعب المكافح الذى لم يرض بالاجنبى .

اما تاريخ السبع سنوات من الحرب والتضحيات العظيمة التى قدمتها فلها لا نقل على التضحيات التى قدمها الرجل من ناحيته .

ان بطولة وشجاعة المرأة فى الحرب التحريرية بلغت فى بعض الاحيان حد الاسطورة .

ويوم ٨ مارس الذى خرجت فيه المرأة الجزائرية لتعبر عن تضامنها مع نساء العالم . مع المرة الفلسطينية التى شردها الاستعمار والصهيونية من بلدها وبيتها ، والتى تكافح اليوم من أجل استرداد بيتها ووطنها السليب .

وهو تضامن ايضا مع المرأة الافريقية فى الكونغو وجنوب افريقيا وانغولا، ومع نساء أمريكا اللاتينية وتضامن المرأة الجزائرية مع نساء العالم الثالث هو عبارة عن تضامن كل الشعب الجزائرى مع الشعوب التى لاتزال تكافح ضد الاستعمار والصهيونية ، والتمييز العنصرى ، والحكم الفاشى .

الاتحاد الوطنى للنساء والمرحلة الجديدة :

ان الاتحاد الوطنى للنساء الذى ولد كبقية المنظمات الاخرى ، مثل اتحاد العمال ، اثناء حرب التحرير يتحمل اليوم مسؤولية كبرى فى النهوض بالمرأة الجزائرية، فاذا كانت ولادته بالامس ضرورة من الضرورات التى فرضتها المعركة فانه اليوم اداة من أدوات البناء والتشييد لقد قام الاتحاد النسائى فى الماضى بقسطه الوافر من تجمل أعباء الكفاح ، والتعريف بالمرأة الجزائرية من خلال المؤتمرات العالمية ، وبالقضية العادلة التى كان يكافح من أجلها شعبنا ، ومع المرحلة الجديدة لثورتنا الاشتراكية بعد الاستقلال والتحول الاجتماعى الجديد الذى تعيشه بلادنا اليوم ، والذى يتطلب ، من جميع قطاعات المجتمع أن تشارك فى انجازه ، والقضاء على الصعوبات التى يمكن أن تعترض هذا التحول .

والمرأة عندنا هى احدى القطاعات الهامة التى يتكون منها المجتمع والتى لا يمكن أن يتحقق أى شىء بدون مشاركتها ، نقول فى هذه المرحلة الجديدة ، يجب أن يتكيف مع الظروف الجديدة ، وأن يكون منظمة تعبر حقيقة عن آمالى وآمال المرأة الجزائرية . يجب عليه الآن وهو يخطو خطوته الاولى نحو المستقبل أن ينظر الى الوراء وان يدرس الخطوات التى قطعها ، وان يحاول أن يصحح الاخطاء التى قد تكون حصلت خلال تاريخه القصير نتيجة لظروف قد تكون خارجة عن طاقته ، والاخطاء يمكن ن تتحول الى تجارب يستفيد منها ، فالتجربة والخطأ من صميم أى عمل .

والاتحاد الوطنى للنساء يتمتع اليوم بامكانيات لم تكن موجودة فى الماضى ، وكل الابواب فتحت امامه ليقوم بواجبه فى المهمة الصعبة التى يقوم بها الحزب ، يجب أن يرتفع الى مستوى التضحيات العظيمة التى قدمتها المرأة الجزائرية بالامس فى ميدان الكفاح .

وهناك مجالات واسعة للنشاط يستطيع من خلالها ان يشارك فى البناء ، وخاصة فى الميدان الاجتماعى والثقافى ، فمن خلالها يستطيع أن يساعد المرأة الجزائرية التى حرمت من الثقافة والمعرفة مدة طويلة من الزمن ، على الاخذ باسباب الثقافة والحضارة حتى تستطيع هذه المرأة أن تتخلص نهائيا من الرواسب الاجتماعية التى تكبلها ، ولكى تكون عضوا عاملا منتجا فى الهيكل الاجتماعى ، وحتى تستطيع ان تنفتح على العالم الخارجى وان تشارك فى التقدم الحضارى والانسانى فى العالم .

الاحد ١٤ مارس ١٩٦٥

مقال في جريدة «الشعب»، العدد 19، 14 مارس/آذار 1965. مكتبة فرانز فانون، الجزائر العاصمة.

اليوم العالمى للمرأة

ابن ضالها دتضحياتها

الحاضر ، وأظهرت للعالم اجمع أنها امرأة عظيمة بكل ما فى الكلمة من معنى ، ولهذا لايمكن أن نعتبر يوم ٨ مارس هو مظاهرة للمطالبة بحقوق المرأة وذلك لان المرأة الجزائرية قد أخذت حريتها بنفسها ، وانها فرضت نفسها رغم الظروف الاجتماعية ، والتقاليد التى كانت تكبلها ، أى انها حصلت على حريتها أثناء الفترات العصيبة من تاريخها الحديث .

وقضية حرية المرأة عندنا لا يمكن أن نطرح بالشكل الذى طرحت به ، وان هذا الشكل قد تجاوزته الظروف والاحداث وانها يجب أن نطرح بشكل آخر وهو كيفية مشاركتها فى البناء الاشتراكى ، والميادين التى يمكن أن تنتج فيها احسن من غيرها .

ان التضحيات التى قدمتها المرأة الجزائرية لا تعد ولا تحصى منذ الاحتلال الى الآن ، واذا اردنا

دور المرأة فى المجتمع

ان نقيم التضحيات والشجاعة القادرة التى اظهرتها فاننا سوف نجد آلاف الامثلة .

ويكفى أن أذكر أنه بلغت بها التضحية والشعور بالواجب الوطنى الى حدالانتقام والاقتصاص من أقرب الناس اليها . ففى أثناء الثورة التى استمرت أكثر من عشرين عاما . فى الجنوب الجزائرى ، والتى كانت تقوم بها قبائل أولاد سيدى الشيخ ، كان عميل من عملاء الاستعمار فى ذلك الوقت ، يدعى حمزة بوبكر يساعد جيش الاحتلال على قهر الثورة والقضاء عليها ، ولم يستطع احد أن يتوصل اليه لانه كان يتمتع بحماية الجيش الاستعمارى فما كان من زوجته الا ان نفذت فيه حكم الاعدام وقتلته انتقاما للشعب المكافح الذى لم يرض بالاجنبى .

اما تاريخ السبع سنوات من الحرب والتضحيات العظيمة التى قدمتها فلها لا نقل على التضحيات التى قدمها الرجل من ناحيته .

ان بطولة وشجاعة المرأة فى الحرب التحريرية بلغت فى بعض الاحيان حد الاسطورة .

ويوم ٨ مارس الذى خرجت فيه المرأة الجزائرية لتعبر عن تضامنها مع نساء العالم . مع المرة الفلسطينية التى شردها الاستعمار والصهيونية من بلدها وبيتها ، والتى تكافح اليوم من أجل استرداد بيتها ووطنها السليب .

مهرجانات نسائية ضخمة في جميع أنحاء البلاد احتفاء بيوم المرأة العالمي

الشعب
يومية وطنية اجتماعية
الثلاثاء
7 ذو القعدة 1384 هـ
الموافق 9 مارس 1965 م
السنة الثالثة ـ العدد 690
Mardi 9 Mars 1965
3e ANNEE N° 690
حكومتنا تدرس الوضع الناتج عن قرار بون الخاص بالاعتراف باسرائيل

عشر قرارات يتخذها مجلس منظمة الوحدة

الآخ احمد بن بلة يقول في المهرجان الكبير الذي اقيم بسينما الماجيستيك بالعاصمة

المرأة الجزائرية أخذت مسؤولياتها ابان معركة التحرير ويجب أن تأخذ مسؤوليتها في معركة البناء

لا يمكن بناء الاشتراكية بدون المشاركة الايجابية للمرأة

موجة غضب عربية شاملة ضد قرار بون العدائي

الدول العربية ترد اليوم على تحديات حكام بون

جبهة تحرير الصفنام ترفض التفاوض قبل انسحاب القوات الامريكية

الجزائر تقف الى جانب الشعب الفيتنامي ضد الاعتداءات البرتغالية الغادرة

الاخ احمد بن بلة يهنئ الفريق امين الحافظ

الصفحة الأولى من جريدة «الشعب»، العدد 690، 9 مارس/آذار 1965. مكتبة فرانز فانون، الجزائر العاصمة.

مهرجانات نسائية ضخمة في جميع أنحاء البلاد احتفاء بيوم المرأة العالمي

موجة غضب عربية شاملة ضد قرار بون العدائي

الدول العربية ترد اليوم على تحديات حكام بون

الجزائر تقف الى جانب الشعب الفيني

ضد الاعتداءات البرتغالية الغادرة

جبهة تحرير الصفنام ترفض التفاوض قبل انسحاب القوات الامريكية

نص خطاب الرئيس

مقال في جريدة «الشعب»، العدد 690، 9 مارس/آذار 1965. مكتبة فرانز فانون، الجزائر العاصمة.

واسع هو السجن*

ملفات قضائية

* رواية لآسيا جبار، وهي الجزء الثالث من «رباعية الجزائر»، صدرت عام 1995

الضرب والجرح العمدي

سعدية قاسم

السيدة س.، التي سردت قصة طلاقها التعسفي في العدد السابق من المجلة[1]، قدّمت شكوى، في شهر سبتمبر/أيلول 2020، ضد زوجها (حاليًا زوجها السابق) بتهمة العنف الأسري. وبعد تقديم هذه الشكوى تقدم زوجها بطلب الطلاق.

سأعرض في هذا الملف القضائي قضيتين عن العنف الأسري، تعرضت فيهما السيدة س. إلى العنف على مرحلتين، حدثت المرحلة الأولى قبل الطلاق في جويلية/تمّوز 2020، والمرحلة الثانية بعده في جوان/حزيران 2021.

القضية الأولى: انتصار غير متوقع

التقيت السيدة س. في جمعية «شبكة وسيلة»[2]، حيث تقدّمت إلى الجمعية في سبتمبر/أيلول 2020 لطلب المساعدة القانونية في قضية طلاقها والشكوى التي كانت قدّمتها بشأن العنف الأسري، لكن لم تردها أيّ مستجدات بشأنها. ردّدت مرارًا: «يريدون دفن ملفي، لكنني لن أستسلم».

في ملف المحكمة الخاص بها، شهادة الطب الشرعي توثق عجزًا كليًّا عن العمل[3] لمدة ثمانية أيام، مرفقة بصور لكدمات على الوجه والساقين، ومحضر لأقوالها مدوّن فيه ما جاء على لسان زوجها السابق من إهانات، مثل «كلبة، فايحة، مهبولة»، وتهديدات من قبيل: «اليوم نذبحك».

1. سعدية قاسم، «ملفات قضائية. طلاق السيدة س. التعسفي»، مجلة «لبلاصة»، العدد 0، مارس/آذار 2022، الصفحات 85-88.

2. شبكة وسيلة، جمعية محلية مقرها الجزائر العاصمة، تأسست عام 2000، وهي تدافع عن النساء والأطفال ضحايا العنف وتقدم الدعم لهم. توفّر الجمعية خطًا ساخنًا للاتصال بطبيب نفساني ومحامي، من الأحد إلى الخميس من الساعة التاسعة صباحًا إلى الساعة الخامسة مساءً، على الرقم: 0560 10 01 05.

3. هو تقييم للعجز الناجم عن الاعتداء. هذه الشهادة ضرورية لجميع الإجراءات القانونية، سواءً كانت فوريةً أم لا. واعتمادًا على عدد أيام العجز الكلي عن العمل (ITT)، يُصنّف الاعتداء جنحة (إذا كانت مدة العجز تزيد عن 15 يومًا)، أو مخالفة (إذا كانت مدة العجز أقل من 15 يومًا). وطبقا لذلك، تختلف العقوبة المنصوص عليها في القانون. حيث يُعاقب الجاني بالسجن لمدة تتراوح بين سنة وخمس سنوات إذا نشأ عن الاعتداء عجز كلي عن العمل لمدة تزيد عن خمسة عشر (15) يومًا؛ أمّا إذا نشأ عن الجرح أو الضرب «فقد أو بتر أحد الأعضاء أو الحرمان من استعماله أو فقد البصر أو فقد بصر إحدى العينين أو أية عاهة مستديمة أخرى فيعاقب الجاني بالسجن المؤقت من خمس إلى عشر سنوات» (المادة 266 مكرر من قانون العقوبات).

دأبت السيدة س. على الذهاب إلى المحكمة كل أسبوع للاستعلام عن قضيتها لأكثر من سنة، من شهر جويلية/تمّوز 2020 إلى شهر أكتوبر/تشرين الأول 2021. إذ إنّها لم تتمكن من استلام استدعاء المحكمة لأن شكواها كانت مسجلة بعنوان بيت الزوجية، ولم ترد تعديله في خضمّ الإجراءات مخافة إيقاف سيرورتها. فواقع الأمر أنّ زوجها السابق كان قد استغلّ غيابها عن البيت، وغيّر الأقفال وطردها موجهًا لها ضربة على الرأس باستخدام مطرقة (قضية العنف الثانية)؛ وهي تقيم منذ نهاية شهر جوان/حزيران 2021 عند زوج من الأصدقاء.

في صبيحة أحد أيام الثلاثاء، بينما كانت السيدة س. متوجهة إلى شبّاك المحكمة كالمعتاد، تفاجأت أن موعد الجلسة الخاصة بها كان قد حُدّد الصبيحة نفسها، بتاريخ 19 أكتوبر/تشرين الأول 2021، وقد أشار عليها الموظف بالركض إلى قاعة المحكمة قائلا:

– ربما لم يمرّ ملفك بعد. بما أنّها قضيّة جديدة، سيُنظر فيها مع نهاية الجلسة.

وصلت السيّدة س. في الوقت المحدد، وقدّمت نفسها للقاضي، في حضور زوجها السابق أيضا، وطلبت تأجيل الجلسة إلى غاية إعلام محاميتها.

أُجّلت الجلسة إلى تاريخ 2 نوفمبر/تشرين الثاني.

في يوم الجلسة، كانت القاعة الكبيرة ممتلئة عن آخرها. كانت السيدة س. متوترة لكنها واثقة، ومحاميتها التابعة لشبكة وسيلة تقف إلى جانبها. جاء المتهم السيد ب. وحده دون محامٍ، وتقدم بخطوات واثقة ويداه خلف ظهره.

تقدّم رجل شرطة ليقف بين الضّحية والمتّهم.

يسأل القاضي:

هل ضربت هذه السيّدة؟

– لا، مجرد صفعة.

– صفعة بسيطة لا تفعل ما نراه في الصور. هل أهنتها؟

– لا، فقط قلت لها بأنها مجنونة.

ثم سأل القاضي السيدة س. التي قدّمت روايتها:

– لقد لكمني على وجهي فسقطت على الأرض مغمى عليّ، وعندما استعدت وعيي ركلني على ساقي. لقد كان يضربني منذ بداية زواجنا، ولكن هذه هي المرة الأولى التي أقدّم فيها شكوى ضدّه لأنني تعبت. خمسة وعشرون عاما من الزواج...

يوقفها القاضي عن الكلام، ليس لديه الوقت لسماع المزيد. يلتفت إلى المتهم:

– إذًا، ماذا تقول؟

لا يقول أي شيء.

محامية السيدة س. ترافع.

يلتمس المدعي العام الحكم بالحبس لمدة عام وغرامة مالية قدرها 50.000 دينار.

تُعطى الكلمة الأخيرة للمتهم:

– أطلب العفو من المحكمة.

يُحدّد تاريخ النطق بالحكم في 24 نوفمبر/تشرين الثاني 2021.

لم تتجاوز مدة الجلسة عشر دقائق. نغادر المحكمة أنا والمحامية والسيدة س.، وشعور بالارتياح والرضى يرافقنا، خاصة مع تأكيدات المحامية وقولها بكل ثقة: «سيُدان».

لم أتمكن حضور جلسة النطق بالحكم. تتصل بي السيّدة س. وصوتها مفعم بالفرح، كنتُ أتخيّل ابتسامتها العريضة وعينيها اللامعتين:

– حُكم عليه بالسجن ستة أشهر مع وقف التنفيذ!

تضحك.

– لو رأيتِ وجهه! وكأنه ليس هو نفس الشخص الذي حضر جلسة الاستماع.

تضحك مرة أخرى.

– أنا سعيدة!

كانت هذه المرة الأولى التي أشهد فيها إصدار إدانة بالعنف المنزلي منذ أن بدأتُ مرافقة النساء إلى المحكمة، منذ سنتين إلى غاية اليوم. لقد كان انتصارًا غير متوقعًا. هذا لا يعني عدم وجود إدانات في المحاكم، لكن هذه الحالة نادرة جدًا في «شبكة وسيلة». ويعود هذا إلى أسباب متعدّدة مرتبطة من جهة بذوي هؤلاء النساء، الذين غالبًا ما يتدخّلون لإقناعهن بالعدول عن فكرة تقديم الشكوى، خاصة إذا كان لديهن أطفال، مردّدين عبارة: «تحمّلي من أجل أولادك!»، أو بتأثير من عائلة الزوج، ناهيك عن وضعهن الاقتصادي غير المستقر، أو تهديدات أزواجهن، أو التململ بسبب الإجراءات الطويلة جدًا (والتي قد تتجاوز سنة كاملة) والمكلّفة للغاية، والتي تستنزفهن نفسيًّا وجسديًّا وماليًّا. ومن جهة أخرى، قد تكون الأسباب مرتبطة بدعمنا لمثل هذه القضايا الذي غالبًا ما يكون محدودًا، وفي بعض الأحيان قد لا يكون ذا كفاءة عالية. ففي الواقع، من نحن أمام سلطة جهاز العدالة؟

كرّست السيدة س. سنةً كاملةً لقضيتها المتعلّقة بالعنف المنزلي، حيث كانت تذهب كل يوم تقريبًا إما إلى مركز الشرطة أو إلى المحكمة. من يملك مثل هذا الإصرار للقيام بذلك؟ فهي أمّ لأطفال صغار ومتمدرسين؟ مع ذلك، كانت السيدة س. مصمّمة على الذهاب إلى أبعد نقطة، فقد لاقت المساندة والدّعم من أصدقاء ساعدوها ماليًا، إضافة إلى عملها خياطةً، وبعض المدخرات المالية التي كانت تحتفظ بها.

أخيرًا، أدانت المحكمة السيد ب.، وسلّمت بتعرض السيدة س. للضرر، وكل ذلك بفضل نضالها الشجاع.

القضيّة الثانية: العدالة لا تعوّض عن الضرر

بعد طلاقها التعسفي في جوان/حزيران 2021، لم يكن لدى السيدة س. مكان تأوي إليه، فوالداها متوفيان وبيت العائلة يقطنه إخوتها مع زوجاتهم وأبنائهم.

قررت السيدة س. البقاء في منزل الزوجية إلى حين أن يدفع لها زوجها السابق تعويضات عن الطلاق التّعسفي، مع سعيها خلال ذلك لإيجاد حل.

فهي لا تملك الحق في العقارات التي امتلكها الزوج خلال الخمس وعشرين سنة من الزواج، والمتمثّلة في منزل من أربعة طوابق وسكن اجتماعي. كلاهما مسجّلان باسم طليقها.

بعد بضعة أيام من إعلان الطلاق من قبل محكمة الاستئناف، قام طليق السيدة س. بتغيير الأقفال ومنَعها من استعادة أغراضها. وفي مساء 26 جوان/حزيران 2021 أصرّت على الدخول إلى البيت فوجّه لها ضربة على الرّأس بالمطرقة، بمساعدة ثلاثة رجال من عائلته، حيث قاموا بتكبيل ذراعيها.

اتّصلت بي بعد يومين من الحادث، وهي ما زالت تحت تأثير الصدمة. كان لديها بعض غرز الخياطة على الجرح، وقد أصدر لها الطبيب الشرعي شهادة طبية مدتها اثني عشر يومًا من العجز الكلي عن العمل، فتوجّهت إلى مركز الشرطة لتقديم شكوى.

– طلبتُ منهم مساعدتي في استعادة أغراضي، قالوا إنهم لا يستطيعون فعل أي شيء دون وثيقة رسمية من المدّعي العام.

توجهت السيدة س. في اليوم نفسه إلى المدّعي العام، الذي سلمها رسالة إلى مركز الشرطة وقد قال لها: «للأسف يا سيدتي، النساء المطلّقات لا يملكن أيّ حق!»، أخبرتني بذلك وانفجرت بالبكاء على الهاتف. حاولتُ طمأنتها من خلال عرض مرافقتها إلى مركز الشرطة في اليوم التالي.

عند وصولي إلى مركز الشرطة، لم يسمحوا لي بالدخول مع السيدة س.

– يتعذر دخولك سيدتي بسبب الكوفيد. إلى جانب ذلك فأنت لست محاميتها.

انتظرت في الخارج تحت أشعة الشمس الحارقة رغم أن الساعة كانت تشير إلى 09:30 صباحًا فقط.

بعد مرور خمس عشرة دقيقة خرجت السيدة س.

– أخبرني المفتش أنهم سيقومون بالتحقيق وسيستدعون الجناة ويتصلون بي، لكنهم لا يستطيعون إعادتي إلى بيت الزوجية، فنحن مطلقان!

أُودعت الشكوى في 27 جوان/حزيران، لكنّ التحقيق لم يُرفع إلى المدعي العام إلّا في 3 أوت/آب 2021. اضطررنا إلى العودة أكثر من أربع مرات إلى مركز الشرطة للحصول على تلك المعلومات الضرورية للمحامية والسيدة س.، وذلك لمتابعة الملف على مستوى المحكمة.

بعد مرور أربعة عشر شهرًا من تقديم الشكوى، حُدّد أخيرًا موعد الجلسة الأولى في 18 سبتمبر/أيلول 2022. توجّهت السيدة س. إلى هناك بمفردها لطلب التأجيل، لأن محاميتها كانت مشغولة، فأُجّلت الجلسة إلى تاريخ 16 أكتوبر/تشرين الأول.

أخبرتنا السيدة س. أن زوجها السابق هو الوحيد الذي سيخضع للملاحقة القضائية، أمّا أخواه وابن أخيه الذين كانوا حاضرين يوم الاعتداء، والذين كبّلوا ذراعيها بينما كان زوجها السابق يضربها على الرأس، فلم يُستدعوا إلى المحكمة مع أنّها قدمت شكوى ضد الرجال الأربعة. هي لم تفهم سبب عدم استدعائهم ولا أنا، لكن المحامية فسرت لنا ذلك بأن قاضي التحقيق بعد إتمام التحقيق، قرّر على الأرجح مقاضاة زوجها السابق فقط.

– ملف رقم 5260[4]، تعلن القاضية.

تتقدم السيدة س. أولاً، وقد سبقتها محاميتها لتأخذ مكانها وراء العارضة.

– ما علاقتك بهذه السيدة؟، تسأل القاضية المتهم.

يتحدث السيد ب. بصوت خافت، تطلب منه القاضية أن يعيد ما قاله.

– زوجتي السابقة.

– هل أنت خائف من قول ذلك؟

يتقدم رجل شرطة ليقف بين الضحية والمتهم.

– ما اسم والدك؟ ووالدتك؟ أين تسكن؟ ما هو تاريخ ميلادك؟، تتابع القاضية.

يجيب السيد ب. على الأسئلة بكل هدوء وبصوت واضح ورأس شامخ ويدين متشابكتين خلف ظهره.

– أنت ملاحق بتهمة الجرح والضرب العمد بسلاح أبيض، وفقًا للمادة 266 من قانون العقوبات. ما قولك في ذلك؟ الضحية هي السيدة س.

– أنا لم أضربها.

– ألم تضربها؟

– لا، لم أضربها أبدًا، إذا كان لديها أي...

تقاطعه القاضية وتسأله إن كان لديهم أبناء.

4. غيّرنا رقم الملف للحفاظ على السرية وإخفاء هوية المعنيين.

– أنا لم أضربها، لقد ضربت نفسها...

تقاطعه القاضية مرة أخرى، لكن المتهم يواصل الكلام، تضرب القاضية بيدها على المكتب، وتطلب منه الصمت وتتوجه كلامها إلى الضحية:

– كم عمرك؟

تتحدث السيدة س. بصوت خافت جدًا، فلا تسمعها القاضية وتطلب منها التكرار:

– تكلمي بصوت مرتفع. هل وقع الاعتداء قبل الطلاق أم بعده؟

– بعد الطلاق.

– لماذا؟ هل كنت تسكنين بالقرب منه؟

– لا، لقد كان يضربني حتى قبل طلاقنا. في كل مرة كان يضربني أخبره أنني في المرة القادمة سأقدم شكوى ضده، وهو...

تقاطعها القاضية، وتضغط عليها هي كذلك:

– انتظري، توقفي! لماذا ضربك هذه المرة؟

– عندما ضربني، لم أكن حتى قد سحبت الحكم من المحكمة لاستعادة أشيائي. لذلك فقد كنت ما أزال أعيش في منزل الزوجية. السيد يمتلك منزلا قمنا ببنائه معًا ولكنه مسجّل باسمه وحده، كما يمتلك سكانًا اجتماعيًا كان بإمكاني البقاء فيه إلى غاية إيجاد حل.

ينفد صبر القاضية، تقاطعها ثم تضرب على مكتبها مرة أخرى:

– ما زلت لا أفهم. أنت تتحدثين وأنا لا أفهم! متى ضربك وكيف ضربك! ذهبت لأخذ أغراضك، أليس كذلك؟ هل ضربك في تلك اللحظة؟

تشعر السيدة س. بالتوتر، وتتوه في تفاصيل الأحداث، تتلعثم، تنظر إلى محاميتها التي تقترب منها لطمأنتها، فتطلب منها القاضية الابتعاد وترك الضحية تعبر عن نفسها بمفردها.

تتابع السيدة س. قائلة:

– في ذلك الوقت، سيدتي القاضية، لم أكن قد جمعت أشيائي بعد. ذات مساء عندما أردت الدخول إلى الشقة، قام بتغيير الأقفال. وعندما طرقت على الباب، خرج هو وتبعه ثلاثة رجال، وهم أحد أبناء أخيه واثنان من إخوته، سألني عما أريد، فقلت له إنني أريد استعادة أغراضي. عاد إلى الشقة، أمسك بي الآخرون من ذراعي، ثم عاد بمطرقة وضربني على رأسي.

– ضربك بمطرقة على رأسك؟

– نعم سيدتي الرئيسة، أصبت بالدوار وسقطت على الأرض و...

تقاطعها القاضية وتلتفت إلى المتّهم،

– هل ضربتها، نعم أم لا؟

– سأختصر، سيدتي القاضية. صحيح أنّها جاءت لتأخذ أغراضها، فقلت لها أن تأتي وتأخذها رفقة حاجب من المحكمة.

–لماذا؟ هل تزوجتما في حضور الحاجب؟

– لا.

–حسنًا، إذن لماذا؟

– طلبت منها إحضار الحاجب حتى لا تكون هناك أية مشاكل فيما بعد، ولكي تجري الأمور بشكل قانوني. غادرت وعادت برفقة رجل وهي تحمل قضيبًا حديديًا ومطرقة. سمعتها تدق على الباب بالقضيب الحديدي، فتحت الباب واتصلت بالشرطة. عندما سمعت الشرطة قادمة، أمسكت بالقضيب الحديدي وضربتْ رأسها. أما الرجل الذي جاء برفقتها فهرب.

– كيف هذا؟ هل ضربت نفسها؟

– إنها الحقيقة، أقسم لك بالله. دعيها تعترف هنا والآن!

كان يصرخ. ضربت القاضية المكتب مرة أخرى وطلبت منه الصمت.

– ما هو جوابك؟، سألت القاضية، مخاطبة السيدة س.

– كل ما قاله غير صحيح، سيدتي القاضية.

– هل هو من ضربك؟

– نعم هو! لم يكن هو الذي اتصل بالشرطة، كانت هناك امرأة...

– حسنًا، حسنًا، هذا يكفي!، صرخت القاضية.

صرخ المتهم:

– فلتعترف بالحقيقة! لقد أقسمتُ أن تضعني في السجن لكنني لست أحمق!

تصرخ القاضية بدورها، وتطلب الصمت وتضرب على مكتبها ثم تحيل الكلمة للمحامية.

في نهاية المرافعة تلتفت القاضية إلى المدعي العام، الذي يطلب توقيع عقوبة بالسجن لثلاث سنوات وغرامة قدرها 100.000 دينار.

– سيد ب.، ما الذي تطلبه؟، تسأله القاضية

– البراءة، سيدتي القاضية.

– سيصدر الحكم في 30 أكتوبر/تشرين الأول. يمكنكم المغادرة.

نخرج إلى ردهة المحكمة. المحامية غاضبة من السيدة س. التي تحبس دموعها، حيث تنتقدها بسبب روايتها المشوشة والتفاصيل غير الضرورية.

– كان عليك أن تتمسكي بالحقائق. هل رأيت كيف تحدّث زوجك السابق؟ لقد كان يقول كذبًا، ولكنه كان واثقًا من نفسه! تحدث بصوت واضح ومطمئن. لا أعرف القاضية، لكنني متأكدة من أنه

سيحصل على البراءة! كل شيء يحسم في يوم الجلسة! كان عليك أن تكوني واثقة من نفسك أكثر. لقد فعلت ما بوسعي. سنرى.

غادرت المحامية تاركة إيّانا وسط تلك الردهة مترامية الأطراف وباردة الجدران، غارقتين في ذهول وضياع.

يوم صدور الحكم، كنّا في قاعة المحكمة. القاضية تتحدث بسرعة كبيرة، تتعثر في الكلمات، تعتذر، تصحّح وتكرّر، لم أفهم ما تقوله. أمّا السيدة س. فقد فهمت، رأيت ذلك في تشنج ملامحها واضطرابها. نغادر القاعة.

– الحبس شهرين فقط مع وقف التنفيذ، وغرامة 50.000 دينار! أقل من المحاكمة السابقة.

هي لا تصدق ذلك، ولا أنا في الحقيقة.

– ضربني بمطرقة على رأسي!

ألتزم الصمت

– أريد الاستئناف!

أشعر بالغثيان.

نظرت إليّ، شكرتني، ثم غادرت.

بعد أيام قليلة، جاءت إلى مقر الجمعية لتخبرنا أنها ستعيش في مسقط رأسها، فقد سمح لها أشقاؤها بالسكن في شقة والدتهم الراحلة. البيت مهترئ منذ حدوث الزلازل الأخيرة، لكنها قالت: «إذا سكنت فيه فسوف استفيد من إعادة إسكان».

هي لا تريد الاستئناف بعد الآن. وكان آخر ما قالته: «أنا متعبة. لقد كلفني ذلك كثيرا».

5. بداية شهر مارس/آذار، أعلمتنا السيدة س. أنّ وكيل الجمهورية استأنف الحكم الذي أصدرته المحكمة الابتدائية، وأنّ تاريخ الجلسة حُدّد في منتصف مارس/آذار. يمكنكم متابعة باقي مجريات هذه القضية على المدوّنة:
http://chroniquejudiciairedz.wordpress.com

Game ovaire*

عمود سارة حيدر

* «Game ovaire» عنوان اختارته سارة حيدر، لأنها تفعل ما يحلو لها!

تشريح رهاب جماعي

معارك النسوية الحديثة: ما هي وما هي ليست

«لا يوجد شخص أشدّ غطرسة اتجاه المرأة، ولا أشدّ عدوانية واحتقارًا، من رجل يخشى على رجولته.»
سيمون دو بوفوار
«ماشي وَقْتو» جماعي

في شهر جوان/حزيران 2022، اشتعلت شبكة الإنترنيت بصورة للفريق الوطني الجزائري النسوي للجمباز، ظهرت فيها لاعبات في مقتبل العمر، يرتدين الزيّ الرياضي العادي، وهنّ يقفن بكلّ فخر أمام عدسة المصور، في إطار مشاركتهن في الألعاب المتوسطية التي أُقيمت في مدينة وهران.

كما يحدث غالبًا في مثل هذه الحالات، انتشر الزعيق والنعيق على منصات التواصل الاجتماعي في الجزائر، نتيجة الملل والضجر تارةً، وتارةً بدافع الجنون الإيديولوجي. وكالمعتاد، صارت تلك المواقع مسرحًا للمواجهة التقليدية بين معسكرين متعارضين في ظاهرهما، ويشار إليهما بتسميتين فارغتين لا معنى لهما، بقدر ما هي عليه المشاحنات بينهما؛ «الظلاميون» مقابل «التقدميين».

أرغى الفريق الأول وأزبد أمام اضمحلال القيم والانحطاط الأخلاقي للمجتمع الجزائري، الذي يُعدّ «عري» النساء أوضح تجليّاته. وفي المقابل، انتشى الفريق الثاني أمام روعة الحريّة، وحيويّة الشباب، وجمال أولئك الفتيات بنظرتهن وأجسامهن المنتصرة!

علاوةً على الجنسنة المتأصّلة للعديد من البدلات الرياضية النسائية، كانت الصورة التي عكستها تلك الصولة الجديدة من صولات الجدل المتكرّرة صورة فرقتين، مجنّدتين لخدمة «أيديولوجيتين» عدوتين، تتناحران بشراسة بشأن جسد المرأة (في حالتنا هذه، أجساد لاعبات جمباز يافعات، بالكاد بلغن سنّ الرشد). ووفقًا للتفكير الجزائريّ، الموروث عن الصراع الدموي خلال العشرية السوداء، فإنّ جماعة «التقدميّين» المدافعين عن أفخاذ اللاعبات العارية، هم أصدقاء النساء الجزائريات، والحلفاء الطبيعيون لنضالهن من أجل التحرر؛ وأمّا «الظلاميّون»، المحافظون الذي استهجنوا الموقف، فهم بطبيعة الحال أعداء القضية النسوية.

تظهر هذه الثنائية بانتظام من فترة إلى أخرى على الساحة، إذ إنّها تتجاوز مجرد جدل عابر مثل الجدل الذي شهدناه. وهي قائمة على عداء وجودي بين «تيّارين» يهيمن عليهما تاريخيًّا واجتماعيًّا الرجال؛ عداءٌ يضرب جذوره في أعماق اللاوعي الجمعي، حيث يمتزج اللّامفكر فيه اجتماعيًّا من صدمات التسعينيّات، وموروث استعماري، وأبوية سلطوية، وحداثة سطحية.

حروب سيطرة

يتعامل كلا الفريقين مع جسد المرأة وفكرها على أنهما منطقة استراتيجية يسعيان للسيطرة عليها؛ مخزون من القيم يحتاجه كل منهما ليعرّف نفسه سياسيًّا واجتماعيًّا على الطرف النقيض من الآخر. ففي حين يجعل «الظلاميون» من كِيان المرأة عنصرًا من العناصر المكوِّنة لمشروعهم في ثورة اجتماعية، وذلك بإرساء حياء الأنثى، وخضوعها للرجل، ولباسها الإسلامي، كضمانات أساسية لنهضة الشعب؛ يهبّ «التقدميون» لرفع صورة المرأة العصرية العاملة والمستقلة، ويستحسن أن تكون مرتدية طقمًا من «شانيل»! إلّا أنّ كلاهما يتفقان على فكرة أن شؤون المرأة هي، في الآن ذاته، أداةٌ للمشروع المجتمعي لكل منهما وتجسيدًا له. ولقد ترسّخ نمط التفكير هذا في الأوساط السياسية والثقافية الجزائرية، لاسيّما نتيجة للصراع الدموي الطويل الذي روّع البلاد خلال التسعينيّات من القرن الماضي، ولا تزال آثاره محفورة في الذاكرة.

النجاة من النسوية

يأثّر نمط التفكير هذا على الاستراتيجيات التي يضعها هذا الفريق أو ذاك في مواجهة الحركة النسوية، بخاصة أمام الجيل الجديد من المناضلات والمؤيّدات، اللّاتي نجحن في بضع سنوات فقط في إحياء النضال من أجل التحرر، وتجديده، وتوطيده.

شهدنا حينها ظواهر محيّرةً داخل دوائر سياسيّة واجتماعية، أقل ما يقال عنها أنها متباينة أشدّ التباين، أمام خطاب هذه الحركة الطليعيّة ونشاطاتها وطريقة تفكيرها، والتي لم يتسن الوقت بعدُ لفهم آلياتها، وبالتالي السيطرة عليها.

اليوم، وقد أمسى تحمل مسؤولية إرادة القضاء على الحركة النسوية أصعب، بل وأقلّ رقيًّا وجاذبيةً، لإيديولوجيات تدعي مناصرتها للمساواة بين الجنسين، أصبح من الأسهل اللجوء إلى طرق أخرى، تتراوح بين الاندساس في الحركة وإشعارها بالذنب، مرورًا بالوصاية الأبوية، والتشهير، والقوامة الأخلاقية السياسية.

أصبحت ما تسمّيه العقول المتخوّفة – أيًّا كانت ولاءاتها – النسويةَ الجديدة الراديكالية، الكارهة للرجال والضارة، في مقابل «النسوية الحقيقية»، الإصلاحية والقائمة على المساواة والملائمة، أصبحت إذًا إشكاليةً محوريّةً في صلب التيارات الأشد «تقدميّةً»، يساريةً كانت أو يمينيةً. هذه التيارات، والتي من المفترض أنها معارضةٌ للمحافظين والاسلامويين الآخرين، الذين، هم، يعبرون عن عداءٍ معلنٍ ومتسقٍ تجاه النسوية عمومًا، وجدت نفسها مضطرّة لوضع استراتيجيات أكثر «دهاءً» للتصدي للنسويات الجديدة أو احتوائها. فحضور هذه الأخيرة أضحى حضورًا حتميًّا، ليس في الإمكان الاكتفاء بتجاهله أو شيطنته بغباء كما في السابق؛ حضور يستقطب أعدادًا متزايدةً من النساء، ويفرض نفسه بوصفه قوةً سياسيةً واجتماعيةً، في سياق لم يعد يتيح طمرَ أعمال العنف الجنساني تحت رواسب ثقافة الصمت، وحيث لم تعد الإرادة في التحرّر وتجاوز السلطة الأبوية تقتصر على مناضلات معروفات، بل تشمل الكثير من النساء، من مختلف الانتماءات السياسية والطبقات الاجتماعية.

هذا ما يجعل على الأرجح الحربَ الشاملة على النسوية شبه مستحيلةٍ الآن، وما يجبر اليساريين والمحافظين والليبراليين على حد سواء على الردّ بطرق مختلفة على هذا «الخطر».

فالعديد من المنظمات والأحزاب اليساريّة الجزائرية أدرجت بعض المطالب النسوية في برامجها؛ في غالب الأحيان تحت المراقبة اليقظة للإدارة المكونة عادةً من الرجال. ولم يتخلف عن هذا الركب عددٌ من التشكيلات المسماة «ديمقراطيةً» أو «تقدميةً»، عادةً ما تنتمي إلى الليبرالية الجديدة؛ فهي أيضًا أضفت لمسة نسوية على واجهتها، بإبراز العنصر النسوي ضمن إطاراتها. وعدا بعض الفروقات البسيطة، يبدو أنّ لكلا الجمعَين فكرة محدودة للغاية عن ماهية النضال من أجل حقوق النساء، واعتقادًا مشتركًا بضرورة انصهاره في الهوية السياسية العامة لهما. ممّا يعني أنها لا تفسح المجال، أو بالكاد، لهذه الاختلافات والتطلعات «الجديدة».

على هذا النحو، تُحدّد تحديدًا تعسفيًّا عتبة مقبولة للنسوية، وتتحول هذه الأخيرة في حال تجاوزتها إلى عدو موضوعي؛ إمّا برفضها الانخراط في أحد الإطارين المفروضين، وإما برفضها الصريح لهيمنة الحزب والمنظمات التقليدية الأخرى.

وهكذا، تتكون في بعض الأوساط، على نحوٍ واعٍ إلى حد ما، مفردات عدائيّة تجاه النسويّة الخارجة عن السيطرة، والتي يُعاب عليها بالدرجة الأولى وعيها بجميع أشكال العنف الموجه ضد النساء، مهما كانت مكرّسةً وخفيّةً، وأيضًا تخلّيها عن أشكال النضال «المهذّبة» و«الصحيحة».

نسويّة خطيرة لأنها راديكالية، وراديكالية لأنها متبصّرة، يُنظر إليها على أنها خطر وتهديد لأنها تسعى إلى تحديد أشكال «العنف العادي» وتعريفها على أنها عنفٌ، الأمر الذي قد يفضح العديد من الرجال، المصنّفين «فوق كلّ الشبهات»، ببساطة لأنه سبق وأثبتوا براءتهم بمجرد تعريف أنفسهم على أنهم «نسويون». نسويةٌ لا تكتفي بشعور الأسى والحزن على النساء المعنَّفات، والمغتصبات، والمقتولات، بل تبحث عن جذور العنف، والاغتصاب، والقتل في أغوار نفسيّة المجتمع؛ نسوية تفكّك بنية الجريمة، وتجذرها العميق في أنماط تفكير وسلوك مبهمة إلى حدّ كبيرٍ، وتمظهراتها المختلفة في الحياة اليومية.

تحالف في مواجهة عدوّة مشتركة

مع نهاية العام 2022، أفاد العد الجنائزيّ عن مقتل ثمان وثلاثين (38) امرأة على الأقل، على يد رجالٍ من محيطهنّ منذ بداية العام، أي بمعدل يزيد عن امرأة واحدة كل أسبوع. تثير هذه الأرقام، بطيعة الحال، الاستنكار المتعارف عليه والتوافقي لدى المتبجّحين بالصلاح. لكننّا لا نعرف إلى غاية اليوم عدد النساء اللواتي يتعرضن للاغتصاب، والضرب، والمضايقات، داخل العلاقة الحميمة الخانقة بين الزوجين، أو وسط شلّة الأصدقاء، أو في دوائر النشطاء، أو في كنف أسرهنّ. كما أننا لا نعرف هوية جلاديهنّ ولا مكانتهم الاجتماعية.

يخلق عدم التوازن في البيانات المتوفرة نوعًا من سوء الفهم المزدوج؛ إذ إنه يجعل القتل نوع العنف الجنساني الأكثر شيوعًا، إن لم نقل الوحيد، الذي يشغل حيز التفكير والإدانة، في حين تُغيّب الأنواع الأخرى، إلى حدّ نكران وجودها!

علاوةً على ذلك، تؤدي الإحصاءات المعروفة إلى تحيّز آخر، مفاده أنّ مرتكبي جرائم قتل النساء هم عادةً أشخاص ذوو مستوًى تعليميّ متدنٍّ، وينتمون إلى فئات اجتماعية فقيرة. حينها يتولى اللامفكَّر فيه

التقليدي والاجتنابيّ الباقي، فيصبح الفقراء، و«المعقّدون»، و«الجهّال» الأشخاص الوحيدين العنيفين تجاه النساء. إلا أنّ عددًا من النسويات يشكلن مصدر إزعاجٍ، لأنهن بتحليلاتهنّ، وأفكارهنّ، واستهجانهنّ، تقوّضن هذه النظرية الزائفة، وتضعن الجمهور أمام مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأفكار والأفعال ذات البعد الجنساني. إنّ حصر العنف في تجسّده المتطرف فقط (القتل) يزيد من معاناة النساء و... من أعمال العنف العادي!

إنّ الريبة، بل والعداء الخفيّ، اتجاه نسويّة الأجيال الشابة هي، في المقام الأول، انعكاسٌ لخوف سياسيٍّ واجتماعيٍّ وتبعيٍّ. فعلى سبيل المثال، نرى أنّ التعريفات القانونية تدعم آليات الدفاع والإنكار لوسطٍ سياسيٍّ وثقافيٍّ واجتماعيٍّ يرفض توسيع أفق تفكيره، ونقد ذاته، ورؤية ما تنطوي عليه أفعاله من خلل وتعدٍّ على النساء.

فلانٌ، بعيدٌ كلّ البعد عن الشبهات لأنّه شخصٌ عصريٌّ و«شبْعان»، اعتدى جنسيًّا على صديقة له. وآخرٌ، كثيرًا ما يفقد «السيطرة» على أعصابه، يضرب زوجته. وثالثٌ يتحرش بزوجته السابقة بإرسال عشرات الرسائل النصية القصيرة ليلًا، متوسّلًا أحيانًا، ومهدّدًا أحيانًا أخرى. وآخرون، لا تشوبهم أيّ شائبة ظاهريًّا، يستغلون سذاجة، أو خجل، أو صدمات أو هشاشة الرفيقات، أو الصديقات، أو الزميلات، ليفرضوا عليهنّ علاقات جنسية. وآخرون كثرٌ هم من مرتكبي التحرش، والمضايقات، والسلوكيات المتحيّزة ضد النساء، في مكان العمل،

لا عجب إذًا أن تشعر الأغلبية بالانزعاج من تحديد مفاهيم مختلف الظواهر الذكورية والكارهة للنساء، خارج «المشتبه بهم المعتادين» المعروفين. ثقافة الاغتصاب؟ الرضا؟ العنف البنيوي؟ السيادة (الحقيقيّة) للنساء على أجسادهنّ وخياراتهنّ؟ قضية الإجهاض والحرية الجنسية؟ مجرّد هراء ابتدعته النسويات الجدد، واستلاب ثقافي! نضالٌ برجوازيٌّ زائفٌ، في نضر البعض، و «نضال الملابس الداخلية» للبعض الآخر؛ خيانةٌ لنسويّة الأيام الخوالي الحقيقية والسامية، في نظر كلا الفريقين. فكونهما عدوّين إيديولوجيين لدودين لا يمنع من اتفاقهما حين يتعلق الأمر بالسيطرة على قضية النساء!

في عام 2019، في أحد وسائل الإعلام المعروفة بخطها التقدمي، طُرح خلال أحد برامجها الإذاعية السؤال التالي: «كيف يمكننا النضال من أجل المساواة دون إخافة الحراك؟»! وقبلها ببضعة أشهر، أدانت مختلف الدوائر والأطياف السياسية بالإجماع إنشاء «المربع النسوي» في إطار الحراك الشعبي، لأنّه كان «مسبّبًا للشقاق». لكنهم، أمام صمود المناضلات وثباتهنّ، راجعوا موقفهم وقبلوا، بشيء من المضض، وجود هذا الحيّز المخصص لحقوق المرأة؛ وإن لم يتحرّجوا من المرور بانتظام ليشرحوا للناشطات الطريقة التي عليهن اتباعها في نضالهن!

إلّا أن محاولات تكميم الأفواه لم تتوقف من وقتها؛ من وصاية ذكوريةٍ وتعالٍ، إلى النميمة والتشهير، مرورًا بالسخرية والتخويف. في الجزائر، كما في البلدان الأخرى، الجميع تقريبًا لا يستسيغ توسع مجال النضالات النسوية، لما تملكه من قدرة على فضح أفعال يندى لها الجبين لدى «أحسن» الرجال!

شظايا الأحلام*

إبداعات جديدة

مايسة باي
نوال الوراد

*فيلم وثائقي لبهية بن شيخ لفقون، أُنتج عام 2017

على مسلك الذات

مايسة باي

منظر طبيعيٌّ؟ قارةٌ؟ جزيرةٌ؟ حلمٌ؟ لما هذا الإصرار على تسمية، أو تعريف، أو منح حضور جغرافي أو ذهني، باستعمال اللغة، لأرض تبرز أمام أعيننا فجأةً، رغم إدراكنا أنّ الصخب لن يهدأ أبدًا؟ الأرض المجهولة.

لماذا لا نقول لأنفسنا ببساطة: إنه هنا. أو بالأحرى هذا هو. هذا هو، بدون رجعة. و«هذا» موجودٌ منذ وقت طويل. ولم أتمكن من رؤيته. لم أرد، ربما. سيأتي لاحقًا وقت الأسئلة. ربما.

أمّا الآن، فينبغي إعطاء معنًى للفعل أبصر. لهذا الغرض، إبقاء الأعين مغمضة بإصرار. والأهم، التخلص من كل الأوامر الأخرى. الانحناء، مثلما ننحني تحت تأثير ريح لا نعرف في أيّ جهة من الجهات الأربع ولِدت.

هذا هو. وهذا يُحدث قرعًا داخل الذات، شبيهًا بالموسيقى، أو بنشاز وُلد في مكان أبعد من الذكريات.

ونقف هاهنا، على شفا الوقت السابق لأيّ وعيٍ.

من أين جاء ما يجعل عينيّ تغرورقان؟ دموع تنضح من هزائم لا نعيها تمامًا، من حسرات لا ندركها كليًّا، من تنازلات لا عدّ لها.

في كبد ما هو سماءٌ لأعماق الذات، هناك تجاعيدٌ. تجاعيد الصمت أو تجاعيد الماقَبل. ما قبل الزمان. شيء ما غير معروف وفي الآن ذاته مألوفٌ كلّ الألفة. أن نقول كلمة امرأة ونرغب في محوها مباشرة بعدها.

لكنه هنا، وهو يخفق

بجنون،

خفقانٌ خفيٌّ لكلّ ما هو غير الذات.

آه، هذه الجلجلة! طبولٌ على ضفاف النهر. مياه نهر ليثي. محو كل أثر للحياة السابقة أو عودة إلى الحياة السابقة. لست أدري.

هذه الخطوط. هذه الخدوش. هذه العلامات المحفورة في ذاتي وكأنها رموز هيروغليفية وحدي أنا من ~~قد~~يقدر على فكّ شفرتها. سماوات. أطلال. أشواك. انكسارات في الحياة، ربما. يحلّ حينها الوعي الغامض بخراب ما. شظايا. كواكب-نكبات.

أنا هنا، مترقّبةٌ ساكنة. تتداخل الآفاق في الوقت الذي يلوح فيه النهار الأول أمغرَ

أنا هنا، في مكان ما، وسط هذه الرياح المضادة. مضادة؟ لا، ليست كذلك البتة!

أنا هنا، معزولة عن النهار، يحاصرني الليل، متوتّرة في انتظار موجع، أشد وجعًا حتى من الانتظار.

إنها منطقة سرية، بلاد خفيّة، مكان تسري فيه أحيانًا ارتعاشات الضوء وصرخات غير مسموعة تتلاشى وهي تتشبّث بغيوم هاربة في سماء على وشك أن ترعد.

أعرف الآن.

في داخلي فضاء أوسع من أي ذاكرة، تنصرف الرياح على مشارفه ويخبو الغضب. مكان يكتسيه الغموض، حدوده منيعةٌ، أسواره حجريّةٌ تندحر أمامها هجمات أعتى فرسان الظلام. منطقة يقول البعض أنها معتمة، تسكنها الظلمات، بل ومغضوب عليها، مغضوب عليها أبد الدهر، ففي حشاها تختبئ خيالات مراوغة ورغبات ~~وقحة~~.

هناك، يقولون، نعم، هناك أمر غريب بشأنها. نتوءات مفاجئة. تنافر. صمت. شرارات هاربة من بؤبؤ عينيها. قالوا، نعم، أمر غريب. هي ليست مِثل. مُثلى. تخليد. قربان. رحمة. تهديد. واختراع حياة من كل كلمة. قاموس للمشاركة.

...وكأنّ، كلماتي أنا، كلمات صامتة، كلمات موشومة، تجري مجرى الأزرق تحت جلدي. الكتمان. أن نصمت. ألّا نمكّنهم من شيء يجعلنا لقمة سائغة.

آه، هذا الصمت المتعدد!

أنا

أنا هنا. في الداخل. في الباطن. عليّ أن أمضي قدمًا على مسلك الذات-الحرير ذي الألوان المتنافرة، مسلك نُسج بأناة، كثيرًا ما ينحلّ، كثيرًا ما ينقطع، لأشق طريقي عبر كل ما يقاوِم، يقاوم، يقاوم. المضي، بأذرع ممدودة، نحو من، نحو ماذا، لا أعرف كيف أصل إلى منتهاه. لم يتبق لي الكثير من الوقت. المضي قدما، مهما كلفني الأمر.

ونجد في ارتعاش ما يتراءى في البعيد، سرابًا كان أو انعكاسًا، نجد نقطة انقطاع المياه لنولد من جديد في ذواتنا.

Pas

Nawel Louerrad

Petite conversation, petite remontrance puis petit combat.
Les luttes intestines prennent fin.
Elle est venue, l'heure où le pied doit être mis à terre.

يعاني الجسد لعدم قدرته على نقل كامل كتلته إلى الأرض،
فالأرجل ضعيفة والبطن يحتفظ بكل شيء

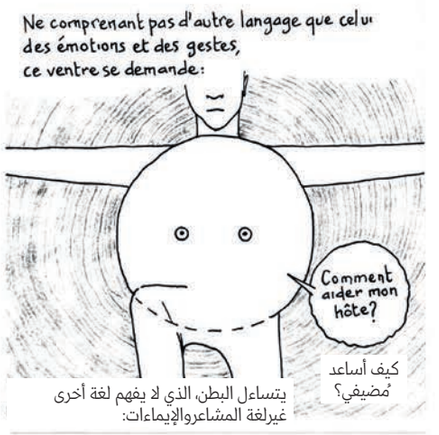

يتساءل البطن، الذي لا يفهم لغة أخرى غيرلغة المشاعروالإيماءات:

بحسن نيّة، يمتصّ الطاقة التي لا يمكن إيصالها
إلى العالم الخارجي

في أثناء ذلك، يفكر، بخلاياه العصبية التي يعادل عددها دماغ
كلب داشهند أنّ الانسداد سيزول قريبًا

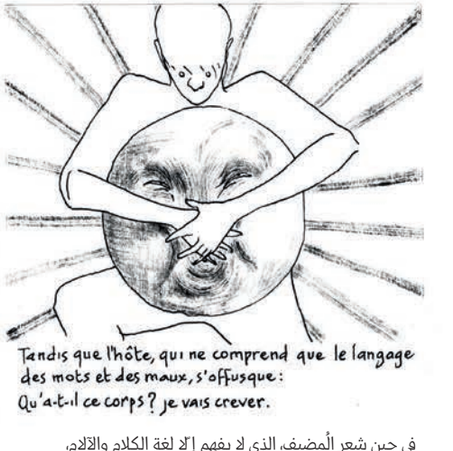

في حين شعر المُضيف، الذي لا يفهم إلا لغة الكلام والآلام،
بالامتعاض: مالهِ هذا الجسد؟ سأموت

Ventre et hôte communiquent comme deux étrangers enfermés dans une même pièce

يتواصل البطن والمضيف وكأنّهما غريبان
محتجزان في غرفة واحدة

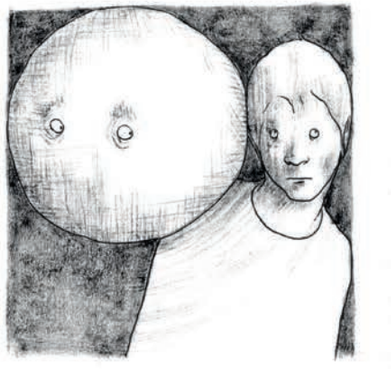

L'un est toujours plus poli que l'autre, il essaye de s'adapter

أحدهما دوّما ألطف من الآخر، ويحاول التأقلم

Alors que l'autre pense que le monde entier doit comprendre sa langue

في حين يعتقد الآخر أنّ على العالم أجمع فهم لغته

Il se retire dans une attitude de prince

ها هو ذا ينزوي متعاليًا كالأمير

L'hôte est celui qui croit tout savoir, tel un colon, sans l'accent circonflexe, celui qui colonise, pas le contenu du ventre.

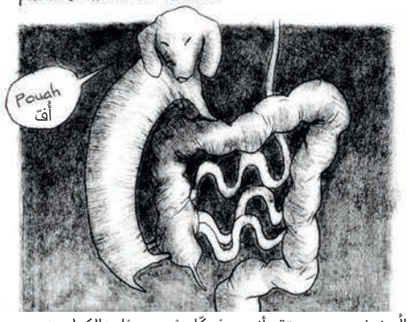

المُضيف هو من يعتقد أنه يعرف كّل شيء، مثل «الكولون»، بالكاف لا القاف، أي المستوطن، وليس أحشاء البطن

Le ventre, plus particulièrement l'hypocondre qui se situe sous les côtes,

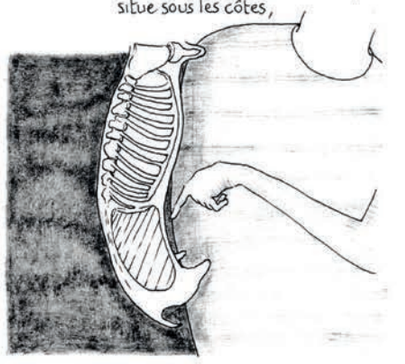

أمّا البطن، وتحديدًا المَراق الذي يقع أسفل الأضلع

se comporte comme ces personnes trop patientes, il écoute, il écoute puis il atteint un point de rupture

يتصّرف مثل الأشخاص الصبورين بالزيادة، يسمع، ويسمع، ثّم يصل إلى لحظة الغليان

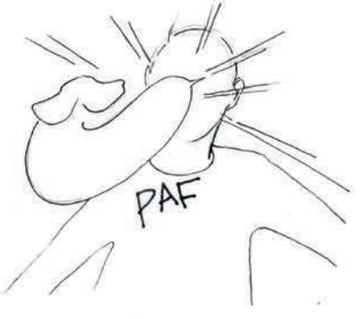

Il explose, renverse les tables, balance des mots assassins, avec regrets toujours.

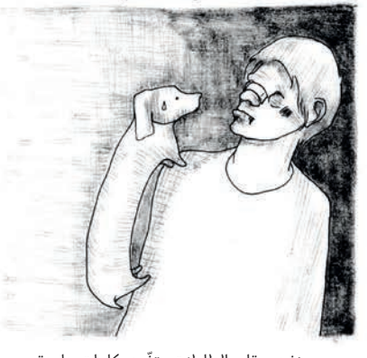

ينفجر، يقلب الطاولات، يتفّوه بكلمات جارحة، ويشعر بالندم بعدها، دوّما

يصبح المَراقّ سيّد الموقف رغًما عنه

يحاول المُضيف الخائف الهروب

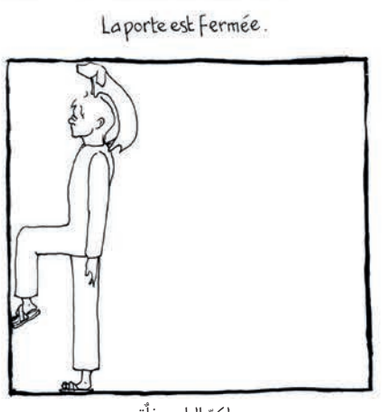

لكنّ الباب مغلّق

تبدأ حينها مفاوضات السلام

استُدعي مترجم فوريٌّ

لن نكشف عن اسمه هنا

يطلب المَراقّ، الطرف الأقوى، أن يكون وقع الخطوات أقوى

يقبل المُضيف على مضض، تاركا كبريائه خلفه

ينقل البطن كتلته كلّها إلى الأرض

أثر الخطوة واضّح

لا يهّم شكلها

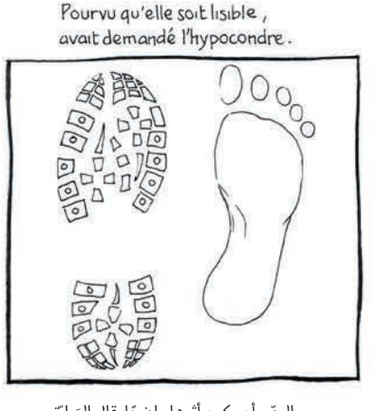

المهّم أن يكون أثرها واضحًا، قال المَراقّ.